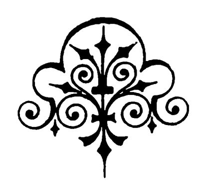
دروس من القرآن

المؤلف: محسن قرائتي
لجنة الترجمة في مركز النشر



دروس من القرآن



المؤلف: محسن قرائتي

لجنة الترجمة في مركز النشر

مركزالنشر ـ مكتب الاعلام الاسلامي

اسم الكتاب :	**دروس من القرآن**
الكاتب :	**محسن قرائتي**
المترجم :	**لجنة الترجمة في مركزالنشر**
الناشر :	**مركزالنشر ـ مكتب الاعلام الاسلامي**
الطبعة :	**الاولى**
طباعة وتصحيف :	**مطبعة مكتب الاعلام الاسلامي**
تاريخ النشر :	**جمادي الاولى ١٤٠٤**
طبع منه :	**٢٠٠٠٠ نسخة**

مراكزالتوزيع:

قم ـ شارع ارم ـ مكتبة الاعلام الاسلامي ـ هاتف: ٢٣٤٣٦

طهران ـ شارع ناصرخسرو ـ زقاق حاج نايب ـ سوق خاتمي ـ هاتف: ٥٣٩١٧٥

الفهرست



تنويه

تنبغي الاشارة الى ان بعض النصوص الواردة في هذا الكتاب قد نُقلت بالمضمون والمعنى، وقد كان الدافع الاساس لذلك الحفاظ على النهج التعليمي، الذي جاءت مفردات الكتاب في سياقه.

المترجم

تمهيد

أنهيت مرحلة السطوح من دراستي في الحوزة العلمية «قم»، وكان ذلك في حدود عام ١٩٦٩ ميلادي، وحينئذٍ انتهيت الى مرحلة اتخاذ القرار للاجابة على هذا التساؤل:

أي طريق أختار من الطرق التي يختار بينها طالب العلوم الاسلامية عادة: الفقه؟ التبليغ والدعوة؟ الكتابة والتأليف؟ الفلسفة؟ التفسير؟ ... الخ.

وقد كان هناك أمران يمكنهما أن يكونا هاديين لي في اختياري:

١ــ الحاجات الاجتماعية، وأي منها أكثر الحاحاً في مجتمعنا؟

٢ــ ذوقي الشخصي واستعدادي النفسي، والى أي اتجاه يدفعني؟

مضيت أفكر وفق سياق تصورنا عن التخصص كأصل في حياة المجتمع، وكون صاحب الاختصاص مرجحاً على غيره في أي فرع من فروع المعرفة. فاستحسنت أن أكون أنا أيضاً متابعاً للتخصص في تعليم اليافعين أصول العقيدة والأسس العامة للتفكير الاسلامي بالأسلوبين السمعي والبصري. ولأحشد طاقاتي لتحقيق هذه المهمة وأدفع بها لتتكامل، في هذا الطريق. وقد أججّ الله جذوة هذا القرار في نفسي.

خرجت من المنزل الى الشارع ومباشرة و بلا مقدمة التقيت بمجموعة من الفتيان وقلت:

أيها الفتيان الطيبون!

أيها الشباب الأعزاء!

هل ترغبون أن أكون مصاحباً وأصبح صديقاً لكم ونجتمع بعض الأحيان في مسجد من المساجد لنتباحث ونتحدث في بعض المسائل الاسلامية؟

بقيت أنتظر الجواب، الأطفال، أخذ ينظر بعضهم لبعض وتحكي نظراتهم عن هذا التساؤل:

ماذا يقول هذا الشيخ؟

فقدمت ايضاحاً لهدفي وقلت:

أحب أن أكون أخاً بين صفوفكم، وأطرح عليكم بعض الأفكار المفيدة والبسيطة. وإذا لم أوفق في عرض أفكار نافعة لكم نلغي برنامج المباحثة.

صدقي ووضوحي جذبا هؤلاء الفتية فرحبوا باقتراحي. أول لقاء كان في أحد المساجد الصغيرة في محلتنا بـ(كاشان)، وكان عدد الصبية الذين حضروا أول جلسة سبعة فقط.

وكنت أحضر الى المسجد قبل حضورهم وأتضرع الى الله أن يُعينني في تلك الظروف الصعبة من حكم الطاغوت حيث أن مجالس العزاء والمراسم العامة كانت تقام بخوف وهلع ومع اجازة من الشرطة.

طلبت من الله العون لأستطيع ايصال صوت الاسلام لهؤلاء الفتيان ولأستطيع أن أكون مع الجيل الجديد والمنسي من قبلنا.ونتعرف على جوهر الاسلام بدون ارتباط بهذه الجهة او تلك و بلا اجازة النظام الحاكم.

أول لقاء لنا كان في شهر الله (رمضان)، وفي بيت الله (المسجد)، و بالاستعانة بالله. ومع هؤلاء الفتيان السبعة، بدأت البحث.

وفي الليلة الثانية ازداد عدد المشتركين في الدرس. فجلبت معي سبورة الى المسجد من احدى المدارس وأخذت أطرح بلغة تعليمية بعض الأفكار ولمدة نصف ساعة كل ليلة. انتهى شهر رمضان. وقلت حينها للفتيان: إذا كنتم ترغبون في استمرار لقاءنا فأنا مستعد للقدوم من قم الى كاشان كل جمعة.

استقبلوا اقتراحي واستمر هذا البرنامج لمدة أربع سنوات. وفي كل يوم جمعة أذهب الى كاشان وأواصل تدريس هؤلاء. وبالتدريج أخذ عددهم يتكاثر، ويوماً بعد يوم أخذت علاقتهم بالدرس تزداد قوة. وكان ذلك دافعاً لادامة عملي في هذا الطريق.

وفي قم عرضت برنامجي على الأخوة من طلاب العلوم الدينية، وقد قَدِمَ بعضهم الى كاشان وشاهدوا لقاءنا عن قرب واستحسنوا فعاليتنا ونقلوا تجربة لقاءنا الى مدن أُخرى.

وبالتدريج أخذت فعاليتنا بالاتساع واتفقت مع سائر الاخوة الطلبة الذين تعاونوا معي على الاجتماع سنوياً.

واستمرت اجتماعاتنا لمدة ست سنوات في قم نجتمع للتشاور في برنامج التبليغ ونطرح أساليب عملنا لنتلافى نقاط ضعفنا ونستفيد من نقاط قوتنا.

وعن هذا الطريق تعرفنا على أسلوب التعليم ومضينا خطوات في هذا الطريق.

اضطهاد الحكم البهلوي بلغ أقصاه وأخذ النظام يمنع كل لقاء وبأي عنوان كان.

وطلاب قم بذريعة تعليم القرآن ينتشرون في أرجاء ايران ــ أيام العطلة الصيفية ــ ليعرفوا جيل الشباب بالاسلام وكان هذا العمل ضرورياً ومفيداً.

ونشكر الله على امتداد هذا العمل وشموله لكثير من المدن والقرى بفعل سفراتنا التبليغية نحن طلاب الحوزة العلمية.

هذه الدروس البسيطة الشعبية ــ في بحر بضع سنين ــ كانت لها ثمراتها الملفتة للنظر.

وقد كنت عملياً أخاً وصديقاً لأولئك الطلاب. والشباب الذين اشتركوا بفعالية وشوق في تلك الدروس يعدون الآن من العناصر الملتزمة الفعالة.

وأنا وإن كنت كشرطي المرور وقفت على مفترق الطريق في مكان واحد لا أتحرك، إلاّ أن المارة من الأشخاص والناقلات الذين أشير لهم بالطريق قد وصل كل الى هدفه. وأنا لله شاكر.

وبعد انتصار الثورة الاسلامية المباركة انتقلت هذه الدروس الى الراديو والتلفزيون.

ورغم ان ما تقرأه في هذه الحلقات يتضمن ما عرضته للشبان والفتية من أبحاث

طول سني تدريسي، إلاّ أنني الآن أقدم للقراء هذه الدروس مع شيء من التغيير في هذه الحلقة والحلقات القادمة. وتجدر الاشارة هنا الى:

أ‌- ان مجموع مايعرض خلال الصف الدراسي بالطريقة السمعية والبصرية وبالأسلوب الفني غير قابل لعرضه بكامله من خلال الكتابة. لماذا؟

لنأخذ على سبيل المثال. النحت فهو فن، ولكن حينما تريد أن تجسده على الورق لاتستطيع سوى كتابة هذه الكلمة، وبكتابة هذه الكلمة لاتستطيع أن تعكس حقيقة النحت للآخرين.

كذلك التعليم وأسلوب التدريس وطريقة التعامل فهو فن لا بدَّ لكل معلم من استيعابه عن طريق العمل الى جنب اهل هذا الفن ذوي التجربة لتلقّي هذا الفن من خلال التجربة والمعاناة حيث لا يمكن تلقّيه من خلال القراءة فحسب.

ب‌- أساس الاستدلال في هذه الدروس عبارة عن طريق العقل والفطرة والوجدان الواضح. ونستعين بالوحي وآيات القرآن الكريم وروايات القدوة من اهل البيت عليهم السلام.

وقد تجنبت قدر المستطاع الاصطلاحات المعقدة وأساليب الاستدلال التفصيلية.

ج‌- في الأعم الأغلب كان مخاطبي في هذه الدروس الفتيان والشباب في سن الثانية عشرة.

(ضرب الأمثال) واستخدام أسلوب التمثيل في ايضاح الأفكار النظرية له فوائد متعددة من جملتها:

١- تتحول الأفكار العقلية الجافة الى أفكار حسية ملموسة.

٢- تقريب الطريق لفهم الأفكار.

٣- عن طريق عرض الأمثلة والنماذج يحصل للقلب استقراره ويكون الاطمئنان أشد وأكبر.

٤- عن طريق الالتفات للمثال يقترب الأفراد ذوي اللجاجة من قبول الحق.

وعلى هذا الأساس فقد استخدمت الأمثلة الواضحة في هذه الدروس لتعليم الأفكار.

وإذا لاحظنا أسلوب التربية القرآنية بدقة نجده نفسه يستفيد من أسلوب التمثيل وعرض النماذج.

وفي سائر العلوم يستفاد من طريقة المثال أيضاً.

* * *

واستطيع تلخيص الأفكار والأهداف التي توخيتها في هذا التمهيد بالنقاط التالية:

١ــ اتخاذ القرار في التخطيط لمسائل الفكر وأصول العقيدة لابدَّ وأن يحصل بعد انهاء المقدمات العلمية اللازمة. اويكون تحت اشراف العناصر البصيرة في هذا المجال لتجنب سوء الفهم والانحراف الفكري.

٢ــ بعد التوجه لغاية العمل (رضاءالله وخدمة رسالته) لابدَّ من أخذ موضوعين بنظر الاعتبار للطرح والبرمجة:

أــ حاجة الأمة.

بــ الاستعداد النفسي والذوق الشخصي.

٣ــ المبادرة من العارف للطريق دون توقف منتظراً حركة الآخرين.

٤ــ العمل والمبادرة من العارف للطريق دون توقف منتظراً دعوة الناس له (للعمل).

٥ــ يلزم كل خطيب ومدرس ملتزم أن يستعد و يربي نفسه للتخصص في حقل او عدة حقول كسائر الأساتذة والمدرسين.

(مثلاً جماعة يتخصصون في التاريخ الاسلامي، وعدة في الفلسفة الاسلامية وجماعة في أصول العقيدة، وعدة في التفسير، وجماعة يتخصصون في تعليم الأطفال والفتيان).

وأجد من الضروري أن أعيد الى الذاكرة ضرورة التخطيط الخاص والطرح المتميز للتعليم في مساجدنا.

فمثلاً لنخصص مسجداً لبرنامج اسلامي تعليمي للفتيات ومسجداً آخر للعمال، ومسجداً آخر أو ساعة أخرى للفتيان ومسجداً آخر أو ساعة أخرى لربات البيوت... الخ. كل ذلك لأجل أن يكون المشتركون متجانسين من حيث السن والعمل، ومستوى التحصيل.

إذ مع اختلاف المشتركين فسوف لايستطيع المدرس والخطيب أن يجد أرضية مثمرة لعمله.

فنحن إذ نكون مع الثورة الثقافية ونطالب بتغيير برامج الجامعات وتحويلها الى برامج اسلامية لابدَّ أن نغير أيضاً برامج المساجد التي هي خنادق الاسلام والكليات

المفتوحة لتعليم المسلمين عموماً.

فمضافاً الى صلاة الجماعة والبرامج والشعائر العامة في المساجد لابد أن نمتلك فيها مجموعة برامج تعليمية خاصة لمختلف الطبقات.

وكما كان مقتدانا الامام الصادق عليه السلام، مضافاً الى قيامه بالتدريس، والتربية العامة كان (عليه السلام) يخصص لكل جماعة ذات ذوق معين واستعداد أكبر ــ من تلامذته ــ بعض الأبحاث العلمية.

على أمل ذلك اليوم الذي يُعيّن فيه لكل طبقة من طبقات الامة في مساجدنا وقت خاص وبرنامج متميّز لانقاذ المستمع والمتحدث من ظلمات الطرق المسدودة، وفي جو الاتحاد والصفاء والاخلاص والتعاون. لِمَ يكون لدينا طبيب للأطفال؟

ولِمَ يكون لدينا معلم للأطفال، ولايكون لدينا مختص اسلامي لتعليم الأطفال؟! علماً بأن تدريس وتعليم الاسلام للأطفال والفتيان أكثر تعقيداً من تعليم الكبار، كما ان انتاج واصلاح الساعة الصغيرة أدق وأصعب من اصلاح الساعة الكبيرة. لابدَّ لنا من قبول أمر واقعي وهو «ان بحثاً على مستوى واحد لجميع طبقات الأمة على مختلف أعمارهم واستعداداتهم امر غير مقبول، ولحد الآن اثبتت تجربتنا قلة ثمار هذا اللون من البحث.»

حينما يكتب الشهيد مطهري كتاباً قصصياً، وحينما يصمم مفكر كبير السن مثل الاستاذ عبد الفتاح عبد المقصود ليكتب كتاباً للفتيان بعد جملة كتاباته التحليلية، وحينما يأمر النبي (ص) رسوله أن يذهب صوب الفتيان في محل تبليغه.

كل هذا يحتم علينا أن نُقدّر القيمة العليا لهذا العمل، ونشير الى أن كتابات ومقالات ومجلات بلغةٍ سهلةٍ، وعلى مستوى الأطفال والفتيان قد انجزت، ويلزمنا أن ندعو الله لمؤلفيها بالجزاء الخير. غير أن كل ما أنجز غير كافٍ.

بل لابدَّ من تعميم هذا العمل واتخاذه طابعاً رسمياً.

* * *

بين يديك قارئي الكريم القسم الأول من دروس «أصول العقيدة» للفتيان، وسوف تتبع هذه الحلقة التي تلاحظ حلقات أخرى بعد ترتيبها وتنظيمها وتقديمها للمهتمّين في هذا المجال، سائلاً المولى تعالى الخلوص والتوفيق في العمل.

من الممكن أن تكون أبحاث هذه الحلقات ــ بما فيها من أمثلة ــ مفيدة ومساعدة

لأولئك العاملين في مجال تدريس العقيدة.

وأخيراً أقدم شكري للأخوة الذين ساهموا في تصحيح هذا الكتاب، كما أقدم شكري الآن لأولئك الذين سوف ينتقدون و يقوّمون.

سائلاً المولى المتعالي أن يتقبل ثواب عملي هذا هدية لشهداء الثورة الاسلامية في ايران أولئك الأفذاذ الذين حرروا أقلامنا وألسنتنا وأذهاننا.

ليس في هذه الحلقات أي حق للتأليف عسى أن تقع بثمن متواضع في أيدي الجميع ـ والسلام.

محسن قرائتي

الحلقة



التوحيد




مفهوم «النظرة الى العالم»

كلنا قد سمع بمصطلح «النظرة الى العالم»، والنظرة الى العالم تعني التفسير الشامل للوجود.

البعض حينما يلاحظ عالم الوجود يذهب الى:

ان هذا العالم موجود ذو هدف، تقف خلفه قدرة ذات عقل وشعور، وقد جاء هذا العالم على أساس طرح ونظام دقيق، ومثل هذا المذهب يقال له «النظرة الإلٰهية للعالم».

والبعض يذهب الى:

ان عالم الوجود لم يسبق بتخطيط، وليس هناك مخطط ذو شعور، وليس هناك هدف، ولا حساب. طراز التفكير ووجهة النظر هذه تدعى بـ«النظرة المادية للعالم».

إذن النظرة للعالم هي: هذا التفسير والتصور الذي يملكه الانسان عن عالم الوجود والانسان.

نتيجة البحث في النظرة للعالم:

غير قابل للشك والترديد ما للنظرتين السابقتين من أثر ونتيجة، لوضوح انه إذا كان لهذا البيت الكبير «عالم الوجود» مالك وحساب وهدف، إذن فلابدَّ أن أكون أنا كأحد أجزاء هذا الوجود منسجماً مع ارادة ورضى صاحب هذا الوجود، ومتطابقاً مع تعاليمه التي بعثها للانسان عن طريق الوحي والانبياء.

أما إذا كان تمام هذا الوجود بلاهدف، و بلامخطط، و بلاحساب فسوف لايكون لدي دليل مقنع يدفعني للانتظام ضمن مجموعة أحكام وقيود والتزامات.

يكثر هذه الأيام اطلاق كلمة الانسان الملتزم والمسؤول، وحينما نأخذ بنظر الاعتبار كوننا مسؤولين، فهذا يعني اننا سوف نقف أمام التساؤل، وان هناك هدفاً وحساباً في هذا الوجود. وعلى هذا الأساس فنحن يمكننا أن نكون بشراً مسؤولين في ضوء الرؤ ية الكونية الإلٰهية فقط.

أما من زاو ية نظر فرد مادي يرى ان تمام الوجود جاء بلاتخطيط مسبق، وأصبح في صورته هذه بمرور الأيام، وان كل الانسانية تمضي نحو الفناء بمجرد موتها، وان الهدف في هذه الحياة ينحصر في اللذة والرفاه، والمصير الى عدم. بهذا اللون من التفكير يمكن أن تطرح على نفسك هذا الاستفهام:

لماذا لا أنتحر؟

حيث انني بعد سنين العذاب سوف انتهي الى العدم فلِمَ لاأنقذ نفسي سريعاً؟

نعم الحياة لها معنى تحت لواء النظرة الكونية الإلٰهية فحسب.

النظرة الى العالم والدور الذي تلعبه في حياة الانسان

الشخص الذي يطرق الباب عليك منتصف الليل لا تفتح الباب له أبداً مالم تتضح لديك هويته، ومالم ينكشف لك مَن هو؟ والمدينة التي تنوي السفر إليها لا تستطيع أن تحمل معك في سفرك اللباس المناسب لها مالم تكن على معرفة بدرجة حرارة هوائها.

ومالم تعرف طبيعة المجلس الذي تدعى له، ــ هل هو مجلس عزاء أم هو حفلة زواج؟ ــ لا تستطيع أن تتخذ القرار بشأن الملابس المناسبة التي سوف تلبسها. إذن لابدَّ من وضوح الرؤية وتبلور المعرفة لنستطيع أن نشخص وظائفنا.

وعلى هذا الأساس فالعقيدة وطراز التفكير والمعرفة و بعبارة أخرى «النظرة للعالم» لها أثرها على جميع تصرفاتنا واختياراتنا العملية.

كيف نحدد نظرتنا للعالم؟

قلنا ان هناك نظريتين في مجال عالم الوجود والانسان:

١ــ النظرية الإلهية: وهي الاتجاه الذي يوافق على أن عالم الوجود له مالك، وقد جاء على أساس حساب وتخطيط ومخطط، وانه يمضي الى هدف.

٢ــ النظرية المادية: وهي النظرية التي تعتقد ان العالم لامالك له ولم يقم على أساس تخطيط وهدف، وهو يسير نحو الفناء.

وبملاحظة ما قلناه في آثار، ودور النظرة للعالم يتعين علينا أن نختار

إحدى وجهتي النظر أعلاه.

و بالطبع لابدَّ أن نختار أفضلهما.. ولكن أيتهما هي الأفضل؟

إن النظرية الأفضل تمتاز بخصائص عدة:

١ـ ان تكون النظرة للعالم قائمة على أساس البرهان والاستدلال العقلي.

٢ـ ان ينسجم التفسير والنظرية مع فطرتنا وجبلتنا الطبيعية.

٣ـ قيمة النظرة للعالم تتحدد على أساس انها تدفع الانسان نحو النشاط والفعالية وتزرع في نفسه الأمل والمسؤولية.

في ضوء هذه الخصائص لنجلس الى طاولة البحث والتحليل.

التوحيد: الأصل الأول في النظرة الإلهية للعالم

عقلنا يقول لنا: ان كل أثر له مؤثر. وهذا الحكم واضح بدرجة كبيرة بحيث انك لو همست همسة خفيفة في أذن الوليد الجديد فسوف يفتح عينيه، و يلاحظ الجهات المختلفة... يبحث في حركته هذه عن المؤثر وهو يفهم ان هذه الهمسة أتت من منشأ ما.

نعم ـ قضية الانتقال من الأثر الى المؤثر، من أوضح قضايا حياتنا اليومية.

ففي جميع المحاكم يُنتهى الى النتيجة بواسطة الآثار والقرائن.

وكيف يمكن أن تفترض مثلاً ان تصوير طاووس أو ديك بحاجة الى مصور أو رسام، إلاّ أن نفس هذا الديك أو الطاووس تمت خلقته بلاخالق و بلاخلق؟! و بأي طريق نقنع العقل بأن جهازاً آلياً التصوير يلتقط الصور المتحركة اخترعه وصنعه مخترع وصانع، بينما عين الانسان الحية المتحركة العاقلة ليس لها صانع؟! في حين ان التقاط الصور عن

طريق العين أكثر أهمية بمراتب من التقاطها عن طريق جهاز التصوير، لأن جهاز التصوير بحاجة بين حين وآخر الى تبديل الفلم الذي تنطبع عليه الصور، بينما تلتقط عيوننا الصور بشكل دائم ومستمر.

وجهاز التصوير عادة اما أن يكون منتجاً للصور الملونة، أو منتجاً للصور الاعتيادية بلاألوان.

في حين تلتقط عيوننا شتى الصور الملونة وغيرها، عن قرب وعن بعد، في الظل وفي الشمس.

وكيف يقبل العقل ان التنظيم في حياة فرد دليل على تمتع هذا الفرد بشعور وعقل، بينما النظام في عالم الوجود ليس دليلاً على وجود عقل ينظم هذا العالم؟!

وكيف تضع العناصر المادية الصماء لنفسها قوانين بالطريقة التي يفني العالِم المختص في اكتشافها عشرات السنين من عمره؟!

الخلاصة، إذا كانت خصيصة أفضل نظرة للعالم هي قيام هذه النظرية على أساس العقل فعقلنا في أول علاقة له مع النظام والتخطيط في عالم الوجود يذعن للقدرة العاقلة التي يحكي عنها النظام والتخطيط. ونفس هذا العقل يجيب ــ باذن الله ــ على مجموعة الإشكالات والوساوس التي تراود الانسان.

التمعُّن في عالم الوجود بما له من نظام دقيق يسوقنا باتجاه الرؤية الإلهية. هذه أول خصيصة لحقانية النظرة للعالم.

الخصيصة الثانية لحقانية النظرة الإلهية للعالم هي الانسجام مع الفطرة. وهنا لابدَ من ايضاح مفهوم الفطرة للاخوة لنكون على وعي أكبر بمفهوم فطرية المعرفة الإلهية.

تفسير الفطرة

الفطرة على وزن الخلقة وتأتي بمعناها؛ فكل احساس انساني لايحتاج ظهوره في حياة الانسان الى استاذ ومربٍ وتعليم، وكان هذا الاحساس دائمياً وفي كل وقت، وثابتاً لدى كلّ الناس، وفي كل زمان ومكان، سُمِّيَ هذا الاحساس بالفطرة تارة و بالغزيرة تارةً أخرى. والغريزة تُطلق على الميول الموجودة لدى الحيوان والانسان. نعم فعلامة فطرية موضوع ما كونه عاماً.

وعلى سبيل المثال، علاقة الأم بإبنها علاقة فطرية، بمعنى ان هذه العلاقة مغروسة في الأم بلا تعليم وتربية، وهي عامة تجدها لدى جميع الأمهات. بمعنى انك لوذهبت الى كل مكان وفي كل زمان وفي أي نظام سوف تجد هذه العلاقة لدى الأمهات.

نعم، يمكن أن تكون هناك عوامل تؤدي الى ضعف أو شدة هذا الاحساس، ويمكن أيضاً أن تتغلب بعض الاحساسات الداخلية على غيرها.

افرض أن في الانسان شوقاً الى المال، وله ايضاً ميل الى سلامته الشخصية، وانه يحب ذاته.

ولكن هذه الرغبات والميول ليست على حد سواء عند كل الأفراد.

فالبعض يضحّي بالمال في سبيل النفس، والبعض الآخر يضحي بالنفس في سبيل المال.

وكما كان في الزمان الماضي و بسبب فهم الانسان لموقعه الاجتماعي النابع من اعتبارات اجتماعية معينة كان يعتقد ان انجاب

البنت منقصة يرفع الأب اليد عن علاقته بإبنته، و يقوم بنفسه بدفن ابنته وهي حية.

وعلى هذا الأساس ففطرية الاحساس لا تعني ان الانسان يتابع هذا الاحساس دائماً ويجسده في سلوكه، لوضوح ان بعض الاحساسات الفطرية قد تغطي الاحساسات الفطرية الأخرى.

ومن آثار الظاهرة الفطرية الاحساس بالفخر.

فالانسان الذي يمضي في سلوكه على صراط الفطرة يحس بالاطمئنان والاستقرار في نفسه.

الأم التي تحمل ابنها الى جنبها تحس بالفخر وتنتقد الأم التي لا تهتم بابنها.

نعم. هذا الفخر وهذا الانتقاد من آثار الفطرة. الآن، لنرَ هل ان معرفة الله فطرية أم لا؟ نسأل أيّ انسان في أي زمان ومكان وتحت أي نظام حكم يعيش: أيّ احساس لديك في عالم الوجود هذا؟

هل تحس بأنك موجود مستقل، أم تحس في نفسك التبعية والارتباط؟

ليس هناك شخص يقول: أحس بأنني موجود مستقل. الكل يحسون في أنفسهم بالارتباط.

غير ان هذا الاحساس الصادق يُشبع على نحوين:

١ــ الاحساس الصادق يشبع عن طريق الاشباع الصادق.

٢ــ الاحساس الصادق يشبع عن طريق الاشباع الكاذب.

نظير الطفل الذي يحس بالجوع، فهذا الاحساس الصادق يشبع حيناً عن طريق الارتضاع من ثدي الأم المملوء بالحليب وهذا الطريق للاشباع هو الاشباع الصادق. وحيناً آخر يُشبع هذا الاحساس عن طريق مص مُصَاصَة الأطفال الجافة الخالية من أي غذاء، وهذا الطريق

للاشباع هو الاشباع الكاذب (بالعربية الدارجة يسمون هذه المصاصة «لهّاية».. أي تلهي الطفل عن جوعه).

الاحساس بالارتباط حقيقة واقعية في الانسان، ولكن بأي شيء هو مرتبط ؟

١ــ بقدرة الله ؟

٢ــ بقدرة الطبيعة ؟

الطبيعة نفسها مرتبطة بمئات الشروط والقوانين التي تسيِّرها. إذن، لابدَّ أن نكون مرتبطين بقدرة هي نفسها غير مرتبطة وتابعة، كما نحن مرتبطون.

عمل الأنبياء

انصبَّ جهد الأنبياء على الحيلولة دون أن يشبع بنو الانسان احساساتهم اللطيفة بأسلوب كاذب. نظير عمل الأم والمربية التي تمنع الطفل عن تناول الأغذية الضارة، لأجل أن يسدَّ جوعه.

النظرة الى التاريخ توقفنا عند أولئك الذين لم ينضووا تحت قيادة وتوجيهات الأنبياء، و بأي شراك من الخرافة والشعوذة وقع هؤلاء لاشباع احساسهم بالارتباط.

هل ان الأمر بالعبادة يتناقض مع حرية الانسان؟

يُتَخيَّل أحياناً ان دعوة الأنبياء والأديان السماوية لعبادة الله تتناقض مع حرية الانسان، ولكن لابدَّ من الالتفات الى أن تصميم الانسان أُبدع بطريقة لاتتيسر معها الحياة دون الحب والعبادة والأمل.

فالاحساس بالعلاقة والعبودية اودعت في ذاته ولولم يوجّه هذا الاحساس عن طريق هداية الأنبياء لم ينجُ الانسان من الوقوع في شراك الوثنية وعبادة الأصنام والأجرام السماوية أو اتخاذ بعض البشر آلهةً.

على هذا الأساس فعبادة الله عبارة عن اشباع صادق لاحساس حقيقي يحول دون اشكال الاشباع الكاذب، و ينقذ مسيرة الحب والعبادة من الانحراف عن سبيلها.

نعود الى أصل الموضوع:

الايمان بالله والنظرة الإلهية للعالم لها جذورها الفطرية، بمعنى ان الاحساس بالارتباط بقدرة لا نهائية في هذا العالم مركوزة في جميع بني البشر رغم ان الانسان يمكن ان يخطأ في تشخيص هذه القدرة المطلقة و يتردد بين كونها القدرة الإلهية أو انها القدرة المادية.

على أية حال فالاحساس بالارتباط حقيقة موجودة. وعلى هذا الأساس فالاعتقاد بأن تمام عالم الوجود مرتبط بقدرة مطلقة ذات شعور هو النظرة الإلهية للعالم وهذه النظرة تنسجم مع فطرة الانسان الذي يحس هو نفسه بالارتباط. وهذه هي الخصيصة الثانية لحقانية النظرة الإلهية للعالم.

الخصيصة الثالثة من خصائص أفضل نظرية: عبارة عن كون الرؤية والنظرة للعالم تمد الانسان بالأمل والحب والمسؤولية.

طالب المدرسة إذا كان يعلم ان جهوده لا تذهب سدى، حتى ١٪ من درجاته الامتحانية مأخوذة بنظر الاعتبار، وان عذره الوجيه يلقى قبولاً لدى معلمه، هذا الطالب يندفع بشوق خاص للاستمرار في دراسته.

وفي ظل النظرة الإلهية للعالم يعتقد الانسان بأن عذره وتوبته تقبل في كل لحظة، وان ذرة من عمله الخيّر أو الشرير محسوبة عليه، وان الله هو

الذي يشتري عمله الخيِّر، وان ثمن عمله رضوان الله تعالى وجنة عرضها السموات والأرض. في ظل هذه النظرة حيث الامداد الغيبي من جهة، وحيث الرسالة الإلهية المنزهة عن الخطأ والسهو، يمكن أن تنبثق في قلب الانسان انوار مصابيح الأمل.

ما هي العقيدة والايمان الذي لا قيمة له؟

انتقد القرآن الكريم عدة أشكال من الايمان والعقائد منها:

١ــ العقيدة الموسمية والفصلية:

مثلاً. حينما يركب الانسان سفينته في البحر ويحس بخطر الأمواج التي تتلاعب بسفينته يتوجه الى الله و يصرخ (يا الله)، ولكن بعد نجاته من المشكلة وخلاص سفينته من الغرق ورسوها على الساحل يتوجه و يعتمد بعد ذلك على غير الله و يشرك به.

نقرأ في القرآن **«فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّيهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ»**[١].

٢ــ الايمان والعقيدة التقليدية.

أحياناً يؤمن الانسان ويحمل عقيدة ما تقليداً لآبائه وأجداده دون أي دليل أو برهان منطقي. كما حصل بالنسبة لايمان الوثنيين حينما أجابوا الأنبياء: بأننا أخذنا هذه العقيدة بالأصنام عن آبائنا.

والقرآن يتحدث في هذا المجال منتقداً.

«قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ»[٢].

(١) سورة العنكبوت، آية «٦٥».

(٢) سورة الشعراء، آية «٧٤».

٣ـ العقيدة والايمان السطحي.

أحياناً يكون الايمان والعقيدة سطحية بحيث تبقى على طرف اللسان دون أن تنفذ الى القلب والروح والنفس، والقرآن الكريم لايعتبر مثل هذه العقيدة ايماناً حقيقياً بل ينتقدها ولايقبلها و يقول: «قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا، قُل لَمْ تُؤْمِنُوا وَلكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدخُلِ الإِيْمَانُ فِي قُلُوبِكُم.»[١].

٤ـ الايمان والعقيدة بلا عمل.

حينما يكون الايمان بلا عمل، فرغم كون الشخص معتقداً وعالماً بوظائفه إلا أنه في مقام العمل يعرض عن أداء ما عليه، مثل هؤلاء الأفراد انتقدهم القرآن الكريم في آيات متعددة تشاهدها في هذا الكتاب المجيد.

أي نوع من الايمان له قيمة؟

ينحصر الايمان المُعتَبَر في القرآن الكريم بالايمان القائم على أساس التفكير واعمال العقل في مظاهر الابداع الكونية.

نقرأ في القرآن «وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلقِ السَّمَوٰاتِ وَٱلأَرضِ رَبَّنَا مٰا خَلَقتَ هَذٰا بٰاطِلاً.»[١].

آثار الايمان بالله

١ـ الاحساس بالحب والشوق...

الشخص الذي يعلم ان تمام فعاليته تحت الرقابة، وان أي عمل من

(١) سورة الحجرات، آية «١٤».

(٢) سورة آل عمران، آية «١٩١».

أعمـالـه لايـذهب سدى، وان الله يشتري جهده وعمله بقيمة هي الجنة والرضوان.

والـشخص الذي يعتقد ان مجرد حسن النية ولوبدون عمل ينزل عليه الرحمة والثواب في بعض الأحيان.

مثل هذا الشخص يحيا حياته بعشق وشوق.

٢ـ الابـتـعـاد عـن الـطـريق الملتوية والأساليب الخادعة... فالشخص الـذي يـعتقد بأنه في عالم مشهود من قبل الله، وان الله مراقب له، لايقدر على ممارسة أي نوع من الخديعة والاحتيال.

٣ـ العزة...

فالشخص الذي يقبل عبودية الله لا يخضع لأي قدرة ومركز آخر. بل يعتقد ان الآخرين عباد مثله ليست لهم ميزة عليه.

٤ـ لا يخسر أبداً.

حيث ان مقابل أعماله ثمنٌ ثابتٌ وخالدٌ سوف يقبضه، وعوضَ أي نوع من الاتكال على القوى الزائلة يتكل على الله حسب.

٥ـ يتمتع بطمأنينة خاصة...

هـنـا نـذهـب صـوب عـوامـل الـقلق والاضطراب لنرى كيف ينشر الايمان بالله الأمن والطمأنينة.

عوامل القلق

١ـ يـنـشـأ الـقـلـق والاضـطـراب أحياناً بسبب سوء السابقة والأعمال المـنـحـرفـة الـسابقة، ولكن ذِكرُ الله الرحيم الغفار يبدل هذا القلق بأمن وطمأنينة لأن الله قابل التوبة غفار الذنوب.

٢ـ ينشأ القلق والاضطراب أحياناً جراء الاحساس بالوحدة. لكن الايمان بالله الحاضر الناظر يبدّل هذا القلق بطمأنينة، إذ أن الله تعالى أنيس الوحدة ومؤنس فيها، يسمع كلامي، و يرى عملي، و يعطف عليَّ.

٣ـ ينشأ الاضطراب أحياناً بسبب الاحساس بالغثيان والعبث، لكن الايمان بالله الحكيم الذي اقام كل شيء على أساس حكمة، وأبدع كل شيء لهدف، وعلى أساس حساب وخطة خاصة، هذا الايمان يرفع هذا الاضطراب والقلق.

٤ـ ينشأ القلق والاضطراب أحياناً بسبب فشل الانسان في ارضاء الجميع، ولا يستقر لأن هذا الشخص أو تلك الجماعة قد تألمت منه.

إلاّ أن الايمان الذي يربينا على ارضاء الله وحده، وان العزة والذلة بيده فقط، هذا الايمان يقلع هذا القلق.

وعلى هذا الأساس فحينما نقرأ في القرآن «أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ»(١)، فهذا أمر واقعي.

آثار الالحاد

الشخص الذي لا يؤمن بالله الحكيم، ولايعتقد بمبدع الوجود انسان تتلخص خصائصه فيما يلي:

١ـ يرى نفسه انساناً بلاهدف، وحيداً، ليست له أصالة. و ينحصر هدفه من الحياة في الترفيه والمعيشة المادية بحد أهداف الحيوان.

٢ـ يذهب الى أن حركته حركة جبرية تخضع للجبر الاجتماعي أو

(١) سورة الرعد، آية «٢٨».

الطبقي.

٣ــ ما دام لايعتقد بحياة و بقاء بعد الموت، فهو يرى ان مستقبله العدم والفناء.

٤ــ المرشد والموجِّه له في حياته هواه الذاتي أو الطاغوت الخارجي.

٥ــ تملأ براجه أنواع الأخطاء والنواقص والشكوك ، ما دامت هذه البرامج لم تأت عن طريق الوحي والأنبياء.

٦ــ يتيه في تفسير الوجود، اذ لايعلم:

لماذا جاء الى هذا العالم؟

ولماذا يذهب منه؟

وأي هدف لحياته؟

ولايدري لماذا ولأي شيء يحيا، بل تمام همه وفكره ينصب على معرفة كيف يعيش؟

نعم هذه هي خصوصيات الفرد الذي يبتعد عن العقيدة الاسلامية و ينأى عن النظرة الإلٰهية للعالم.

وأنت حينما ترسم صورة المؤمن بالله وصورة الملحد به تستطيع أن تدرك دور الايمان وآثاره على حياة الانسان.

التفسير المادي للدين:

بعد أن عرفنا ان الأساس والباعث للايمان بالله عاملان:

١ــ العقل.

٢ــ الفطرة.

العقل يقول: ان كل ظاهرة لابدَّ لها من مُظهِر، و يقول أيضاً: انني في كل مكان أجد فيه تنظيماً وتخطيطاً انتقل الى المنظم والمخطط.

الفطرة تقول أيضاً: ان كل انسان يحس في داخله بالارتباط والتبعية لقدرة عليا في هذا الوجود.

إلاّ ان جماعة اغمضت النظر عن هذين العاملين، العقل، والفطرة وقدمت مبررات عليلة لظاهرة الايمان بالله. ونحن نستعرض هنا ــ وعلى نحو الاختصار ــ طرفاً من هذه المبررات ونحيل من أراد التفصيل الى كتاب أصول الفلسفة، الجزء الخامس، وغيره من الكتب العقائدية الأخرى.

فضيحة التصورات الماركسية

كل يوم يمضي من عمر النظرية الماركسية يتضح معه فشل أحد جوانبها، مثلاً: الانقلاب الاسلامي في ايران أوضح لكل الناس بطلان عدة جوانب من النظرية الماركسية.

الماركسية تقول «الدين افيون الشعوب» فالدين في نظر الماركسية يجر الناس الى التسليم والذلة والسكوت والركود والتخدير.

إلاّ ان لدينا في ايران الاسلام ٣٥ مليون شاهد يحكي على أن الدين يدفع الناس للاعتراض والحركة والعزة، لا الركود والتسليم. وهذا أحد الشواهد على فضيحة الماركسية.

الفشل الثاني:

الماركسية تقول: ان كل شخص يعاني من نقص أخلاقي فهذه المعاناة تنشأ بسبب الحاجة الاقتصادية، مثلاً: إذا كان هناك شخص يسرق، فإنما يسرق نتيجة ضغط الفقر والحرمان عليه.

لكننا في ايران ومع «٣٥» مليون شاهد رأينا ان الشاه الخائن كان

رئيس اللصوص، ولم يكن فقيراً وكان يسرق شأنه شأن اللصوص من الدرجة الأولى.

الفشل الثالث:

الماركسية تقول ان الباعث للثورة هو حركة المحرومين، وانفجار الجماهير الجائعة ضد الاستغلال الاقتصادي.

لكننا جميعاً شهدنا في الثورة الاسلامية ولاحظنا ان الثورة في ايران كانت لطلب الحرية والاستقلال واقامة حكم الله وقوانينه ولم تكن لأجل الخبز والعيش.

وإذا كانت الثورة انفجار المحرومين حقيقةً إذن لابدَّ أن تنطلق الثورة في ايران من اقليم كردستان وسيستان، إذ ان هذه الأقاليم أكثر حرماناً من سائر أقاليم ايران.

الثورة التي تنطلق من المدرسة الفيضية و بقيادة علماء الاسلام، وشعار الله أكبر وفي أيام الامام الحسين «ع» (عاشوراء والأربعين) ــ تبلغ هذه الثورة أوجَها، هذه المؤشرات دليل على أن المحرك لهذه الثورة هو الاسلام لا البطن، والباعث لها هو اقامة حكم الله لا انفجار المحرومين.

وحتماً فنحن لسنا منكرين دور الاقتصاد والحرمان. لكن المحرك الأصلي للثورة هل هو البطن والحرمان الاقتصادي أو الدين والعقيدة؟

نحن نعلم ان العديد من العناصر ساهمت في دفع الثورة بما تملك من امكانات مرفهة وان هذه العناصر كانت من الطبقات الغنية في المجتمع الايراني.

الفشل الرابع للنظرة المادية للعالم نجده في التبرير الذي قدَّمته الماركسية للايمان والعقيدة، وهو عبارة عن:

الرأسماليون ــ بواسطة العناصر الرجعية، و باسم الدين ــ يدفعون

الطبقة العاملة للتسليم والسكوت، يعني يقولون لمحرومي الشعب: اصبروا ان الله يحب الصبر، إذا كان حقكم قد سُلِبَ فتحملوا واصبروا.

أو يقولون للمحرومين: الدنيا ليست لها قيمة والأصل الآخرة.

أو يقولون: انصرفوا عن الثورة ولا تتحركوا وانتظروا الامام المهدي فهو الذي يصلح الأوضاع.

أو يقولون: عليكم بالتقية وأيَّ شيء ترون،اسكتوا ولا تقولوا أي شيء.

وأمثال هذه الكلمات والأفكار التي يلقيها الرأسماليون في ذهن العامل بواسطة العناصر الرجعية و باسم الدين ليعيقوا العمال عن الحركة والدفاع عن حقهم الثابت.

لاحظ قارئي الكريم الى أي حد تبتعد هذه الادعاءات عن المنطق والى أي حد من الفشل بلغت. ونحن ــ بحمد الله ــ في زمن رَشُدَ فيه فتياننا الى الحد الذي يجيبون فيه عن هذه الأوهام الماركسية. إذ أن الفتيان المسلمين مع لحظة تفكير يطرحون على الماركسين هذا الاستفهام:

إذا كان الرأسمالي يصنع الدين لتهدئة الطبقة المحرومة، إذن، لماذا نجد في الدين قوانين تحكم بمصادرة أموال الرأسمالي و تفرغ جيبه ؟

فالدين والاسلام يحكم بمصادرة الأموال التي جاءت عن طريق الاستغلال والظلم والرشوة والاحتكار والربا والغش و بيع الأراضي العامة بلاعمل، وكل أشكال الكسب اللامشروع، فهل ان الرأسمالي يصنع الدين لكي تصادر أمواله وتؤخذ منه ؟! هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فالدين يمتلك لكل الألفاظ التي أسيء استخدامها وحرفها الماركسيون معنىً سليماً أومحرِّكاً . فمثلاً الانتظار لايعني السكوت.

فانتظار الشمس لايعني اننا في الليل لانضيء مصباحاً ونبقى في الظلام. وانتظار الصيف لايعني اننا في فصل الشتاء نظل في بيوتنا بلا تدفئة.

نعم انتظار الامام لكي يصلح الفساد لايعنى السكون والسكوت والخضوع للظلم.

والصبر لايعني تحمل الظلم. بل يعني الاستقامة مقابل الظلم، والثبات والمقاومة في سبيل أخذ الحق. فالاسلام يقول: ان كل فرد يقتل في سبيل حفظ ماله وأخذ حقه فهو شهيد. وهذا يعني ان الاسلام يحثنا على المقاومة والثبات في سبيل أخذ الحق.

وقد جاء في مضمون الحديث المظلوم يذهب الى النار كما يذهب الظالم لأنه خضع للظلم.

والخلاصة لايعني الصبر والانتظار في الاسلام القناعة وسكوت المحرومين مقابل المستغلين. فالاسلام مضافاً لموقفه في مصادرة الأموال غير المشروعة من الرأسماليين، فهو يخاطب المحرومين:

١ـ التذلل والتواضع للرأسمالي ممنوع، وكل شخص تواضع لآخر لأجل ماله فسوف يذهب ثلث دينه.

٢ـ عن الامام الرضا (ع): ان كل من سلَّم على أصحاب المال بحرارة فسوف ينزل عليه غضب الله يوم القيامة.

٣ـ يحذر الاسلام الناس من اعطاء المقام والامتياز الاجتماعي لأجل المال والثروة.

٤ـ لاتجتمعوا على الموائد التي يجلس حولها المرفهون فقط.

٥ـ الأنبياء بشكل عام كانوا من طبقة العمال والرعاة، والامام علي (ع) ابو المستضعفين كان يجلس و ينام على تراب الأرض، والنبي سليمان (ع) مع ما كان له من سلطان وعظمة كان يعيش مع المساكين

والفقراء، والامام الرضا (ع) كان يجلس على مائدة واحدة مع خدامه.

ودعاء العاطل لايُستجاب، وقد لعن الامام المتكلين في معيشتهم على الآخرين... من هذه التعاليم نفهم ان الاسلام لايصنع الرأسمالية ولايحميها، وليس عاملاً للركود والسكوت.

هذه متابعة سريعة لتبريرٍ آخر من تبريرات الماركسية العليلة، وفشلها في تفسير ظاهرة الدين.

تفسير عليل آخر

جماعة أخرى من الماديين الذين لايستطيعون استيعاب النظرة الإلهية للعالم التي تنبع من العقل والفطرة. هذه الجماعة ــ التي تعد نفسها في ــ عداد العلماء ــ حاولت تقديم تبرير آخر للايمان الذي يضيء قلوب المؤمنين، وقالت:

ان اصل الايمان بالله هو الخوف، توضيح ذلك: ان الانسان كما له ملجأ في الصغر يُدعىٰ بـ«الوالدين»، كذلك حينما يكبر الانسان يحاول ان يتخذ له ملجأ يدعىٰ بـ«الله».

فالانسان البدائي يفترض له ملجأ وهميّاً، يأمن لديه في حالات الخوف والاضطراب النفسي الناشئة من الحوادث المخيفة والخطرة، من قبيل الزلزلة، والرعد، والبرق، والحيوان المفترس. على أساس هذا التفسير يكون أصل الايمان بالله هو الخوف.

الجواب:

١ـ إذا كان أساس الايمان بالله هو الخوف فلابدَّ أن يكون الشخص الأكثر خوفاً أكثر ايماناً.

إذا كان أصل الايمان بالله هو الخوف، إذن لابدّ أن يكون أول المؤمنين هم الأفراد الجبناء.

٢ـ إذا كان الأمر كذلك، وان الخوف هو منشأ الايمان، إذن لابدّ أن لايكون هناك توجه لله حينما نأمن ولانخاف.

في حين نجد ان التوجه لله يحصل لدى الانسان ولولم يكن خائفاً.

نعم نحن نتوجه الى الله حينما نخاف، ولكن هذا لايعني ان أصل الايمان نشأ من الخوف.

يتفق في كثير من الأحيان ان الانسان ليس لديه أي خوف ويحصل لديه توجه الى الله.

عقل الانسان يرى آثار الصنعة ودقة الخلق في هذا الكون فينتقل الى الله تعالى صانع هذه الآثار. و يلمس الانسان في ذات فطرته احساساً بالارتباط بقدرة كبرى في هذا العالم.

لحظة من تأمل الانسان....

أنا فعلاً موجود. وأنا لم أخلق نفسي، إذ لاأستطيع أن أقوم بأي تغيير في خلقتي، والآخرون مثلي لم يخلقوني. وخلقتنا جميعاً نحن بني البشر تقوم على أساس حساب وقوانين دقيقة نجدها في كل عضو من أعضائنا، وفي كل خلية من خلايا الجسم الهائلة.

إذن لابدّ من خالق قادر هو الذي صنعنا.

والانسان في تأمّله هذا واستنتاجه لم يكن لديه خوف أو قلق. بل الذي ينقله الى الله القادر إنما هو عقله وفطرته الحية.

في هذا الضوء يتضح التفسير القائل بأن أصل الايمان بالله ناشيء من الخوف، وان هذا التفسير لايتعدى كونه تبريراً عليلاً لاأكثر.

حقاً. ان هذه التبريرات لظاهرة الايمان تذكرنا بتفسير ذلك الشخص

لحرارة هواء مدينة «البصرة» في فصل الصيف هذا الشخص الذي كان يتخيل ان تفسيره قائم على أساس الدليل إذ يقول: أتعلم لماذا كان هواء البصرة حاراً؟

لأن لفظ البصرة فيه حرف «راء»، وفي كلمة شِمْر حرف «ر» موجود أيضاً، وحيث ان الشمر يوم وجوده في كربلاء كان الهواء حاراً إذن هواء البصرة حار أيضاً!!

هذا التفسير النفسي للايمان قيل انه صدر من أحد علماء النفس!

نعم.فهؤلاء العلماء لهم أخطاؤهم، ونحن لاينبغي لنا أن نجعل العلم وثناً ونتعبد بكل ماجاؤوا به من نظريات. إذ العالم المكتشف لمسألة علمية والنابغ فيها لايحتم علينا نبوغه في هذه المسألة ان نسلم بكل ماجاء به من نظريات، فحقائق العلم مثل الجبل كلما كان شاهقاً كانت انفاقه ومنافذه أكثر خطورة.

شخصية أخرى من هؤلاء العلماء اسمه «راسل» يقول هذا العالم: كنت أول الأمر معتقداً بالله، ثم فكرت بعد ذلكوتساءلت:

إذا كان الله هومبدع وخالق كل شيء، إذن من الذي خلق الله؟

وفي الاجابة على هذا السؤال لم يصل فكري الى نتيجة، فسحبت اليد عن الايمان بالله!

ونحن نسأل «راسل»: أيها الاستاذ أنت الآن قد سحبت يدك من الايمان بالله، فالى أي جهة ذهبت؟

يقول «راسل»: أنا الآن اعتقد بأن المادة هي منبع كل مافي عالم الوجود لا الله.

نقول: حسن، كما طرحت على نفسكالسؤال: من أين أتى الله؟ فاسأل نفسك: من أين جاءت المادة؟

يقول: المادة كانت منذ الأزل.
نقول: الله أيضاً كان منذ الأزل.
فلماذا يا حضرة «راسل» لم تقبل قديماً واحداً ذا عقل وشعور، وقد قبلت قدم ملايين العناصر المادية الصماء التي لا عقل لها ؟!!

مثال آخر للـجج المادية:

الماركسيون يقولون لنا: ان أي حقيقة لا تخضع للحس والتجربة غير قابلة للقبول، وعلى هذا الأساس فنحن لا نستطيع أن نؤمن بالله والوحي والملائكة ونظائرها من القضايا التي لا تقبل اللمس والتجربة، لأن الطريق الى المعرفة هو الحس والتجربة فقط.
جوابنا:
انكم أيُّها الماركسيون: كيف تقولون في تفسيركم للتاريخ ان البشرية قبل مئات القرون كانت تعيش بطريقة شيوعية حينما كانت تعيش حياة الصيد، ولم تكن هناك ملكية خاصة ولا نظام حكم، ثم انتقلت الى مرحلة أخرى سميتموها بـ«العبودية والقنانة»، وبعد زمن انتقلت البشرية الى حياة الاقطاع و... الخ؟
وسؤالنا هو: هل يمكن أن تكون متابعتكم لتاريخ القرون الماضية قائمة على الحس والتجربة فتحللوا وتقرروا ان البشرية كانت تعيش في تلك القرون بصورة اشتراكية ؟!
يقولون لنا: لا، ولكن حددنا هوية هذه المراحل من خلال الآثار التي وجدناها لتلك القرون.
نحن نقول أيضاً: كما تعرفتم على الأمم السابقة من خلال آثارها،

فنحن أيضاً نحصل على معرفة الله من خلال آثاره. إذ اننا إذا قبلنا قاعدة «الانتقال من الأثر الى المؤثر»، فلافرق حينئذٍ بين الانتقال من الآثار الى تاريخ السالفين و بين الانتقال من الآثار الى وجود الله.

تفسير آخر لظاهرة الايمان

البعض الآخر من الذين لايريدون أن يقبلوا الحقيقة، و يذعنوا بأن العقل والفطرة هي الدليل على معرفة الله قدم هؤلاء تفسيراً آخر لظاهرة الايمان، وقالوا:

ان أصل الايمان بالله هو الجهل، توضيح ذلك: هناك حوادث وظواهر تبرز في حياة الانسان ولايستطيع الانسان أن يقدم لهذه الحوادث والظواهر تفسيراً وتعليلاً، فأخذ الانسان بفرض إله لنفسه ينسب اليه الحوادث والظواهر كلما عجز عن تفسيرها وتعليلها و يقول: انها من صنع الله، ومن هذا الطريق طرحت مسألة تدعى «الله».

إلاّ أن ايام هذه الكلمات قد انتهت، ولم يكن لها مُتبني منذ يومها الأول للاسباب التالية:

١ـ إذا كان أساس الايمان بالله هو الجهل «الجهل بالعلل الطبيعية»، إذن لابدّ أن يكون الأكثر جهلاً هو الأكثر ايماناً!

٢ـ إذا كان الجهل أساس الايمان بالله فلابدّ وأن تحث الكتب السماوية الناس على الجهل!

٣ـ إذا كان أساس الايمان بالله هو الجهل فلابدّ أن يضعف ايمان الشخص كلما كثرت معلوماته، وكلما اكتشف الانسان تفسيراً وتعليلاً للظواهر الطبيعية ازداد بعده عن الايمان بالله.

في حين نجد علماء مكتشفين هم من أكثر الناس ايماناً مثل «غاليلو»، و«انيشتين»، و«ابن سينا».

حقاً، فهل ان اكتشاف قانون أو عدة قوانين طبيعية يجعلنا مستغنين عن مقنن هذه القوانين؟

افرض انك قد اكتشفت قانوناً تحت اسم «الجاذبية»، فهل ان اكتشافك لهذا القانون يجعلك في غنًى عن مقننه؟

لماذا لايعتقد قسم من الناس بالله أو الدين؟

الجواب:

١- حينما نقول ان الانسان يمكنه أن يعرف الله من خلال خلية من خلايا ورقة شجرة فانما يصح قولنا هذا بالنسبة الى الشخص الذي يريد أن يعرف.

أما إذا لم يكن الشخص في صدد المعرفة فلايعرف الله من خلال مطالعة الآثار أبداً.

ولنضرب عدة أمثلة تقرب هذا المعنى:-

أ- لاحظ بائع الكبد الذي يقطع يومياً عشرات الأكباد ليبيعها على زبائنه. هذا البائع قد لايعرف الأوعية الدموية التي يقطعها عشرات المرات يومياً، لأنه ليس في صدد معرفتها.

ب- لاحظ بائع المرايا الذي لم يمشط شعره وقد تركه بوضع غير مقبول. هذا البائع يرى نفسه في المرايا من الصبح حتى المساء ولكنه لا يصلح وضع شعره لأنه مشغول في بيع المرايا ومنصرف عن تنظيم نفسه.

ج- يمسك الانسان أحياناً المنديل لينظف الساعة، ولوسألت هذا

الانسان عن الوقت فسوف يكرر النظر الى الساعة لمعرفة الوقت، لأنه حتى لحظة سؤالك كان مشغولاً بتنظيف الساعة وغير متوجه لمعرفة الوقت.

د ـ بعض النجارين يختص في صنع السلم دائماً، ولكنه لايصبعد به الى السطح، وأحياناً يكون هناك معمار بناء، يشتري السلم ليصعد به الى السطح آلاف المرات.

نستنتج من الأمثلة أعلاه ان الانسان ما لم يكن في صدد المعرفة والاستنتاج فسوف لايعرف ولا يستنتج.

وقد يتفق أن هناك أفراد يشاهدون آثار الله و يطالعون فيها إلاّ أنهم لا يؤمنون لأنهم لم يستهدفوا من هذه المطالعة معرفة الله.

٢ـ أنت تعلم ان النعمة إذا كانت من أول العمر مصاحبة للانسان فسوف لا يكون لها جدة لدينا.

وآثار الله في الخلق نشاهدها ولكننا غير ذاكرين له ولانعرف قدره وعظمته لأننا من أول حياتنا مع آثاره ونعمه. مثال:

أنت لحد الآن لم تشكر الله على وجود الابهام من بين أصابع يدك إذ أنه كان معنا منذ الولادة، ولنفترض ان الابهام قد قطع أو شل لمدة قصيرة فسوف نجد أنفسنا عاجزين حتى عن غلق زر الثوب. (وتستطيع الآن وأنت تقرأ هذه السطور من تجربة هذه المسألة).

نعم دوام النعمة سبب الغفلة عن ذكر الله. وإحدى حِكَم المصاعب والمشكلات في هذه الحياة هو التنبيه والايقاظ.

القرآن يقول: «أَخَذنَا أَهلَهَا بِالبَأسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُم يَضَّرَّعُونَ».[١]

يكرر القرآن أوامره للناس بذكر آلاء الله وامداده، وفي الدعاء نشاهد

(١) سورة الأعراف، آية «٩٤».

حقلاً مهماً ملأه الأئمة (ع) بتلقين أنفسهم نِعَم الله واحدة واحدة.

إلهي ــ أنت الذي نقلتني من الصغر الى الكبر، ومن الجهل الى العلم، ومن القلة الى الكثرة، ومن الفقر الى الغنى، ومن المرض الى السلامة.

٣ـ ابتعد قسم من الناس عن الدين بسبب خرافات أُلصقت بالدين من قبل بعض المؤيدين الجاهلين أو الأعداء العالمين ــ مثال:

إذا أراد انسان عطشان كأس ماء فاعطيته وكانت في هذا الكأس ذبابة قد سقطت فسوف يقذف الماء على الأرض ولا يشربه.

فكما ان الانسان بمجرد وجود ذبابة في الماء ينصرف عن شربه كذلك يمكن أن ينصرف بعض الأشخاص عن الدين لوجود خرافات أضيفت إليه.

وعلى هذا الأساس فلاينبغي لنا أن نغفل عن آثار تصرفات البعض في ابعاد المسلمين عن دينهم.

٤ــ التأثّر الجبري بالمحيط:

أحد عوامل انحراف الانسان عن الدين والتعاليم الدينية مسألة التأثّر الجبري بالمحيط الاجتماعي.

فالانسان طبعاً ووجداناً يبغض السرقة، ويرى ان الخيانة عمل قبيح، ولكنه إذا وُضِعَ في جو ومحيط عناصره لصوص وخونة فسوف يتأثر بسلوك هؤلاء لامحالة.

٥ــ ينشأ عدم الاهتمام بالدين وتعاليمه أحياناً بسبب الهروب عن المسؤولية، إذ ان قبول الدين يساوي قبول مجموعة قيود وأحكام والبعض يتخيل التحرر ولأجل الحرية يُظهر عدم اعتنائه بالدين.

إلاّ أن هذا البعض يغفل عن أن التخلص من اطاعة الأوامر الإلهية

يستلزم قبول كل نوع من العبودية والأسر.

فالفرد الذي لايعبد الله سوف يكون عبداً للجميع والذي لايتبع أمره سوف يكون ضحية أوامر الآخرين.

«وَمَن يُشرِكْ بِاللّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيرُ»[١].

٦ــ العناد... فالحاد البعض وانحرافهم عن الدين الإلهي ينشأ من التعصب وحب الذات الأعمى والاصرار على الخطأ.

٧ــ الاعلام والدعوة غير الموفقة، وضعف الجانب التبشيري أو التبشير الباطل كل هذه الأسباب يمكن عدُّها أحدى العوامل في الانصراف عن الدين وتعاليمه.

ضرورة الدين

للانسان في حياته برنامج، لكن هذا البرنامج والسبيل لرشده وسعادته، من أي الطرق حصل عليه؟ وهنا أمامنا ثلاثة طرق:

١ـ ان ينتخب الانسان طريقه وفقاً لمزاجه وميله الشخصي.

٢ـ ان ينظم برنامج حياته وفق ارادة الناس.

٣ـ أن يخضع و يسلم لله و يأخذ طريقه من الله فقط.

الطريق الأول

الطريق الأول خطأ، لأن علم الانسان ومعرفته محدودة، والانسان نفسه شاهد على مئات الأخطاء والهفوات في أعماله الماضية، مضافاً الى

(١) سورة الحج، آية «٣١».

أن انفعالات الانسان تلعب دوراً في تناقض سلوكه واتجاهاته.

وفي هذا الوضع نسأل: هل من الصلاح أن يعتمد الانسان في اختيار الطريق المصيري الذي يقرر سعادته أو شقاءه الدائمين على أساس تصوراته الناقصة، و يتحرك طبقاً لمعلوماته المحدودة؟!

الطريق الثاني

لا تقل خطورة الطريق الثاني عن الأول، لأن للآخرين أمزجة مختلفة وكثيرة مضافاً الى أن نظرياتهم معرضة للسهو والخطأ والمحدودية كما تتعرض نظريتي لذلك. ولوأغمضنا النظر عن كل ذلك فليس هناك دليل مقنع يدعوني لصرف النظر عن توجهي ومزاجي وان أضع نفسي أسيراً لآخرين لايملكون معرفة كاملة بي ولايدركون سعادتي الأبدية وليس معلوماً انهم يحبون الخير لي...

الطريق الثالث

هذا هو الطريق الصحيح فحسب. لأنني كما أضع سيارتي بيد الميكانيك، وأضع جسمي تحت اختيار الطبيب لأنهم أعرف منا، فلابدّ أن أضع طريق حياتي بيد الله لأنه أعلم منا جميعاً وأرحم منا أيضاً.

الخطوات والطرح العام للدين

يمكن تلخيص الطرح العام للدين في عدة جمل، وكما يقول بعض الأصدقاء ان الدين قام بخطوات مع الانسان هي نفسها الخطوات التي

تمر بها السيارة.

فنحن نطوي عدة مراحل في صناعة السيارة وهي :

١ـ اكتشاف المعدن.

٢ـ استخراج المعدن المكتشف.

٣ـ صناعة قطع الغيار.

٤ـ تركيب القطع المصنوعة على هيئة سيارة.

٥ـ سائق ماهر يهدي حركة الآلة «السيارة».

خطوات ودور الدين في حياة الانسان هي نفس هذه الخطوات الخمس:ـ

١ـ كشف الانسان:

الانسان الذي نسى نفسه، طريقه، قائده هدفه، أضاع ذلك وهبط الى مستوى حيوان من الحيوانات.

وحيث ان هدفه الأساس هو الرفاه والحياة المادية يتحول الى ميتة لاأثر لكلمة الحق فيها. ينقلب الى حجر في القساوة وذئب في التمزيق.

هذا الانسان الذي فقد ذاته لابدّ أن يجد نفسه، وأن يتعرف على ذاته و يكتشفها.

أحدى خطوات الدين مع الانسان هي تعريف الانسان بنفسه و بيان قابلياته. فاذا لاحظنا القرآن الكريم نجد كيف يُعرِّفُ الاسلام الانسان بنفسه:

١ـ أيها الانسان أنت خليفة الله في الأرض «إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرضِ خَلِيفَةً»[١].

(١) سورة البقرة، آية «٣٠».

٢ـ تسخير كل ما في الأرض والسماء للانسان «أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرضِ.»[١].

٣ـ أنت حامل أمانة الله «إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَٱلأَرضِ وَالجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحمِلنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ»[٢].

٤ـ أنت أيُّها الانسان قد خُلقت من روح الله «فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُوحِي»[٣].

٥ـ الاسلام يحترم الانسان.

٦ـ للانسان فضيلة في الاسلام. «وَلَقَد كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُم فِي البَرِّ وَالبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُم عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفضِيلاً »[٤].

ثم يحذِّرُ الاسلام الانسان من تضييع نفسه ونسيانها و بالتالي الخسران و يعرض نماذج وأمثلة عليا يقتدي بها البشر ليكتشف الانسان عن هذا الطريق قدراته واستعداداته حتى ينتهي الى التساؤل:

إذا كنت موجوداً لأجل أن أشبع غرائزي الحيوانية وأتمتع بملاذ الحياة المادية، فلماذا إذن هذه الاستعدادات العقلية والقابليات الذهنية والآمال التي اودعت عندي ؟

الخطوة الثانية للدين استخراج هذا المعدن المكتشف، فبعد أن يكتشف الانسان نفسه يأتي دور الدين في اخراجه من عالم الجهل والخرافة الى عالم النور والهدى «يُخرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ»[٥].

الخطوة الثالثة: بناء الأفراد وصناعة الشخصية الاسلامية عن طريق

(١) سورة لقمان، آية «٢٠».

(٢) سورة الأحزاب، آية «٧٢».

(٣) سورة الحجر، آية «٢٩». وسورة ص، آية «٧٢».

(٤) سورة الاسراء، آية «٧٠».

(٥) سورة البقرة، آية «٢٥٧».

تنمية خصال الكمال في الفرد و برامج العبادة والارتباط بالله وتربية الرقابة الداخلية، فيبني الدين المجتمع قطعة قطعة. وهذه الخطوة في كسب الأفراد وتربيتهم مارسها النبي(ص) في مكة أيام المعارضة والاضطهاد فجاءت التعاليم الاسلامية تركّز على بناء الفرد ولم تكن لها غالباً جنبة اجتماعية.

الخطوة الرابعة: تركيب وربط القطع وايجاد الأمة من هذه المفردات التي قد تمّ بناؤها وصنعها، وتشكيل الدولة الالهية ضمن أحكام واضحة شاملة لتمام أبعاد حياة المجتمع.

وهذه الخطوة مارسها النبي بعد الهجرة في المدينة فبنى دولته التي أصبحت مأوى تلجأ اليه العناصر المؤمنة لتنظمّ الى تشكيلات المجتمع المسلم. ولأجل أن يتخذ المجتمع الاسلامي هو يته حُددت القيم الاجتماعية العامة وأهداف الدولة وشعارات الأمة وطموحاتها لتتميّز عن الأمم والمجتمعات الجاهلية.

الخطوة الأخيرة..

بعد تشكيل المجتمع الاسلامي يُسلّم الدين هذا المجتمع بيد قيادة لائقة معصومة، و يقدم تحذيراته من تبعية العدو والاستعداد لتحمل المسؤولية والحفاظ عليه واليقظة من قيادة العناصر والأفراد من الطواغيت والمفسدين والظالمين والمترفين والجهلة... ليضمن قيادة المجتمع بيد المعصومين وحقاً فقيادة غير اهل العصمة ظلم بمقام الانسانية.

أجل ــ قارئي الكريم ــ هذه مراجعة سريعة للخطوات العامة التي تقوم بها رسالة ودين من الأديان، وإذا أردنا تلخيص ما مضى نقول: الدين نظام شامل لحياة الفرد والمجتمع يعيِّن الرؤ ية والعمل والأسلوب وفق معايير الهية خاصة.

التوحيد... حقيقته، وأبعاده

التوحيد في الثقافة الاسلامية معنى جليل وذوأبعاد شاملة. قسَّمَ علماؤنا هذا المصطلح الى أقسام.. التوحيد في الذات، التوحيد في الصفات، التوحيد في العبادة، التوحيد في العمل.

بعض الأحزاب حاولت استخدام هذا اللفظ المقدس «التوحيد» كسائر المقدسات الأخرى التي جعلتها وسيلة لأهدافها، و باسم المجتمع التوحيدي والجيش التوحيدي... أرادوا أن يموّهوا على الناس و يثبتوا من هذه الأسماء النظام الاشتراكي. إلاّ أن هذا المصطلح المقدس تخلص من استخدام هذه الأحزاب المنحرفة بفضل النضال العملي الذي قاده الامام الخميني وعلماء الاسلام فاتضحت هو ية هذا الاصطلاح.

في هذا الدرس نتكلم حول التوحيد مع تجنب الاصطلاحات ليتعرف القارىء الكريم على درجة قر به من مدار هذا المفهوم.

التوحيد يعني.. الايمان بالله وحده لا شريك له في ملك هذا العالم وتدبيره.

التوحيد يعني.. رفض عبادة المزاج الشخصي، فالانسان الذي يتحرك بما يشتهي وطبق ميوله النفسية فهو في الحقيقة يعبد هواه..

«أفَرأيتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إلٰهَهُ هَوَاهُ»[١].

التوحيد يعني.. رفض الخضوع للطواغيت ومخالفتهم، وهذا شعار كل الأنبياء وهدفهم «أنِ ٱعْبُدُوا ٱللّهَ وَٱجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ»[٢].

(١) سورة الجاثية، آية «٢٣».

(٢) سورة النحل، آية «٣٦».

التوحيد يعني.. رفض نظام الظلم والطاغوت، فالامام الرضا (ع) بعد أن أجبِرَ على قبول ولاية العهد من قبل المأمون أعلن في مجلس عام أنه يقبل على شرط أن لا يكون له أي دخل في حكم المأمون.

التوحيد يعني.. الاعتقاد ببطلان كل الخطوط الشرقية والغربية والملفقة، ورد كل الأنظمة والأساليب التي يصنعها عقل الانسان القاصر.

التوحيد يعني.. قطع الروابط والعلاقات التي تؤدي الى تسلط الأجنبي على المسلمين.

التوحيد يعني.. ان لا تقول نعم لأي فرد لم تكن تعاليمه على خط الله.

التوحيد يعني.. التسليم الكامل للتعاليم الإلهية والاذعان لله بالعبودية.

التوحيد يعني... عدم الارتباط مع أي قدرة تحرف مسيرتنا عن جادة الحق. بل الذي يدفع هذه المسيرة للحركة هو الله والذي يدفعها للوقوف هو رضا الله.

والخلاصة.. التوحيد يعني هدم الأصنام النفسية والخارجية، صنم الاعتبار، والشهادة المدرسية، والمقام، وصنم الطبيعة المادية، والمال. بمعنى ان كل هذه: المقام، الاعتبار، المال.. لا أثر لها في تحريف حركتنا نحو الحق.

الاقتصاد التوحيدي يعني تطبيق أحكام الله في الانتاج والتوزيع والاستهلاك والادارة.

الجيش التوحيدي يعني رعاية أحكام الله في الحرب والتكتيك والغضب مع حفظ التخصص والرتبة والمقام العلمي. وان يكون هدف الجيش أعلاء كلمة الحق، وارجاع الظالم الى حكم الله، ونجاة

المستضعفين، وحفظ حدود الوطن، والدفاع عن مال وروح ونواميس الناس، لا أن يكون الهدف هو التسلط واستعمار الشعوب واستغلال الآخرين.

نعم ــ الجيش التوحيدي قائده نائب الامام(ع)، وهدفه الحق والجندي فيه يختار الشهادة و يعتقد أن عسكريته عبادة.

هذا هو المعنى السليم للجيش التوحيدي، لا ما قيل من أن معنى الجيش التوحيدي هو الغاء الرتب العسكرية، والتمرد على أوامر القادة فهذه مؤامرة باسم الجيش التوحيدي لتمزيق الجيش في ايران، ولكنها فشلت بفضل الله وقيادة الامام.

المجتمع التوحيدي يعني المجتمع الذي يتم انتخاب القائد فيه على أساس الموازين الإلهية التي هي (العلم، التقوى، الجهاد، الأمانة، الشجاعة، الادارة...)، لا على أساس (القوة، والعشيرة، والرشوة..) المجتمع التوحيدي يعني حكومة الرسالة الإلهية في المجتمع، وسيادة الصفاء وقلع جذور التفرقة والفساد، وتساوي الناس أمام القانون.

قارئي الكريم: من المظنون ان المعنى الذي أوضحناه للتوحيد معنى شامل وسليم.

والآن، أيٌّ منا وأيّ مجتمعٍ بلغ مرتبة التوحيد، وكيف نصل الى هذه القمة؟

نلاحظ ان النبي(ص) قال: «قُولُوا لا إلهَ إلاّ آللّهُ تُفلِحُوا». ولا ينبغي لنا أن ننظر الى هذه الكلمة نظرة سطحية لأن نتيجة التوحيد في جملة (تفلحوا) التي تعني الفلاح والفوز. القرآن الكريم يرىٰ ان الفلاح هو الهدف النهائي، وكيف يكون الفلاح هو الهدف النهائي؟

في القرآن نجد ان هدف كل العبادات هو التقوى «يا أَيُّها النَّاسُ

﴿ٱعْبُدُوا رَبَّكُم الَّذِي خَلَقَكُم وَالَّذِينَ مِن قَبلِكُم لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ﴾[١].

ولكن التقوى نفسها ليست المرحلة النهائية، بل التقوى مقدمة للفلاح والدليل على ذلك الآية «١٠٠» من سورة البقرة، حيث تقول ﴿فَاتَّقُوا ٱللَّهَ يا أُولي الألبَابِ لَعَلَّكُم تُفلِحُونَ﴾.

ارجو الالتفات بدقة الى العبارة التالية:

كل ما في الوجود خلق للانسان بدليل آيات القرآن(سَخَّرَ لكُم، وَخَلَقَ لَكُم)، ونحن خلقنا للعبادة والحركة في طريق الله، والعبادة لتحصيل التقوى، والتقوى مقدمة للفلاح. والفلاح معناه في القاموس: الظفر، والفوز. فالوجود لأجلنا ونحن للعبادة، والعبادة للتقوى والتقوى للفلاح.

من هنا نستطيع ادراك أهمية الفلاح، الخلاص من القيود والأسر والانتصار على العدو الداخلي والخارجي.

في الوقت الذي كنتُ القي الدرس على الطلاب رسمت على السبورة صورة بذرة وسط التراب، ثم أخذت هذه البذرة بالاخضرار والنمو..

هنا، قلتُ: ان هذه البذرة لكي تتخلص من جوف التراب، ولكي تنمو قامت بثلاثة أعمال:

١ـ تحكيم جذورها في عمق الأرض.

٢ـ امتصاص المواد الغذائية من الأرض.

٣ـ دفع العوائق، وشق طريقها بين ذرات التراب.

بعد ذلك قلتُ: كذلك الانسان إذا أراد الانطلاق فبهذه الأعمال الثلاثة ينطلق:

١ـ لابدَّ أن تكون لديه عقيدة أصيلة مبنية على البرهان والاستدلال.

٢ـ لابدَّ من جذب كامل الامكانات التي تساعد على رشده وتقدمه.

(١) سورة البقرة، آية «٢١».

٣ـ لابدّ من ازالة كل مانع يقف في طريقه ليصل بعد ذلك الى فضاء التوحيد.

أما إذا قصَّرَ الانسان في أحد هذه الأعمال الثلاثة فسوف يبقى في عالم الركود والخسران.

فاذا لم تكن عقائده سليمة ومبنية على أساس العلم، أو إذا لم يستفد من الامكانات، أو إذا لم يقاوم الموانع و يزحها فسوف يتعفن و يفسد كما تفسد البذرة وتتعفن في جوف الأرض إذا لم تمارس أحد أعمالها الثلاثة.

أسباب الانحراف عن التوحيد

هناك عدة عوامل يمكن أن تؤدي الى خروج الانسان عن مدار التوحيد والخط الالهي، منها:

١ـ الطاغوت والقوة: أحد عوامل الانحراف هو الخوف والقرآن ينقل كلام فرعون الذي يحكم فيه فرعون بسجن كل من اختار إلهاً غيره «لَئِنِ اتَّخَذتَ إلهاً غَيرِي لأجعَلَنَّكَ مِنَ المَسْجُونِينَ»[١]، وعلى اثر خوف الشعب من فرعون خضعوا لعبوديته.

٢ـ العشق والعلاقة: يكون العشق والعلاقة بشيء ما أحياناً سبباً لغفلة الانسان عن الله، و يتوجه لهذا المعشوق الذي له علاقة به ويجعله محور رحمته وغضبه. و ينقل القرآن لنا صورة لهذا العامل: اتخذ اليهود أحبارهم ورهبانهم أولياء وذابوا فيهم الى درجة أن اليهود بسبب عشقهم لهؤلاء الرهبان والأحبار المزورين يخضعون لهم مهما حرموا حلال الله أو أحلوا

(١) سورة الشعراء، آية «٢٩».

حرامه «اِتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِن دُونِ اللَّهِ»[١].

٣ـ الأمل الجزاف:

قد يكون الدافع للاتكال والتوجه لغير الله هو توقع المعونة والعزة والجاه من غير الله، والقرآن في هذا المجال يقول: «وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُم يُنصَرُونَ»[٢]»، ويقول أيضاً: «وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُم عِزّاً»[٣].

تنبيه

لأجل خروج الانسان عن خط التوحيد يستخدم البعض اعلاماً مغرياً، وشعارات ووعوداً براقة. إلاّ أن القرآن يصفها جميعاً بأنها لا تتعدى كونها شعارات براقة مزيفة ليس لها مضمون واقعي.

«إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسمَاءٌ سَمَّيتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤكم»[٤].

واليوم أيضاً تُطرحُ شعارات جميلة لغرض الانحراف عن خط الاسلام من قبيل: التحرر، الديمقراطية، العامل والفلاح، حقوق البشر، القانون الدولي، و...الخ.

وحقاً ان هذه الأسماء لا تتعدى كونها تخديراً للشعوب.

(١) سورة التوبة، آية «٣١».
(٢) سورة يس، آية «٧٤».
(٣) سورة مريم، آية «٨١».
(٤) سورة النجم، آية «٢٣».

أدلة التوحيد

١ ــ الانسجام

أفضل وأوضح دليل على التوحيد هو ما نجده من نظام وانسجام عجيب بين الموجودات:

الانسجام بين أجزاء بناية واحدة أفضل دليل على أن المعمار واحد، والانسجام بين مقالات كتاب، والانسجام بين سطور رسالة أحسن دليل على أن الكاتب واحد.

لو كان هناك ثلاثة رسّامين حاولوا جميعاً رسم صورة ديك، وأخذ أحدهم برسم رأس الديك على ورقة، والثاني برسم بدنه على ورقة أخرى، والثالث أخذ برسم أرجل الديك، ثم أخذنا هذه الأوراق الثلاث من الرسامين الثلاثة، وحاولنا أن نربطها بعضها بالبعض فسوف يستحيل أن نحصل على صورة منسجمة للديك.

نعم، الانسجام والتناسق والتوازن في الخلق أفضل وأوضح دليل

على وحدانية «الله».

الضعف والقوة.. الهجوم والدفاع... الخشونة واللطافة... هذه المتناقضات جُمعت بطريقة يحارُ فيها الانسان، وجاءت ضمن نظام منسجم.

كيف يُجْبَر ضعف الوليد بقوة وحماية الأبوين ؟!

كيف تحترق الصخور السماوية الهائلة بعيداً عن الأرض حينما تواجه الفضاء السميك، و يُدفع سقوطها المدمر عن الانسان ؟!

كيف يتناسب و ينسجم تنفس الانسان للأوكسجين، وزفيره لثاني اوكسيد الكربون، وتنفس النبات لثاني اوكسيد الكربون وزفيره للأوكسجين ؟!

كيف ينسجم التقاط العين للصور مع الضوء، فعدسة العين تضيق الى حد فتحة الأبره حينما تواجه الضوء الكثيف وتتسع حينما يقل الضوء.

كيف ينسجم السائل المالح في العين والسائل الحلو في الفم (اللُعاب) مع وظيفة العين والفم ؟!

كيف تنسجم خشونة الرجل مع لطافة المرأة، وكيف تتوازن حياتهم و يعدل بعضهم مزاج البعض الآخر؟!

اقرأ مظاهر الدفع والجذب القهرية والطبيعية التي اودعت في عالم الخلق والابداع، سوف ترى بأم عينك كيف تنسجم وتتناسب هذه المظاهر.

خالق الطفل وخالق حليب الثدي واحد لأنهما جاءا متناسبين تناسب الرضيع وحليب ثدي الأم.

الشمس ترسل أشعتها الى الاسفل، والمحيطات والبحار ترسل البخار الى الأعلى.

جاذبية الأرض تجرها الى الأسفل.

جذور الأشجار تسحب المواد الغذائية من الأرض الى أعلى الشجرة.

ألم يكن هذا التناسق دليلاً على حاكمية قدرة واحدة لانهائية ومدبرة؟

أعضاء كل حيوان تتناسب مع حاجته.

عمر العلاقة بين الأمهات والأبناء في كل الحيوانات تابعة ومتناسبة مع مقدار حاجة الإبن.

وتبقى نسبة علمنا الى جهلنا نسبة القطرة الى البحر، لأن ملايين أسرار الانسجام والدقة في هذا العالم لم نصل إليها ولم نكتشف ارتباطها بعد.

لقاء

في يوم من الأيام التقيت بشاب متعلم بعض الشيء، وكان معجباً ومغروراً بما تعلم، قال لي: لماذا كانت صلاة الصبح ركعتين؟

قلت: لا أعلم العلة، ولها علة حتماً. ولكن ليس من الحتم أيضاً أن نعرف علل كل الأحكام الإلهية، مضافاً الى أن بعض التعاليم جاءت لأجل التعبد والمقصود منها الطاعة والتسليم، فمثلاً القرآن يقول: ان حراس جهنم تسعة عشر، ثم يقول ان اختيارنا للعدد (١٩) كان الغرض منه فقط معرفة الشخص الذي يعترض و يقول ماذا أراد الله بهذا العدد، «عَلَيهَا تِسعَةَ عَشَـرَ»[١]، لِم لَم يكونوا أكثر مثلاً.

وفي محل آخر من القرآن نقرأ «وَمَا جَعَلْنَا القِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيهَا إلاّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلى عَقِبَيهِ»[٢].

(١) سورة المدثر، آية «٣٠».

(٢) سورة البقرة، آية «١٤٣».

ألم يأت في القرآن ان أمر ذبح اسماعيل الذي صدر لأبيه ابراهيم (ع) لأجل اختبار مقدار تضحية ابراهيم في سبيل الله؟ «قَد صَدَّقتَ الرُّءيا إنَّا كَذٰلِكَ نَجزي المُحسِنينَ»[١].

ثم بعد ذلك قلت للأخ الذي سألني كما ان هناك في عالم المادة مجموعة ترتيبات تنظيمية لابدَّ من مراعاتها بدقة للوصول الى المطلوب، كذلك في عالم القيم المعنوية يمكن أن تكون هناك مجموعة ترتيبات وتشكيلات يقتضي مراعاتها للوصول الى الرشد الروحي والسعادة الأبدية.

مثال:

إذا قيل لك ان هناك كنزاً على بعد (١٠٠) قدم، وإذا ذهبت (١١٠) قدماً فسوف لاتجد شيئاً مهما حفرت في الأرض.. فلابدَّ من مراعاة المقدار الذي عُيِّن لك للعثور على الكنز.

وفي جهاز التلفون رعاية هذه الدقة محسوسة، فاذا زاد أو قلَّ رقم واحد فلايحصل الارتباط بالمحل الذي تريده.

قارئي الكريم:

رغم انني أكثرت من الأمثلة ولكن أطلب منك أن تستمع الى هذا المثال: مفتاح باب البيت أو باب السيارة.. إذا انكسرت أحد أسنانه أو كانت أطول أو أقصر من المقدار المطلوب فلايُفتحُ الباب به. كل هذه الأمثلة التي ضربتها والكلام الذي قلته لذلك الشخص الذي سألني لم ينفع ورأيت ان غروره بشهادته المدرسية جعله غير راغب في قبول مسألة التعبد وأصر على عدم القبول. ونحن ليس لنا إلاّ التسليم مقابل الوحي لنستطيع أن نتكامل ولانتصور اننا بمعلوماتنا القاصرة وعقلنا المحدود

(١) سورة الصافات، آية «١٠٥».

نستطيع اكتشاف الأسرار التي تملأ هذا العالم.

الدليل الثاني من أدلة التوحيد

لفت أنظارنا الى هذا الدليل الامام علي (ع)، إذ يقول: «لَو كانَ لِرَبِّك شَرِيك لأَتَتْك رُسُلُهُ وَلَرَأَيتَ آثَارَ مُلكِهِ» فاذا كان هناك إله غير الله سبحانه، إذن فليرنا آثار قدرته، أو يرسل لنا رسولاً يعرِّفنا بنفسه.

نتقدم خطوة مع هذا الدليل ونقول:

إذا كان منبع القدرة والابداع في هذا الوجود متعدداً، وافترضنا ان الله أكثر من واحد... فهذه القدرات المتعددة اما أن تكون محدودة بمعنى ان قدرتها تسير نحو الضعف والزوال فهذا يساوي عدم كونها إلهاً، وإما أن تكون هذه القدرات لا متناهية وغير محدودة وحينئذٍ سوف لا تكون إلاّ قدرة واحدة، إذ اللامتناهي لا يتعدد. وهنا أنقل لكم مثالاً عن أحد العلماء:

إذا قلت لمعمار إبنِ لي بيتاً بحيث تكون مساحة أرض البيت لا نهاية لها، فهذا المعمار لا يمكن أن يبني لك إلا بيتاً واحداً، لأنه لم يبق مكان لبيت آخر..

الشرك

الشرك يعني: الاتكال على غير الله، واعطاء المخلوقات مقام الله، ووضع قدرة مقابل قدرة الله.

الشرك يعني: الطاعة العمياء لغير الله.

الشرك يعني: كل نوع من الصنمية والحزبية التي لا تقع في طريق الله.

في تفاصيل قصص القرآن هناك مسألتان ملحوظتان:

١ـ احياء روح الايمان بالقدرة الإلٰهية والتوجه لآلاء الله، وامداده الغيبي. دون الغفلة عن غضب الله وقهره.

٢ـ سحق كل أشكال الاتكال الوهمي، ووضع علامة (×) على كل المعايير الخاطئة، واستئصال جذور الشرك.

نقرأ في القرآن ان النبي نوحاً(ع) حذّر وأخطر ابنه المشرك، وقال له ان كل كفار هذا الزمان سوف يغرقون.

فقال له ابنه: انني سوف ألجأ الى الجبل ليحميني من طوفان ربك!

لاحظ، بأي منطق يتعامل ابن نوح ؟
فهو يجعل الجبل وقدرة الجبل مقابل غضب الله وقدرته، وهذا النموذج الروحي شرك .
ونحن الآن إذا تصرفنا مثل ابن نوح وجعلنا بمقابل الله فرداً أو شيئاً فنحن مشركون أيضاً.

نماذج مشركة

يقول أحدهم: نحن الآن لسنا بحاجة الى صلاة الاستسقاء، إذ نستطيع تأمين حاجتنا من الماء عن طريق حفر بئر متوسط العمق.
والآخر يقول: زماننا ليس بزمان غضب الله، وانزال القحط بالناس، إذ ان السفن والبواخر تسد الحاجة من الحنطة وغيرها من المواد الغذائية.
الثالث يقول: نسلم ان قوانين الشريعة وأحكامها لها حساب، ولكن نحن لانقدر على عصيان قوانين الدولة أو القوانين الدولية.
أو يقول: ان حكم الله كذا، ولكن رضا الناس أو زوجتي لابدَّ من الحساب له، فنحن مرةً نمشي على حكم الله، وأُخرىٰ نتَّبع هذا أو ذاك .
هذا النوع من التفكير والمنطق يتناقض مع التوحيد والعبودية الحقة.
أحد أعضاء مجلس حماية الدستور ينقل:
في حدود أكثر من عشرين سنة مضت كنت بصحبة قائد الثورة الاسلامية الامام الخميني في رحلة من قم الى طهران وفي أثناء السفر قلت له: حسنٌ جداً ان لا تعطي حكومة العراق للايرانيين اجازة سفر للعراق، أليس سفر الطلاب الايرانيين من قم الى النجف سبباً لفراغ

الحوزة العلمية في قم من الطلاب؟

تألم الامام بشدة من كلامي هذا، وأخذ يحدثني داخل السيارة حتى وصلنا طهران، وخلاصة ماتفضل به:

الانسان الذي ينشغل عن ذكر الله و يريد جهة ترتفع وأخرى تهبط، يفكر ان حوزة قم تزدهر وحوزة النجف تخلو أو بالعكس يبتعد هذا الانسان عن دائرة التوحيد.

لابدَّ أن يكون محورنا هو الله لاالعلاقات والروابط لاالأقليم والعنصر والعصبية المحلية والقبلية...

شعار الشرك

تكرر في القرآن الكريم استعمال كلمة (دون الله) أو (دونه) في حدود (٢٠٠) مرة حينما يتحدث القرآن عن الشرك، وهذه الكلمة تعني غير الله.

وإذا أردنا أن نجد للشرك شعاراً وعلامة صحيحة وقرآنية فالكلمة أعلاه مناسبة جداً.

نعم، الأفراد الذين يتجهون لغير الله، و يطلبون العزة من غير الله، و يطبقون أحكام وقانون غير الله و يرتبطون بغيره، ويخافون غيره، و يدفعهم الى العمل غير رضاه... هؤلاء جميعاً خارجون عن دائرة التوحيد.

تعداد المشركين

في ضوء المفاهيم التي عرضناها فالأفراد المخلصون قليلون، المخلصون

الـذيـن يـتـخـذون الله محوراً، ولاينتظرون جزاءً أو شكراً من غيره والذين لايراؤون، ويخضعون للقانون الإلهي و يرفضون غيره.

نعم هؤلاء قليلون.

والقرآن يقول «وَمَا يُؤْمِنُ أَكثَرُهُم بِاللّهِ إلاّ وَهُم مُشرِكُونَ»[١].

العقدة الناشئة من الشرك

احـدى المـسـائـل الأسـاسـيـة في عـلـم النفس مسألة العقد النفسية والحيلولة دونها.

وفي نـظري ان الانسان الذي يحيا في دائرة التوحيد و يفكر و يتحرك لله فلايبقى معنى ومجال في حياته للعقدة والإحباط والفشل حتى نصل الى مرحلة ردود الفعل والثورة النفسية.

تـوضـيـح ذلـك: ان الانسان الذي يتحرك ويخطو لله فالله هو مشتري عملـــه[٢] يسمع كلامه و يرى عملـــه[٣]، وليس لهذا الانسان عمل مع غيرالله ولاانتظار من الآخريـــن[٤]. ، فمِن أين تأتي العقدة؟

ضـمـن حـديـثـنـا نـطرح مسائل من قبيل ان عمل زيد احتلَّ موقعه أم لا، فـشـل في عـمله أو نجح. وفي علم النفس تطرح مسألة ان الاحباط والفشل في العمل يؤدي الى العقدة النفسية.

والـنـجـاح والـفـشل هذا يطرح خارج دائرة التوحيد، لأنه في حدود هـذه الـدائرة ليس هناك مجال للفشل. فبالنسبة الى النبي(ص) لم يختلف

(١) سورة يوسف، آية «١٠٦».

(٢) سورة فاطر، آية «٣١» (إنَّ اللهَ بِعِبادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ).

(٣) سورة التوبة، آية «١١١» (إنَّ اَللّهَ اشْتَرىٰ مِنَ المُؤْمِنِينَ أنْفُسَهُم وَأمْوالَهُم بِأنَّ لَهُم الجَنَّةَ).

(٤) سورة الانسان، آية «٩» (إنَّما نُطعِمُكُم لِوَجْهِ اللّهِ لانُرِيدُ مِنكُم جَزاءً وَلا شُكُوراً)، ومورد نزول هذه الآية الامام علي(ع) حينما قدم طعام افطاره ثلا ث ليال متوالية لمحرومي المجتمع الاسلامي.

حاله حينما كان راعياً وحينما أصبح زعيماً، وحينما كان شريداً لاجئاً من مكة الى المدينة ولما أصبح سيداًيحكم المدينة ومكة، وحينما يكون وحيداً وعندما يكون مع الجموع الغفيرة. في كل هذه الأحوال لم يطرأ تغير روحي على النبي. نعم حجم المسؤولية يكبر بعد الانتصار لااللذة. لكن نحن الذين نتغير بسبب تغير مكاتبنا وأعمالنا ومحل سكننا ومركزنا الاجتماعي، لأن هذه المتغيرات صارت أصيلة في حياتنا بل تحولت الى أوثان.

أيام حكم الطاغوت كانت المخابرات الشاهنشاهية تضغط على المبلغين والعلماء، وتطلب منهم أن يمدحوا الشاه على المنابر، وعن طريق الإغراء والتهديديجبرون بعض الأفراد على هذا العمل الخطير الذي جاء في الحديث (إِذَا مُدِحَ الفَاجِرُ اهْتَزَّ عَرشُ اللّهِ..) وإذا حصل ان وقع زيد من علماء الدين تحت ضغط الطاغوت، أفليس من الراجح أن يرفع ضغط الطاغوت بالهجرة من بلده، أو الجلوس في بيته، وحتى تبديل زيه لكي يتجنب الاقدام على جناية مدح الطاغوت ؟

ولكن حينما يتأصل الشغل ومحل العمل والمركز الاجتماعي في ذات الانسان، و يتحول الى وثن فسوف يقع الانسان في أسره.

ربنا بحق المخلصين من عبادك خلّصنا من هذه القيود والأغلال، ولا تبق في عروقنا أصلاً للتوجه لغيرك ...

آثار الشرك

للشرك بالله آثار سيئة نذكر قسماً منها في هذا المجال:

١ــ الأثر العملي

الشرك سبب لمحو الأعمال واعدامها و بتعبير القرآن ان الشرك (يحبط) كل الأعمال الحسنة. يرتكب الانسان أحياناً عملاً صغيراً لكنه يفسد تمام أعماله الحسنة.

لاحظ الأمثلة التالية:

المثال (أ): الطالب الذي يواظب على الدرس في تمام أيام السنة الدراسية، لكنه لايشترك ساعة الامتحان النهائي، دراسة هذاالطالب تظل بلاشهادة، مع أن عمله وتحصيله يبقى في صدره إلاّ أنه لايحصل على تقدير وشهادة لدراسته.

المثال (ب): الانسان الذي يواظب على مراعاة قواعد وأصول الوقاية من الأمراض في كل لحظات حياته، لكنه بعد مدة طويلة من هذه المراعاة يشرب جرعة من المواد السامة، ماذا يحصل له؟ كل ما قام به من جهد في مراعاة الوقاية يذهب سدى بسبب هذه الجرعة السامة...

المثال (ج): الطالب الذي يتعلم ــ مدة من الزمان ــ تحت رعاية استاذ وبجدية وأخلاق حسنة... بعد هذا العمر من الجهد والخدمة للاستاذ يقدم الطالب على قتل ابن الاستاذ حينئذٍ تُمحى كل أتعابه وخدماته الجيدة.

نعم الشرك بالله كشرب السم وقتل ابن الاستاد يمحو جهودوأتعاب عمر من الزمان، ولذا حينما نراجع القرآن نجده يقول «وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنهُمْ مَا كَانُوا يَعمَلُونَ»[١].

(١) سورة الأنعام، آية «٨٨».

٢ـ الأثر النفسي للشرك

ينبغي الاشارة الى أن أحد عوامل قلق الانسان هو عدم قدرته على أن يجعل الناس جميعاً ينظرون إليه نظرة الرضا، لأن تعداد الناس كثير، وكل واحد منهم لديه ميول وتوقعات كثيرة ومختلفة.

والفرد في وسط التوقعات والارادات المختلفة للناس يصطدم و يضطرب و يقلق، لأن رضا فرد أو جماعة لايحصل عادةً إلاّ بعدم رضا فرد وجماعة أخرى.

وهنا تأتي قضية الشرك والتوحيد وتطرح نفسها، فالانسان الموحد ينحصر اهتمامه في رضا الله ولايُجْهِدُ نفسه اطلاقاً للاستجابة الى ميول هذا الفرد وتلك الجماعة. مثل هذا الانسان يتمتع حتماً بطمأنينة خاصة، والقرآن في هذا المجال يضرب لنا مثالين:

المثال الأول: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيرٌ أَمِ ٱللَّهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ﴾[١]. أين الخير؟ هل هو في السعي لرضا اله واحد، أم انَّ الخير والاطمئنان في السعي لرضا عدة أفراد وبميول ورغبات مختلفة؟

المثال الثاني: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاء مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَل يَستَوِيَانِ مَثَلاً﴾[٢]. فهل ان الاطمئنان في التسليم لارادة شخص واحد أم ان الاطمئنان والاستقرار بقبول رعاية عدة أشخاص واتباع ميولهم ورغباتهم المختلفة المتعددة؟

مضافاً الى أن ارضاء الآخرين مسألة صعبة ومتعذرة فالله سبحانه

(١) سورة يوسف، آية «٣٩».

(٢) سورة الزمر، آية «٢٩».

سريع الرضا كما جاء في دعاء كميل «ياسريع الرضا» أضف إلى أن الآخرين لوافترضنا حصول رضاهم إلاّ أنهم لا يغضّون البصر عن نقاط ضعفنا، والله وحده يغضُّ الطرف عن عيوبنا كما جاء في الدعاء (يامَن أظهر الجميل وستر القبيح)

قارئي الكريم، لنتساءل: ما هي قيمة رضا الناس، إذا كان رضاهم خارج اطار التوحيد؟

فماذا يحسن لي الناس صنعاً بعد وفاتي؟

ليس لديهم ــ وفي أحسن الأحوال ــ غير اللطم على صدورهم، ثم يسمون شارعاً باسمي وما الى ذلكمن أساليب التشويق العابرة.

ألم أكن في رحم أمي، وليس هناك من راع وناظر غير الله؟

وأنا الآن، ألم أكن تحت نظره في كل لحظة؟

وغداً يوم الحشر أليست العلاقة معه فحسب؟

وألم تكن كل الكمالات والحسنات منه؟

وألم تكن قلوب الناس بيده؟

إذن ــ لماذا أترك هذا المنبع المعطاء، وأذهب طرف هذا وذاك؟!

وخلاصة القول: ان رضا الهٍ واحد سريع الرضا قادر على تغيير قلوب الناس باتجاهي، ومدبر أمري في الماضي والحاضر والمستقبل خير لي من رضا كل الناس المختلفين ميولاً، والذين ليس لهم أثر مهم على الماضي والمستقبل من حياتي. القرآن يقول (لَا تَجعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقعُدَ مَذمُوماً مَخذُولاً) [١] .ونحن أتلفنا عمراً من الزمان لكسب رضا هذا أو ذاك، وأخيراً فهمنا ان كل الناس يريدوننا لأنفسهم، والله فقط يريدنا

(١) سورة الاسراء، آية «٢٢».

لأنفسنا، فالناس بمجرد عثورهم على مركز أو صديق آخر يتركوننا ونبقى في دوامة من اللوم والشعور بالخسارة. وإذا جاء في القرآن (إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ) ١. فالغرض هو التوجه الى هذا المفهوم وهو: ان بعض الزوجات والأبناء يريدوننا لأنفسهم فقط وان كان الثمن اعدامنا وسوء مصيرنا.

٣- الأثر الاجتماعي للشرك

في المجتمع التوحيدي تمضي القوانين والجماعات والأمزجة الشخصية في مدار واحد، وهو خط الله وقانونه. وولي هذا المجتمع واحد وهو الله تعالى.

أما المجتمع المشرك فيحل محل القانون والطريق الواحد مئات القوانين والطرق، و يذهب كل فرد في دعم وتأييد الخط الذي جاء به، وكما يقول القرآن (لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ)٢. في المجتمع المشرك يدافع الأولياء عمّن ينتمون لهم لاعن الحقيقة. في هذا المجتمع لم تؤخذ عبودية الله في الحساب. بل تكون فداء هذا أو ذاك (إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا)٣. الصراع من أجل الغلبة حالة دائمة في حياة المجتمع المشرك . الأصالة للشعار الفردي وماينضوي تحته من أنصار فقط، والتقارب والمحبة على هذا المحور لاعلى أساس الحق والباطل، و بتعبير القرآن (كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) ٤.

(١) سورة التغابن، آية «١٤».
(٢) سورة المؤمنون، آية «٩١».
(٣) سورة الأحزاب، «٦٧».
(٤) سورة المؤمنون، آية «٥٣».

ان أغلب الصراعات والتمزق والتشتت والاعلام المزور في الحياة الاجتماعية ينشأ من الشرك ، القرآن يقول: ﴿لَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾[١] ونستفيد من هذه الآية معنى يحسن الالتفات إليه وهو: ان الشرك لايعني عبادة الأصنام فحسب. بل تحكيم المزاج الشخصي والنظريات الخاصة، وايجاد التفرقة داخل اطار الرسالة الإلٰهية شرك أيضاً.

٤ـ الأثر الأُخروي للشرك

نتيجة الشرك يوم القيامة جهنم والعذاب والخسران، نقرأ في القرآن مكرراً خطابه للمشركين: (مامعناه).

لقد اتجهتم في الحياة الدنيا لغير الله وتخيلتم ان هؤلاء يمكنهم أن يقدموا علاجاً لآلامكم. واليوم يوم حسابكم فادعوا أولئك عسى أن يجدوا لكم سبيلاً تتخلصون به من العذاب. وفي سورة الاسراء نقرأ الآية «٣٩» ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلٰهاً آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً﴾.

نموذج التوحيد

أسلوب القرآن في التربية يعتمد على الأمر والنهي وتقديم الاطار و يطرح برنامج العمل. مضافاً الى ذلك يقدم القرآن نماذج وأمثلة عملية، والأسلوب هذا يمكن أن يكون نفسه موضوع بحث رائع تحت عنوان (النماذج العملية في القرآن).

(١) سورة الروم، آية «٣٢».

فعلى سبيل المثال، نموذج المؤمن في القرآن امرأة فرعون. هذه المرأة التي لم تضل طريقها في وسط عوامل الاغراء والانحراف فلم يكن لها أي أثر في ادارة البلاط الفرعوني بما له من أبهة وثروة واعتبار. وقد بلغت هذه المرأة من الرشد في ايمانها الى الحد الذي أخذت ترجو الله نجاتها وخلاصها من الفساد الفرعوني.[1]

وفي القرآن نقرأ (نموذج ومثال الكافر) وهو امرأة نوح، وكيف كان العناد والهوى والغرور مانعاً من هدايتها، وكيف بقيت هذه المرأة مصرَّة على خطها المنحرف رغم انها كانت تعيش في بيت الوحي، وتحت رعاية نبي من أنبياء الله (نوح) «ع».[2]

بطل التوحيد ونموذجه

يقول القرآن في شأن ابراهيم (ع): ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[3]. الآن نذهب صوب قصة وتاريخ ابراهيم الخليل (ع)، ونفهرس أعماله وحركته ليتضح كيف كان ابراهيم (ع) بطل التوحيد؟ وتتلخص النقاط التالية في هذه الآية ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰ إِبْرَٰهِيمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾[4]. فقد خرج ابراهيم (ع) بنجاح تام من كل الاختبارات التي مرَّبها...

١ـ بعد (١٠٠) عام من الانتظار رزق الله ابراهيم ولداً عزيزاً عليه سمّاه اسماعيل وبعد ذلك تلقّى ابراهيم الأمر الإلٰهي بذبح هذا الصبي،

(١) سورة التحريم، آية «١١»، ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرعَونَ﴾.
(٢) سورة التحريم، آية «١٠»، ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ﴾.
(٣) سورة آل عمران، آية «٩٥».
(٤) سورة البقرة، آية «١٢٤».

وما كان من ابراهيم إلاّ التسليم لأمر الله بلا تردد. وقدّم الإمتثال والطاعة على الشهوة والغريزة، وهدم صنم الهوى وسحق ذاته في سبيل الله. فوضع اسماعيل على الأرض وجاء بسكين فوضعها على رقبته. وهنا جاء الأمر الإلهي ... أن يا إبراهيم قف. فالأمر بذبح اسماعيل كان امتحاناً واختباراً.

نعم، انتصر ابراهيم (ع) على وثن الذات.[1]

٢ـ في سحق طاغوت زمانه: سحق ابراهيم (ع) علياء وغرور «نمرود» باقامة الحجة عليه وجادله باستدلال وشجاعة.[2]

٣ـ في سحق وثن الطبيعة المادية: ازاء عبّاد القمر والشمس والنجوم رفع ابراهيم (ع) شعار اني ﴿لَا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾ منتقداً سلوك أولئك، موقظاً بهذا الشعار فطرتهم الخامدة.[3]

٤ـ قطع ابراهيم (ع) علاقاته مع أقربائه الأقربين لأجل الله وفي سبيله.[4]

٥ـ تجاوز ابراهيم (ع) زوجته، وطفله الرضيع في سبيل اعلاء كلمة الله وعزّة دينه.[5]

٦ـ ضحى بنفسه في سبيل العقيدة (يوم ألقي في النار).[6]

وقد جاءت النقاط أعلاه مفصلة في قصص القرآن الكريم، واكتفينا هنا بالاشارة الى مظانها في القرآن لكي لانخرج عن الفهرست العام الذي أردنا تحديده هنا.

(١) سورة الصافات، آية «١٠٥».
(٢) سورة البقرة، آية «٢٥٨».
(٣) سورة الأنعام، آية «٧٦».
(٤) سورة التوبة، آية «١١٤».
(٥) سورة ابراهيم، آية «٣٧».
(٦) سورة الأنبياء، آية «٦٩».

المرائي مشرك

نقرأ في الحديث الشريف (كل رياء شرك). نعم للشرك مراتب، فحينا يبرز واضحاً جلياً كما هو الحال في عبّاد الأوثان وعبّاد الشمس والقمر. وحيناً آخر يظل مختفياً الى حد ان المشرك نفسه لا يفهمه.

وفي الحديث الشريف نقرأ ان الشرك والخلوص وتمييزهما مسألة دقيقة الى حد ان تشخيصها يبقى مثل تشخيص حركة النمل على الصخور الصلبة في قلب الليل.

وعلى هذا الأساس فليس هناك طريق لاقتلاع جذور الشرك سوى الامداد الالهي الدائم، والمواظبة على رقابة السلوك، والسعي الجاد لتربية النفس وتهذيبها.

علامات الانسان المخلص

١ـ عدم توقع الجزاء وانتظار الشكر من الآخرين

يرى القرآن ان مثال الاخلاص يجسده الأفراد الذين يؤثرون على أنفسهم، و يقدمون طعام أفطارهم الضروري للمحرومين من الأيتام والأسرى، وفي ليال متوالية. ثم يقولون لهؤلاء المحرومين نحن لا ننتظر منكم هدية ولا نتوقع مدحاً أو شكراً.[١]

(١) اشارة الى عدة آيات متوالية في سورة الانسان.

وعلى هذا الأساس فاذا كانت لفرد ارادة مدح واجرة من الناس مقابل عمله الذي ينجزه، و يتأسف إذا لم ير مادحاً لعمله... فهذا الانسان لااخلاص لديه، وعليه أن يراجع نيته.

الحصانة من سيطرة الغرائز

العلامة الثانية للاخلاص هي ان لا تؤثر الغرائز والعواطف الشخصية على عملي. يُحتمل انكم جميعاً سمعتم ان أميرالمؤمنين عليّاً(ع) في غزوة الخندق حينما ضرب بعدوه الأرض وأراد أن يقتله، بصق عليه عدوه. هنا، انفعل الامام(ع) وتألم من هذه الاهانة فأجل قتل عدوه حتى يعود الى حالته الطبيعية، و بعد ان هدأ(ع) قتل عمرو بن ود العامري. وقال: كان انتظاري لأجل أن تكون طاعتي لله خالصة ولا يكون لغرائزي واحساساتي الشخصية أثر في أداء الطاعة وامتثال الأمر الالهي.

٣ـ الانسان المخلص لايندم ولا يفشل

لايفشل ولايندم لأن كل عمل يقوم به فهو لله وأجره وثوابه محفوظ مضمون. وكما قلنا سابقاً ليست لديه أي عقدة لأن أساس العقد النفسية هو انتظار وتوقع النجاح الذي لم يكن في حسبان الانسان المخلص الذي لايفشل أبداً لأن نجاحه في رضا الله وقبوله فيهنأ الانسان المخلص في رحاب الله ويحيا حياة ملؤها الطمأنينة والاستقرار.

كيف نتجنب أشكال الشرك والتبعية؟

يصر القرآن الكريم على معالجة ظاهرة (التأثر بالشرك).

حقاً إذا استطعنا الافلات من قيود واغلال الشيطان، وتغلبنا في صراعنا الداخلي على الهوى، وقضينا في جهادنا الخارجي على الجبابرة والطواغيت فلا تبقى لدينا أي مشكلة. كل مشكلاتنا وجميع عوائق الطريق هي خطوط الانحراف من الشرك والوسوسة والطواغيت.

وفي الحقيقة يتقدم الخلاص من الشرك على التوحيد بمرتبة، لأننا ما لم نطهِّر الأناء من الطعام الرديء لا نستطيع مَلأه بالغذاء الجيد.

ولذا نلاحظ في شعار التوحيد ان كلمة (لا إله) جاءت قبل (إلاّ الله).

والقرآن في هذا المجال يضع اليد على جذور و بواعث ظاهرة الشرك و يقول: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَولِيَاءَ كَمَثَلِ العَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيتاً وَإِنَّ أَوهَنَ البُيُوتِ لَبَيتُ العَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [1].

وفي مكان آخر يقول: ﴿قُلْ مَن رَبُّ السَّمٰواتِ وَالأرضِ قُلِ اللّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذتُم مِن دُونِهِ أَولِيَاءَ لَا يَملِكُونَ لأَنفُسِهِم نَفعاً وَلَا ضَرّاً قُلْ هَل يَستَوِي الأَعمىٰ وَالبَصِيرُ أَمْ هَل تَستَوِي الظُّلُمٰاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الخَلْقُ عَلَيهِم قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيءٍ وَهُوَ الوَاحِدُ القَهَّارُ﴾ [2].

ونقرأ في القرآن أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدعُونَ مِن دُونِ اللّهِ لَنْ يَخلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسلُبهُم الذُّبَابُ شَيئاً

(١) سورة العنكبوت، آية «٤١».

(٢) سورة الرعد، آية «١٦».

لايَسْتَنْقِذُوهُ مِنهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالمَطْلُوبُ)[١].(الَّذِينَ يَتَّخِذُون الكافرين أولِيَاءَ مِن دُونِ المُؤْمِنِينَ أَيبتَغُونَ عِندَهُم العِزَّةَ فَإنَّ العِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً)[٢].

و يبين القرآن أحياناً نماذج توضح كيف تُسلب قدرة أنصار قارون وفرعون ونمرود أمام غضب الله. وفي التاريخ المعاصر لدينا شاهد عيني لهذا الموضوع رأيناه بأمّ أعيننا وهو كيف سعت كل القوى العالمية لحفظ الشاه ومحو صوت الامام الخميني إلاّ أنها لم تستطع الوقوف أمام إرادة الله في نصر الامام واعلاء كلمة الحق.

خلاصة الكلام.. ان القرآن أوضح طرقاً للتخلص من الشرك وهي :

١ـ بيان ماهية القدرات التي يشركها الانسان مع الله (وان هذه القدرات الوهمية ليس لها أثر في نفع الانسان وضره ، ولادور لها في الخلق والابداع، لاتحفظ ولا تعز ولا... . إذن كيف يرجو الانسان هذه القدرات و يأمل فيها ؟!) ونموذج هذا الأسلوب قوله تعالى: «أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَيَخْلُقُ أَفَلاَتَذَكَّرُونَ»[٣].

٢ـ تقديم نماذج خارجية (توضح كيفية الفرق بين الأفراد الذين يتكلون على غير الله فلا يحصلون على نتيجة و بين ابراهيم الذي انجاه الله من النار و يوسف الذي أخرجه الله من ظلمات البئر و يونس الذي أنجاه الله من بطن الحوت، ومحمد «ص» الذي حفظه الله من طلب قريش ومحاصرتها لداره.)

ونموذج هذا الأسلوب قوله تعالى «إِنَّ الَّذِينَ تَدعُونَ مِن دُونِ اللّهِ عِبادٌ

(١) سورة الحج، آية «٧٣».
(٢) سورة النساء، آية «١٣٩».
(٣) سورة النحل، آية «١٧».

أمثالكم»١.

٣ـ المقارنة: إحدى الطرق القرآنية لمعالجة ظاهرة الشرك هي اجراء المقارنة بين الله وغير الله، وعن هذا الطريق ينذر الانسان من السقوط والتيه في اختيار الآخرين بدل الله.

ونموذج هذا الأسلوب قوله تعالى «هَل مِن شُرَكَائِكُم مَن يَهدِي إِلى الحَقِّ»٢.

٤ـ الطريق الرابع لمحاربة الشرك ومقاومة الاصابة به يتمثل في مراسم الصلاة والدعاء والمناجاة والذكر، حيث ان كل جملة في هذه العبادات كفيلة باحياء روح التوحيد في الانسان.

ولأجل التطبيق.. نتأمل لحظة في جملة (الله أكبر)، و(بحول الله) و(إيّاك نعبد).

نجد ان (الله اكبر) تعني أكبر من الوصف والتصور، أكبر من تصور كل انسان، أكبر من الأنظار والأسماع والأقوال والكتابات، أكبر من المتآمرين وقوى الاستكبار والطواغيت.

(بحول الله وقوته أقوم وأقعد) فاذا نهضنا وإذا قعدنا فبقوته ومن قدرته.

(إيّاك نعبد وإيّاك نستعين) عبوديتنا وطاعتنا له وحده، ولانكون اتباعاً للشرق ولا للغرب. نستعين به فقط لأنه قدرته لا نهاية لها، وكل ما في الوجود مسخر بأمره فنطلب العون من الموجود الذي يفيض منه الوجود والذي بيده كل مافي الوجود.

وخلاصة كل جملة من الأدعية والأذكار نفحة لاحياء روح التوحيد وقطع التبعية والارتباط بغير الله. والاستعانة بالله وحده لا تعني ترك

(١) سورة الأعراف، آية «١٩٤».

(٢) سورة يونس، آية «٣٥».

السعي والعمل والاستفادة من ثروات الطبيعة المادية.

* * *

وتنبغي الاشارة الى أن دروسنا في هذا القسم جاءت مختصرة ولم نكن في صدد التحليل الكامل. كما ينبغي أن نشير الى أن الطرق الأربعة التي حددناها لمعالجة واستئصال جذور الشرك تمثل ما حضرني من أفكار أثناء تدريس أصول العقيدة للطلاب ولا تعني عدم وجود طرق أخرىٰ.

علامة الأمة المشركة

يقول القرآن الكريم «وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ»[١]. حينما نستبدل الوحي ونشد أبصارنا صوب الشرق أو الغرب ليحل محل التوجه لله التوجه لغيره ومحل قانونه ارتباط القلوب بقانون غيره فهذه الحالة دلالة انحراف الأمة وشركها.

مثلاً: نقول: وفق الأمر الإلٰهي لابدَّ من مقاومة العمل (س) أو الشخص (س) أو الجماعة (س)... وهذا تكليف إلهي. حينئذٍ تنقبض بعض الوجوه وتنكمش على نفسها.

ولكن حينما نقول طبق الأصل (س) من القوانين الدولية تتفتح تلك الوجوه وتستبشر.

وإذا قلنا ان الله يطلب و يريد يعبس و يكفهر، اما اذا قلنا ان الشعب ينتظر و يطلب تنفتح أساريره.

(١) سورة الزمر، آية «٤٥».

وهذه الحالة مؤشر شرك هؤلاء الناس.

المورد الذي تُمنع فيه طاعة الوالدين

جاء في القرآن الكريم ــ خمس مرات ــ الأمر الأكيد بالاحسان للوالدين. وفي اربع موارد جاءت مسألة احترام الوالدين مقترنة بالتوحيد والعبودية الخالصة. و ينشأ هذا الاقتران من جهتين:

الأولى: ان مجيء الانسان الى عالم الحياة تابع ومرتبط أولاً بالأساس بالله تعالى ثم بالوالدين.

الثانية: ان خدمة الوالدين مسألة لها أهمية خاصة في الاسلام، ولذا جاءت بجوار التوحيد والايمان والعبودية لله.

و بلغ الاهتمام في الروايات والأحاديث الشريفة الى حد اعتبار النظر الى وجوههم عبادة.

ورغم كل هذه الوصايا إلا ان الوالدين إذا سعيا لانحراف الأبناء عن المسير الإلهي فاطاعتهم ممنوعة، و يلزم الأبناء العصيان.

ومسألة العصيان نلاحظها في آيتين من القرآن، تشابه فيهما التعبير الى حد كبير:

(١) قوله تعالى: «وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشرِكَ بِي مَا لَيسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعهُمَا»[١].

(٢) قوله تعالى: «وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشرِكَ بِي مَا لَيسَ لَكَ بِهِ عِلمٌ فَلاَ تُطِعهُمَا.»[٢].

مجاهدة الوالدين تأتي حيناً بصورة مشفقة؛ ولدي إذا لم نطع الطاغوت

(١) سورة العنكبوت، آية «٨».

(٢) سورة لقمان، آية «١٥».

فسوف نخاطر في معيشتنا. ما لنا واعتبارنا مرتبط به فلا بدَّ أن نقول له نعم سيدي. وتأتي محاولة الوالدين في أحيان أخرى بصورة مهينة للابن؛ أنت لا تفهم، الآخرون أكبر منك سناً. جربوا طرق الحياة وذهبوا في هذا الطريق وضمنوا لأنفسهم حياة مستقرة عن طريق تعظيم وطاعة الحاكم.

أجدادنا وقوميتنا تقتضي أن نمضي على هذا الطريق ونوافق على كذا ونعمل كذا...

والقرآن يعبر عن محاولة الوالدين «مجاهدة» يعني يبذلان الجهد لفرض الرأي وتحميل العقيدة. وحيث ان المسألة هنا مسألة شرك وطاعة واتكاء على غير الله كان لابدَّ من العصيان.

الذنب الذي لا يغفر

الشرك ذنب لايغفر. وفي سورة النساء نقرأ الآية التالية مرتين «إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ».[١]

ولابدَّ من الالتفات الى أن غفران الله لمن يريد و يشاء بحكمته هذا الغفران يرجع الى مجموعة استعدادات ولياقات يتمتع بها المغفور له، ولايأتي هذا الغفران اعتباطاً.

مقاومة المشركين

لابدَّ لنا أن لانقف مكتوفي الأيدي في وجه العناصر التي تهدف لغير الله، وتسعى لأداء وتطبيق تعاليم غير الله، والتي ينحصر هدفها في الذات

(١) سورة النساء، آية «٤٨» و«١١٦».

والمنصب والحزب.

إذ لولم يكن لنا خط إلهي سليم فجميع العناصر الفاسدة ــ الأحزاب، التكتلات ــ تطمع بنا ونصبح جثة لاأرادة لها بأيدي جمع من الذئاب، يتلاعبون بنا كل يوم الى جهة حتى يستنفذوا أغراضهم فيتركوننا ليذهبوا صوب الآخرين، فهل يترك هؤلاء الذئاب يتلاعبون بمقدرات الآخرين ؟!

الشهيد مطهري يوصي : بالمقطع التالي من الدعاء **(خاَب الوافدون على غيرك وخسر المتعرضون إلاّ لك)** كرر هذه الجملة على نفسك كثيراً.

قارئي العزيز لاحظ الجدول التالي:

لابدَّ أن يتجه الانسان الى أحد هذه الخطوط:

١ـ الخط الذي عينه برغبته لنفسه.

٢ـ الخط الذي عينه الآخرون له.

٣ـ الخط الذي عينه الله له.

الخط الأول غير صحيح، لأنني أتخذ اليوم قراراً ثم يتضح لي في اليوم الثاني انني قد اخطأت وكنت على اشتباه. وحقاً كيف أستطيع أن اختار طريقاً سليماً من بين مئات الطرق وأنا محدود العلم تحكمني ميول وغرائز؟!

الخط الثاني غير صحيح أيضاً، لأنه وكما يقول أميرالمؤمنين علي (ع)، لقد ولدتني أمي حراً فلماذا أكون الآن أسير هوى هذا وذاك إذ ان طاعتهم العمياء بنفسها هي شرك **﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُم إِنَّكُم لَمُشرِكُونَ﴾** [1].

يبقى الخط الثالث وهو طريق الله **(سبيل الله)** [2]. وهذا الطريق

(١) سورة الأنعام، آية «١٢١».

(٢) تكرر التعبير عن خط الله بـ(سبيل الله) في القرآن الكريم أكثر من «٥٠» مرة، خصوصاً في موارد الجهاد والشهادة والهجرة ➤

الطريق المستقيم (وَإِنَّ هٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً)[١] حيث لاانحراف فيه (وَلَم يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً)[٢].

هذا الطريق المستقيم هو طريق محمد(ص) (إِنَّكَ لَمِنَ المُرسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُستَقِيم)[٣]. وهذا الطريق المستقيم مقابل خطوط الآخرين (المغضوب عليهم) و (الضالين)[٤]. خط الأنبياء والشهداء والصديقين والصالحين[٥].

وخلاصة هذا الخط انه خط العبودية، والطريق الذي ينبع من العلم الإلهي الذي لايتناهى، وقد وصل إلينا مجرداً عن الهوى بواسطة الرسول المعصوم(ص)، والعلماء الأمناء من بعده.

بعد ان اتضح خط التوحيد فلابدّ من مواجهة الخطوط الأخرى وإلاّ فسوف تستثمر الخطوط الأخرى موقفنا البارد، وتسعى لاخراجنا عن دائرة التوحيد.

فالله سبحانه يأمر نبيه و يوصيه بـ:

١ـ (إتَّبِع مَا أُوحِيَ إِلَيكَ مِن رَبِّكَ لاَإِلٰهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعرِض عَنِ المُشرِكِينَ.)[٦].

٢ـ (مَا كَانَ لِلمُشرِكِينَ أَنْ يَعمُرُوا مَسَاجِدَ اللّهِ)[٧].

٣ـ (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَستَغفِرُوا لِلمُشرِكِينَ وَلَو كَانُوا أُولِي قُربىٰ)[٨].

حيث أبرز القرآن حرصاً على ايراد هذا التعبير في هذه الموارد لتكون حتماً في سبيل الله.

(١) سورة الأنعام، آية «١٥٣».

(٢) سورة الكهف، آية «١».

(٣) سورة يس، آية «٣-٤».

(٤) سورة الحمد.

(٥) سورة النساء، آية «٦٨».

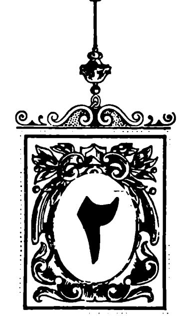
(٦) سورة الأنعام، آية «١٠٦».

(٧) سورة التوبة، آية «١٧».

(٨) سورة التوبة، آية «١١٣».

٤ـ (قَد كَانَت لَكُم أُسوةٌ حَسَنَةٌ في إبراهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إذْ قَالُوا لِقَومِهِم إنَّا بُرَءاؤُا مِنكُم وَمِمَّا تَعبُدُونَ مِن دُونِ آللّهِ كَفَرنَا بِكُم وَبَدَا بَينَنَا وَبَينَكُم العَداوَةُ وَالبَغضَاء أبَداً حَتَّى تُؤمِنُوا باللّهِ) [١].

(١) سورة الممتحنة: آية «٤».

الحلقة 

العدل




العدل

تـنـاولـنـا في الحـلـقة الأولى باختصار البحث في النظرة الإلهية للعالم ومسألة التوحيد والشرك ، ونشرع في هذه الحلقة بتناول الأصل الثاني من أصول عقيدتنا (العدل).

نحـن نـدرك ـبـفضل قدرة الادراك ـ الحسن والقبح، ونفهم ان الظلم قبيح، وان العدل حسن.

واعـتـقـادنـا هـو ان الله لايـفـعل القبيح ولامجال للظلم والعدوان في مـا يـفـعلـه. وعـلة اعتقادنا هي : ان العدوان والظلم الذي نلاحظه ينشأ جراء أحد العوامل التالية:

١ــ الجهل: يكون الجهل وعدم العلم في بعض الأحيان سبباً أساساً للـظـلـم،فمثلاً: الشخص الذي لايعلم بتساوي الأصول العرقية للبشر من الأسـود، والأبـيـض، يتخيل هذا الشخص، ان الجنس الأبيض أرقى من

الجنس الأسود. وان الحبشي الأسود جنس دانٍ، حينئذٍ يمارس العدوان والظلم على أبناء الجنس الأسود. وأساس هذا الظلم هو الجهل أو حبّ الذات. في هذا الضوء من الممكن ان يمارس الانسان أعمالاً لا تعود الاّ بالظلم على الآخرين نتيجة جهله، وسوء فهمه وتصوراته الحمقاء.

ولكن كيف يمكن ان يمارس الله الظلم، وهو الذي لاسبيل للجهل اليه والذي لانهاية لعلمه؟!

٢ــ الخوف: ينشأ الظلم أحياناً من الخوف.

مثال ذلك:

هناك قوتان متصارعتان يصيب الهلع احداهما نتيجة الخوف من هجوم القوة الأخرى. فتهجم هذه القوة الخائفة لصيانة نفسها من هجوم الخصم فتتعدى عليه وتُنزل الظلم به.

مثال آخر: يتوسل الطواغيت بالقوة والظلم لتثبيت أركان الحكم، والسيطرة على الأحرار خوفاً منهم.

ولكن هل لله خصم أو لديه حاجة لتحكيم سلطانه وقدرته؟

٣ــ الحاجة والنقص: تكون الحاجة أحياناً عاملاً للظلم.

فالحاجات المادية والمعنوية يمكن ان تدفع شخصاً ما لممارسة عمل قبيح وانزال الظلم بالآخرين.

٤ــ يمكن ان تنشأ بعض أشكال الظلم من الخبث النفسي للأفراد، فبعضهم مرضى بالسادية (١) يلتذون بانزال الألم والأذى بالآخرين أو بمشاهدة الآخرين يتألمون.

(١) السادية: عقدة نفسية تؤدي الى ايقاع الأذى بمن يحب، وسميت بالسادية نسبة الى أبرز رموزها (ميركيز دوساد)

الآن وحيث تعرفت على أصول الظلم وعوامله، فأي من هذه الأصول تعثر عليها في الله حتى تكون دافعاً له لكي يظلم؟

القرآن في هذا المجال يقول: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ﴾(١) فالله سبحانه ليست لديه ارادة ظلم لأي موجود فضلاً عن ممارسته الظلم. فالله الذي يأمر بالعدل، كيف يمكن أن يظلم؟(٢) وكيف يمكن أن يأمر الله الانسان الضعيف الذي تطوقه الغرائز الهائجة بالعدل مع الآخرين ولوكانوا أعداء له(٣)، ولكنه نفسه يظلم بماله من قدرة مطلقة لاتحدها أي غريزة وشهوة؟!

الطريق لمعرفة صفات الله

طريق معرفة الصفات الإلهية هو نفس الطريق الذي نسلكه لمعرفة الله، مثلاً: كما تنتقل من كتابة ما الى الكاتب، كذلك تنتقل من خصائص الكتابة والخط الى خصائص الكاتب. فمن مفردات التعبير التي يستخدمها الكاتب نتعرف على مقدار اتقانه للغة، ومن طراز الانشاء وطريقة الأداء نفهم مقدرة الكاتب الكتابية، ومن خلال الأفكار التي يطرحها الكاتب نلتفت الى غاية الكاتب وتكوينه الروحي والنفسي.

إذن كل ابداع وخلقة يمكنها ان تقوم بعملين:-

١ــ التعرّف بواسطتها على مبدعها.

(١) سورة آل عمران، آية (١٠٨)
(٢) سورة النحل، آية (٩٠)، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِالعَدلِ وَالإِحْسَانِ﴾.
(٣) سورة المائدة، آية (٨)، ﴿وَلَايَجرِمَنَّكُم شَنَآنُ قَومٍ عَلىٰ أَلاَّتَعدِلُوا﴾.

٢ـــ تفهم هدف مبدعها وصفاته وخصائصه الروحية. (١)

لماذا كان العدل من أصول الدين؟

لله سبحانه صفات متعددة من قبيل الحكمة، القدرة، الخلق، العلم... ومع ملاحظة تعدد صفاته يطرح هذا السؤال نفسه:

لماذا يقول علماء العقيدة: ان العدل من أصول الدين؟

ولماذا لايقولون: ان الأول من أصول الدين هو التوحيد، والثاني الحياة، أو الأول التوحيد والثاني العلم، وقالوا: ان الأول التوحيد، والثاني العدل؟

الجواب: بسبب وجود جماعة من المسلمين تدعى بـ(الفرقة الاشعرية) أنكرت لزوم العدالة كصفة من صفات الله. وقالت الأشاعرة:

كل عمل يريده الله و يقوم به فهو حسن وان كان في حساب عقولنا من الأعمال المسلّم بكونها ظلماً وقبيحاً. مثلاً، يقولون: اذا ادخل الله أمير المؤمنين علياً «ع» الى جهنم وادخل قاتله (ابن ملجم) الى الجنة فهذا العمل لامانع منه.

(١) تحسن الاشارة الى ان صفات الله ليست كلها على حد العلم، والقدرة. فصفات الله على نوعين:

أـــ الخصائص الذاتية مثل العلم والحياة والقدرة...

بـــ الخصائص العرضية مثل الخالق، المنعم...

والفارق بين هذين النوعين هو ان الصفات الذاتية هي تلك الصفات التي لايمكن ان نتصور الله بدونها كالعلم والقدرة، أما الصفات العرضية مثل الخلق فهي الصفات التي يمكن ان نتصور الله موجوداً ولم يكن خالقاً.

الاّ اننا لانقبل هذا المنطق، ونعتبر عدل الله جزءً من أصول عقيدتنا. وفي ضوء منطق العقل وبهدي آيات القرآن الكريم نقول:

كل الأفعال الإلٰهية تجيء وفق حكمة وميزان، وهي أفعال حكيمه. ولايصدر منه الظلم والفعل القبيح أبداً.

هذا مضافاً الى ان عدالة الله لها آثار عجيبة في حياة الانسان ومن جهات مختلفة:

١ــ من جهة ضبط النفس مقابل الذنوب. لأن الانسان حينما يشعر ان قوله وعمله تحت رقابة الله، وان مثقال ذرة من عمله لاتخفى عليه، وانه سيرى جزاء كل خير وشرّ فسوف لايرى نفسه في هذا العالم تائهاً بلاضابط وقيد، (لدينا في هذا المجال آيات قرآنية كثيرة).

٢ــ التفاؤل؛ الانسان المؤمن بالعدل الإلهي في نظام الخلق متفائل. حيث يرى ان إلٰه العالم عادل فلديه التفسير السليم للكوارث الذي يطمئن عنده، وتكون الأحداث المرة حلوة لديه.

مثل هذا الشخص لاييأس ولايتشاءم في كل الأحوال.

٣ــ الايمان بالعدل الإلهي دافع لاستقرار العدالة في حياة الفرد والمجتمع، فالشخص الذي يؤمن بالعدل الإلهي مهيأ لقبول العدل في الحياة الفردية والاجتماعية.

* * *

ملاحظة أساسية

المسألة الأساسية في بحث العدل تتمثل في الاجابة على الشبهات التي تثار حول هذا الموضوع. ونحن في الاجابة على هذه الشبهات نستعين

بالآيات والروايات مع شيء من التوضيح ضمن فقرات نأتي عليها بالتوالي:

الفقرة الأولى: معنى العدل

الله عادل، يعني انه لايضيِّع حقّ أي موجود و يعمّ لطفه وفق نظام الوجود كل موجود، والظلم اضاعة الحقوق. إذن مركز البحث في الظلم والعدل هو المورد الذي يكون فيه حق.

الآن لنرَ هل هناك فرد له دَين على الله؟

وهل ان الموجودات كان لها حق من قبل لكي يضيع هذا الحق و يكون هناك ظلم؟

أكان لنا وجود من قبل أو كان لنا شيء من أنفسنا لكي يُؤخذ أو يضيّع؟ نعم هناك تفاوت في عالم الوجود، فموجود جماد، وآخر نبات، وموجود حيوان، وآخر انسان.

غير ان أي موجود لم يكن له حق و وجود من قبل حتى يمنع من حقه. مثلاً: اذا قطعت سجادة كبيرة قطعاً قطعاً، هنا تستطيع القول ان هذه السجادة كانت كبيرة، و بتقطيعها فقدت حجمها الكبير. غير أننا لونسجنا سجادة صغيرة، فهذه السجادة ليس لها حق ان تعترض وتقول: لماذا أنا صغيرة؟ لأنها لم تكن من قبل. بل كانت عدماً ولم تكن لها مساحة كبيرة فيأخذها أحد و يكون هناك ظلم.

لقد أبدع الله سائر الموجودات بصور متفاوتة وعلى أساس حكمة، وليس هناك لأي موجود دَين وحق سابق، ورسم للوجود نظاماً (نظام العلية)، وقرر لكل موجود طريقاً يتناسب معه. وجاءت أوامره وتكاليفه وتوقعاته وثوابه وعقابه بلا أي تبعيض بين الأفراد والأمم والقوميات.

وفي قضائه وجزائه راعى الامكانات والظروف في الحكم والقضاء. هذه صورة عامة لبرنامج التعامل الإلهي، وليس في هذا البرنامج أيّ لون من ألوان الظلم.

خُذْ مثلاً على ذلك: مصنعاً ينتج (البرغي) والمطرقة الصغيرة و(الإسبانة) كما ينتج أيضاً اطار السيارات الكبيرة. فهل تسمح لنفسك ان تنسب الظلم الى صاحب المصنع بسبب التفاوت بين البرغي والمطرقة و بين الاطار؟، وهل ان نفس البرغي والمطرقة لها حق الاعتراض؟

الجواب بالنفي حتماً لأننا في نظام العجلة وحركتها بحاجة الى البرغي و الإسبانة وبحاجة أيضاً الى الاطار الكبير.

وتبقى صورة واحدة للظلم وهي فيما اذا وضعنا حمولة الاطار فوق البرغي والمطرقة، أما اذا صنعت كل قطعة لعمل ولم نحمل عليها أي شيء فوق طاقتها، ولم تكن هذه القطع موجودة سابقاً، وليس لها دَين أو حق على صاحب المصنع، وصاحب المصنع ليس له توقع أكبر من حجم وطاقة هذه القطع. في هذه الصورة ليس هناك ظلم يمكن تصوره.

الآن وقد اتضح معنى الظلم والعدل فمن الضروري الالتفات الى مسألة وهي ان معنى العدل في كل المجالات والأوقات لايعني المساواة والتكافؤ.

المثال(١): اذا كان هناك معلم يمنح كل طلابه درجة واحدة (دون أن يأخذ بنظر الاعتبار المستوى الدراسي والجهد الذي يبذله كل طالب.) فهذه المساواة ظلم بتمام المعنى.

المثال(٢): اذا كان هناك طبيب لايأخذ باعتباره حالة المرضى و يعطيهم دواء واحداً فهذه المساواة ظلم

فعدالة المعلم والطبيب في هذين المثالين تكمن في اعطاء الدواء والدرجة المتفاوتة لكن هذا التفاوت غير التبعيض والتفرقة. هذا التفاوت طبيعي ولم يقم على أساس الرشوة والوساطة وارضاء الخواطر. بل كل هذه التفاوتات حكيمة.

وعلى هذا الأساس، كل لون من التفاوت وعدم المساواة ما لم يخرج عن دائرة الحكمة لايكون ظلماً.

الفقرة الثانية

كثير من الاشكالات على عدل الله تنشأ نتيجة الأحكام السطحية العاجلة.

أحكامنا سطحية وعاجلة...

لاحظ الأمثلة التالية:

افرض ان الحكومة الاسلامية لأجل سد حاجة مدينة من المدن، ولغرض تحقيق الرفاه العام أصدرت أمراً بأحداث شارع بعرض (٤٥) متراً. وكان وجود هذا الشارع الواسع ضرورياً بلحاظ الحاجة العامة، وازدحام المارة والعجلات، ولكن في أحداث أي شارع داخل المدينة تقع مضايقات على بعض السكان القريبين من الشارع، وتكون بيوتهم مسمولة بقرار الهدم. والى ان يأخذ هؤلاء قيمة بيوتهم من الدولة والى ان يجدوا بيتاً يسكنونه يتحملون مصاعب وزحمات.

ولكن لاينبغي ان نضحي برفاه الشعب وحاجة الأمة لأجل مصاعب فئة قليلة. فالاسلام رغم اهتمامه بحق الفرد وملكيته الاّ انه اهتم بدرجة أكبر بالحقوق الاجتماعية العامة.

يقول أمير المؤمنين في عهده لمالك الأشتر: (وليَكُن البيع بيعاً سمحاً بموازين عدل وأسعار لا تُجحِف بالفريقين من البائع والمبتاع فمن قارف حُكرَة بعد نهيك إياه فنكل به).(١)

و يقول أيضاً في مكان آخر: (انَّ في كثير منهم ضيقاً فاحشاً وشحّاً قبيحاً واحتكاراً للمنافع وتحكماً في البياعات وذلك باب مضرة للعامة وعيب على الولاة)(٢)

قصة

كان لشخص في منزله كلب، وفي يوم من الأيام خرج هذا الشخص من المنزل ليشتري بعض الحاجات وترك طفله الرضيع بمفرده على أمل العودة العاجلة الى المنزل. وحين عودته استقبله الكلب وقد لطخَّ الدم شفتيه وفمه، فأخذ صاحب المنزل يتأمل مع نفسه وحسب ان الكلب قد هجم على طفله وقطعه فسحب المسدس بعصبية وانفعال وأطلق الرصاص على الكلب. ثم ركض مسرعاً الى داخل المنزل، الاّ انه لاحظ الوضع بشكل آخر، اذ ان المسألة كانت بهذا الشكل:

ان ذئباً من خارج المدينة دخل المنزل، وحيث ان أبواب المنزل كانت مفتحة استطاع الدخول الى غرف المنزل والهجوم على الطفل، وهنا أخذ الكلب في الدفاع عن الطفل وبجهد كبير طرد الذئب بأسنانه ومخالبه التي تلطخت بالدم على اثر جراحه.

لكن الحكم السريع دفع صاحب المنزل لقتل الكلب بدل تقديم الشكر والتقدير له.

(١) نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح ص(٤٣٨).
(٢) نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح ص(٤٣٨).

ندم صاحب المنزل على عمله، واتجه نحو الكلب عسى ان ينجيه من الموت، ولكن بعد فوات الأوان، مات الكلب ولم ينفع الندم!

يقول صاحب المنزل: (امعنت النظر في عيون الكلب التي كانت مفتوحة، وسمعت صرخة توجع القلب تنطلق من العينين المفتوحتين لهذا الكلب التالف، وتقول هذه الصرخة: أيها الانسان الى أي حد تعجل؟ بأي سرعة تحكم وتقضي؟ لماذا قتلتني ولم تدخل المنزل ولم تطلع على الواقع؟

بعد هذه الواقعة المؤسفة كتب صاحب المنزل مقالاً تحت عنوان (أيها الانسان بأي سرعة تقضي؟).

من الممكن ان يكون هناك أشخاص قد دعوا الله ولم يستجب دعاءهم ثم التفتوا الى حسن عدم الاستجابة.

نقد القرآن للأحكام السطحية العاجلة

لأجل تجنب تلك الأحكام العاجلة والسطحية أنذرنا القرآن باستمرار: أيها الانسان ان كثيراً من تصوراتك وخيالاتك لا أساس لها. كم عمل تعتبره سيّئاً وتكرهه الاّ انه نافع لك في الواقع؟، ولعلك تحب أشياء وهي في الواقع شر لك.

في مجال الجهاد يقول القرآن (كُتِبَ عَلَيكُمُ القِتالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسىٰ أنْ تَكْرَهُوا شَيئاً وَهُوَ خَيرٌ لَكُمْ وَعَسىٰ أنْ تُحِبُّوا شَيئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ)(١)

الحرب والجهاد عامل لتنمية الاستعدادات، وتكشف الحرب والجهاد عن الامكانات والطاقات.

(١) سورة البقرة، آية (٢١٦).

وكما يقول الامام الخميني: (ان جوهر الذات الانسانية يرشد في الحرب)، وفي الحرب تتميز صفوف العاملين المخلصين عن صفوف ذوي الادعاء والشعار، وتتلاحم بفضل الحرب صفوف المقاتلين في سبيل الهدف المشترك.

القتال في سبيل الأهداف يعطي للانسان قيمته ويحفظ شرفه، وبالأساس فالدليل على حياة الأمة التي تعيش تحت الظلم والاضطهاد هو ان تحمل السلاح وتقاتل الطاغوت.

نقرأ في سورة النساء: (فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيراً كَثِيراً)(١)

واذا أحصينا لفظة (الحسبان) ومشتقاتها في القرآن الكريم نرى حينئذ اهتمام القرآن البالغ في تنبيهنا بين الحين والآخر:

ان لا تتخيلوا هذا الخيال، وان لا تفكروا ذلك التفكير،

وان لا تظنوا هذا الظن... والى آخره من التعبيرات التي استخدم القرآن فيها لفظة (حسب) ومشتقاتها، وجميع هذه التعبيرات تشير الى نقد القرآن للتفكير العاجل والسطحي.

نموذج آخر للحكم العاجل

نقرأ في القرآن الكريم ان الملائكة بسبب عدم امتلاكهم للوعي العميق بحقيقة الانسان قالوا لله: لِمَ تخلق هذا الانسان الذي يسفك الدماء و يفسد في الأرض، ونحن نسبّح بحمدك ونستغفرك ولانعصي لك أمراً؟! وحيث ان الله سبحانه أراد خليفة لائقاً له في الأرض علّم

(١) سورة النساء، آية (١٩).

الانسان علوماً لا تعرفها الملائكة... وفي جوٍ مثير أثبت للملائكة ان حكمهم بحق الانسان عاجل وسطحي.

وخلاصة الكلام اننا اذا اصطدمنا في بحث العدل بشبهة ما، وانتهينا الى التساؤل: اذا كان الله عادلاً فلِمَ حصل هذا، ولِمَ كان ذلك؟

حينئذ لابدَّ ان نلتفت الى:

١ــ ان أحكامنا وتقديراتنا لا تتعدى ان تكون صادقة بنسبة من المائة.

٢ــ ان كثيراً من أسرار وقضايا الوجود لا تزال خفية علينا.

٣ــ اننا من الناحية العلمية والتجريبية محدودون.

فقد مرت علينا سنون ونحن نعتقد ان وجود الغابات لافائدة له، ولكن بمرور الزمن اتضح ان عشرات المواد والعناصر تستخرج من الغابات وتكون مورداً للنفع.

ألــم يقولوا في السنين الماضية: ان اللوزتين لافائدة لها، والآن يقولون انها تولد كريات الدم البيضاء التي تقاوم الجراثيم، سنون مضت وهم يقولون ان الزائدة الدودية لامعنى لها واليوم يقولون: تستطيع الزائدة الدودية ان تلعب دوراً فعالاً في مقاومة السرطان.

فلوقمنا بمطالعة كتاب رفيع المستوى ووجدنا فيه الكثير من المصطلحات التي لانعرف معناها فلايصحّ لنا الاستعجال بالحكم وإلصاق التهم بالكاتب. بل لابدَّ من اعادة النظر في فهمنا واستيعابنا.

الآن وبعد ان اتضح لنا مفهوم العدل وتبيِّن لنا ان علة الكثير من اعتراضاتنا هي الأحكام السطحية العاجلة ننتقل الى الفقرة الثالثة لتحليل عوامل قلق الانسان وانزعاجه...

الفقرة الثالثة

متابعة وتحليل أسباب قلق الانسان

نحن نغفل عن دورنا في ايجاد الازعاج والأحداث المؤلمة، و بلاأي مقياس نحسب هذه الأحداث كلها على الله، ونأخذ بالاعتراض والاشكال؛ ربّنا أنت عادل إذن فلماذا يتفق لي الألم كذا والازعاج كذا؟

في حين نجد ان كثيراً من الكوارث تحصل بأيدينا.

مثلاً، لانعتني بالوقاية من الأمراض فنصاب بالأمراض. ولانقف بوجه الفساد ونترك النهي عن المنكر بكامل أبعاده فيتسلط علينا الأشرار ولايستجاب لنا دعاء ولا تسمع لنا ندبة.

نهمل سُلّم الدار بلاحاجز حديدي فنعرض أطفالنا للموت بالسقوط على الأرض من فوق السلم.

في هذا الموضوع مثل سائر الموضوعات الأخرى نستعين بتوجيهات القرآن الكريم ونطرح عدداً من الآيات في هذا المجال:

١ـ ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾(١)،

٢ـ ﴿وَإِنْ تُصِبهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾(٢)

لاحظ هذه الآية أيضاً تجد ان عامل وجود السيئة والمصاعب هو سلوكنا ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أيدِيهِمْ﴾.

﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ٱبْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾(٣)

ثم يأتي التعليق على قوله ﴿رَبِّي أَهَانَنِ﴾ في الآيات اللاحقة من قوله تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ لَا تُكرِمُونَ الْيَتِيمَ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينَ﴾(٤) وهذا يعني ان الله لايبتلي الانسان بلاأساس. بل تنسب الآية أسباب العسر هنا الى الانسان وعدم اكرامه للأيتام وتركه للدعوة الى اطعام المحرومين. وهذه الآية أيضاً ترى ان رمز التفاوت في العطاء الإلهي يعود الى أعمال الانسان نفسه.

٤ـ ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾(٥)

وهذه الآية أيضاً تدل بوضوح على ان عامل الكثير من المتاعب هو كفران(٦) الانسان وعدم شكره للنعم الإلهية.

متابعة أسئلة حول العدل الإلهي

في مطلع هذه الفقرة قلنا ان الكثير من متاعبنا تنشأ جراء أعمالنا،

(١) سورة الشورى، آية (٣٠).
(٢) سورة الروم، آية (٣٦).
(٣) سورة الفجر، آية (١٦).
(٤)
(٥) سورة النحل، آية (١١٣).
(٦) الكفر حيناً يكون بالله، وآخر يكون بأمر الله وحكمه، وحيناً آخر يكون بنعم الله، و يستخدم القرآن لفظ (الكفران) للتعبير عن الحالة الثالثة. والكفران يعني عدم الاستفادة المناسبة من النعم الإلهية.

ونحن بأعمالنا الرديئة نستقبل غضب الله ونتلقى المتاعب، وهنا تطرح عدة أسئلة نفسها:

١ــ نشاهد في حياتنا اليومية أفراداً لايأبون عن الخضوع لأي ظلم واضطهاد، ومع هذا فهم يعيشون في رفاه وسعادة!

وأنت تقول: ان المتاعب تنشأ من أعمالنا فإذن لماذا لايقع (س) من الأفراد الذي يسلك سلوكاً أسوء من سلوكنا فيما نحن فيه من متاعب وآلام وعقبات؟!

نجيب على هذا الاشكال بالاعتماد على القرآن والسنة:

حساب جميع الأفراد والجماعات عند الله ليس واحداً. بل يمكن تنويعه الى:

أــ جماعة يباشر تأديبهم فوراً.

ب ــ جماعة يمهلهم الى أجل ثم يؤدبهم.

ج ــ القسم الآخر يتركهم في حياتهم الدنيا يعيشون في رفاه ولايؤدبهم بل يؤجل حسابهم ليوم القيامة. مثال: يمكن للمعلم ان يضع أساليب متعددة للتعامل مع كل صنف من تلاميذه داخل الصف الواحد. فقسم منهم يستخدم معهم أسلوب التنبيه الفوري لغرض تأديبهم وقسم آخر من التلاميذ يمهلهم مدة ثم يشرع في تأديبهم والقسم الأخير وهم أكثر التلاميذ خطأ لايواجههم بأي ردّ فعل، و يترك حسابهم الى وقت الدرجات الامتحانية في آخر العام الدراسي.

يتضح ان التفاوت الإلٰهي في الحساب والمعاملة قائم على أساس حكمة، اذ ان العناصر المذنبة لا تتفق بعضها مع البعض في نوع العمل وطبيعة الذات والسريرة، حتى يكون حسابها متساوياً ففي مثل المعلّم، يختار المعلم أحياناً أسلوب التنبيه المباشر بحق التلاميذ الجيّدين، لأنه

لاينتظر من هؤلاء العمل الخاطىء. في حين لايواجه الطلاب الاعتياديين والسيِّئين بنفس الطريقة التي يواجه بها التلاميذ الجيدين.

نقرأ في القرآن ان الله سبحانه وتعالى يعاتب أنبياءه بشدة في بعض الأحيان لأجل عمل ارتكبوه (وطبعاً ليس بذنب) لأنه لايتوقع من هؤلاء العظام ان يرتكبوا مثل هذا العمل. ولكن بالنسبة للأفراد الآخرين نقرأ في القرآن قوله تعالى: ﴿وَجَعَلنَا لِمَهلِكِهِم مَوعِداً﴾(١) فهناك إمهال وصبر وفرصة حتى يحل القرار التاريخي بانزال الغضب والهلاك بأهل القرى الظالم أهلها. وأكثر من ذلك نلاحظ القرآن الكريم يصف حالة هؤلاء الذين أمهلهم الله الى أجل فيقول: ﴿وَيَسْتَعجِلُونَكَ بِالعَذَابِ وَلَن يُخلِفَ اللَّهُ وَعدَهُ﴾(٢) هؤلاء الكفار يقولون: اننا مع كل ما عليه من كفر وظلم نعيش في رفاه، إذن فمتى يحلّ الوعد بالعذاب؟! في حين يقرر القرآن ان الله سوف يعمل بوعده الآ ان المسألة مسألة وقت.

في هذا الضوء فالله سبحانه وتعالى لايباشر ردّ الفعل فوراً بالنسبة للعناصر المعتدية الظالمة و يقول: ﴿فَأَملَيتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذتُهُم﴾، و يوضح أيضاً في مكان آخر علة هذه المهلة التي يعطيها لهؤلاء و يقول: ﴿وَلَا يَحسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُملِي لَهُم خَيرٌ لِأَنفُسِهِم إِنَّمَا نُملِي لَهُم لِيَزدَادُوا إِثماً وَلَهُم عَذَابٌ مُهِينٌ﴾(٣)

حصل يزيد بن معاوية بعد مقتل الامام الحسين«ع» على مكاسب سياسية وعسكرية، إلاّ ان السيدة زينب عليها السلام قرأت عليه الآية ﴿لَا يَحسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُملِي...﴾، واساساً تمثل هذه المكاسب المؤقتة

(١) سورة الكهف، آية (٥٨).
(٢) سورة الحج، آية (٤٧).
(٣) سورة آل عمران، آية (١٧٨).

وهذا الرفاه المحدود أفضل وسيلة للعذاب اذ يقول القرآن: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾(١)

فيفتح عليهم وجوه العطاء من كل شيء حتى يرتبطوا من أعماقهم و يفرحوا بما أتاهم فيأتي أمر ربّك وعذابه فجأة فاذا هم مبلسون، يائسون حائرون.

واي حيرة تصيب هؤلاء؟ انها حيرة الاحتراق الداخلي والندم على كل شيء حتى على الرفاه الذي كانوا فيه...

ومثل هؤلاء مثل الشخص الذي يتسلق على الشجرة فكلّما صعد الى الأعلى تخيل انه أرتقى درجة، ولكن حينما يسقط الى الأرض يتبين له بعد ذلك ان التسلق على الشجرة بكل درجاته كان مقدمة لسقوطه وعذابه.

ولكن كما يعامل الله بعض الأفراد بطريقة الامهال فهو يعامل قسماً آخر من الذين يتمتعون بقابلية التغير والاصلاح، ولديهم بارقة أمل النجاة يعاملهم بالتنبيه والتأديب عسى ان يعودوا الى رشدهم و يقول تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(٢).

يمكن ان يكون هذا العدد من الآيات مستوفياً للاجابة على التساؤل الذي يقول: لماذا يترك الله المنحرفين مع انحرافهم ليعيشوا في رفاه، و ينزل المصاعب ببعض الناس لمجرد ارتكابهم خلافاً ما؟

وهنا نستثمر الفرصة ونشير الى روايات جاءت لتحذرنا و يقول مضمونها:

اذا واظبت على ارتكاب المعاصي بين الحين والحين الآخر ولم تجد

(١) سورة الأنعام، آية (٤٤).
(٢) سورة الروم، آية (٤١).

آثاراً لغضب الله في حياتك فكُن على وجل وخوف لئلا تكون خارجاً عن دائرة التنبيه وامكانية الاصلاح ولم يبقَ لك سبيل الاَّ جهنَّم وسوء العاقبة.

فكما تصل حال المريض أحياناً الى الحد الذي يتركه فيه الطبيب و يقول: اتركوه يأكل حسب شهيته، ومن ثم لايعطيه أي وصية وتوجيه، كذلك هناك أفراد جراء ارتكابهم المفرط للذنوب يعاملهم الله معاملة الجافي لهم المعرض عنهم و يقول لهم (إعْمَلُوا مٰا شِئْتُمْ)(١) والأنبياء أيضاً بعد ان ييأسوا من التأثير على الناس يقولون لهم: (يٰا قَومِ اعْمَلُوا عَلىٰ مَكَانَتِكُمْ)(٢). ونقرأ في الدعاء كثيراً (إلٰهي لا تَكِلْني إلىٰ نفسِي).

وخلاصة الكلام ان غضب الله يكون أحياناً بوسيلة ذلك الرفاه والراحة التي يُمهل بها الظالمين، و يبقى جزاء الآخرة في الكمين.

(١) سورة فصلت، آية (٤٠).

(٢) سورة الأنعام، آية (١٣٥).

الفقرة الرابعة

سؤال: يُبتلى الانسان أحياناً بمجموعة من المصاعب والكوارث مع انه لم يرتكب ذنباً أو تقصيراً، فما هو تحليل القرآن لهذه الكوارث في ضوء العدل الإلهي ؟

الجواب: تحدَّث القرآن في حدود عشرين مرة عن مسألة الامتحان والإختبار الإلهي. اذ ان إحدى السُنن الإلهية الحتمية للانسان هي سُنة الامتحان. والكوارث والمصاعب هي إحدى وسائل الاختبار الإلهي، كما ان الرفاه والراحة وسيلة أخرى للامتحان. يقول القرآن في هذا المجال: (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الخَوفِ وَالجُوعِ وَنَقصٍ مِنَ الأمْوالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَراتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ)(١)

وهنا لابدَّ من دراسة المسائل التالية:

١ــ هل ان الله سبحانه لايعلم ما سيفعله كل انسان حتى يستخدم وسيلة كوسيلة الاختبار؟...

٢ــ ما هي وسائل الاختبار؟...

(١) سورة البقرة، آية (١٥٥).

٣ـ ردّ فعل الناس مقابل الأحداث القاسية...
٤ـ طريق التغلب على المشكلات...

المسألة الأولى: هناك مجال للاشارة الى ان الاختبار الإلهي لايقصد منه علم الله ووعيه بوضعنا الروحي واكتشاف ردود أفعالنا، اذ ان الله يعلم كيف نفكر، وكيف نعمل قبل أي نوع من الفكر والعمل الذي نمارسه. بل الهدف من الاختبار هو ان يقع و يعرف منا العمل لكي نستحق الثواب والعقاب، لأن الله لايحاسب الناس طبق علمه السابق بصلاح وفساد الشخص (دون ان يقع منه عمل في الخارج).(١)

المسألة الثانية: أشرنا أيضاً الى ان الحوادث القاسية والممتعة كليهما من وسائل اختبار الانسان وامتحانه.

يقول القرآن: ﴿وَنَبلُوكُم بِالشَّرِّ وَالخَيْرِ﴾(٢) و يقول أيضاً: ﴿لَتُبلَوُنَّ فِي أَموَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾(٣)

المسألة الثالثة: يقول أحد الأصدقاء: ان الناس مقابل الحوادث أربعة أصناف:

جماعة بمجرد مواجهتهم للأحداث الصعبة يملأون الدنيا بالصراخ و يسيئونَ القول في عدل الله ولطفه وحكمته، وفي نظام الخلق والوجود. والقرآن يصف هؤلاء بقوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً﴾(٤).

الصنف الثاني: الأفراد الذين يواجهون مصاعب الحياة بروح الصبر

(١) استفدنا هذا المفهوم من الامام علي «ع» في نهج البلاغة...
(٢) سورة الأنبياء، آية (٣٥).
(٣) سورة آل عمران، آية (١٨٦).
(٤) سورة المعارج، آية (٢٠).

والتحمل و يقولون بقلوبهم وألسنتهم ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيهِ رَاجِعُون﴾(١)
الصنف الثالث: وهؤلاء أكثر رشداً من الصنف الثاني، فهم مضافاً الى الصبر والتحمل يشكرون الله على مصاعب الحياة ومصائبها، وفي زيارة عاشوراء نقرأ (اَللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ حَمْدَ الشَّاكِرِينَ لَكَ عَلى مُصَابِهِمْ)(٢).
فشكر أنصار الحسين«ع» هو المثل الذي يذكره الشاكر الزائر في زيارته لسيد الشهداء.

نعم هناك من الأبطال الذين يعتبرون الشهادة والمصاعب في سبيل الله أكبر أمنية لهم. وبمجرد وصولهم لأُمنيتهم يشكرون الله.
الصنف الرابع: وهو القسم الذي يمكن أن يكون أكثر رشدا حتى من الصنف الثالث.فهناك من الأفراد من لايقتصر حين مواجهة المصاعب على ان لايكون سيء الظن بعدل الله ولطفه. بل مضافاً الى الصبر والشكر يختار المصاعب و يسعى لها بعشق وشوق. والقرآن يلقي الضوء على بعض أنصار النبي الذين جاؤواالنبي«ص» وطلبوا منه ان يساعدهم ويجهزهم للمشاركة في الحرب، فقال لهم النبي انني لاأملك وسائل التجهيز(من سيف، وفرس) حتى أساعدكم على المشاركة في القتال. فرجع هؤلاء من النبي وهم يبكون لعدم استطاعتهم الوقوف الى جانب الجيش الاسلامي والتضحية بالنفس في سبيل الاسلام.(٣)
نعم يتفاوت ردّ فعل الناس مقابل الحوادث. فاذا قدمت لطفل رأس بَصَل حار فبمجرد ان يضعه بين أسنانه يصرخ و يقذف بالبصل

(١) سورة البقرة، آية (١٥٦).
(٢) جاء هذا المقطع ضمن جمل جاءت للقراءة أثناء السجود بعد الانتهاء من أداء الزيارة.
(٣) سورة التوبة، آية (٩٢).

بعيداً، وتسيل عيناه بالدموع، ولكن الأب يذهب وراء البصل الحار و يشتريه بالدراهم. خشونة الحياة ومصاعبها كذلك فواحد يفرّ منها وآخر يستقبلها.

المسألة الرابعة: قلنا ان الله عادل، وان المصاعب تأتي أحياناً للامتحان والاختبار لتبرز الاستعدادات الذاتية.

والآن لنرَ كيف نعمل ازاء الأحداث لنكون موفقين فيها. في هذا المجال كما في المجالات الأخرى نستكشف طريقنا في ظلّ القرآن الكريم.

والطرق التي يرسمها القرآن هنا تتمثل فيمايلي:

أـ امتلاك نظرة إلهية للعالم... والتعامل مع الأحداث على أساس هذه النظرة الإلهية. يتعرض القرآن لمدح الصابرين: هؤلاء بسبب امتلاكهم لنظرة إلهية للعالم يقولون في مواجهة المصاعب:

نحن ملك الله، وليس لنا استقلال في أنفسنا... وليس لنا دَين عليه، مجيئنا الى هذه الدنيا والنعم التي نعيش فيها، وكل وجودنا منه... ونحن لسنا سوى أمانته و وديعته... هذا من جهة، ومن جهة أخرى، الدنيا محل عبور، وليست مقام بقاء، فلا اعتراض لدينا على الرحيل منها.

سوف ننتقل بموتنا الى الله ولانفنى أبداً فنحن موجودون الآن وموجودون بعد الموت أيضاً. يتغير محل اقامتنا ونحن لانفنى... هذه الرؤ ية وهذه النظرة للعالم تهيء الانسان للتعامل السليم مع الأحداث. نعم تتلخص وتبرز هذه النظرة الى العالم في قوله تعالى:

﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾(١)

ب ـ الوعي بالسنن الإلهية:

(١) سورة البقرة، آية (١٥٦).

يقول القرآن: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوامِنْ قَبلِكُمْ مَسَّتْهُمُ البَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾(١)

هذه الآية تقول لنا ان أهل الحق على طول التاريخ واجهوا أصعب المشكلات والمتاعب واليوم وصل دوركم. إذن فليست الشدائد أمراً جديداً في حياة البشرية، ولستم الوحيدين في مواجهة هذه الشدائد. فهذه سنة وقانون إلهي لابدَّ من طيّه والمرور به.

يخاطب القرآن الرسول «ص» في أكثرمن مناسبة، و يدعوه لملاحظة تاريخ الأنبياء والأمم السابقة لكي لايحسب ان الأذى والمصاعب التي يمرّبهاامراًمحصور به.(٢)

نعم اذا ادرك الانسان ان الشدائد قانون وسنة، وانها عامة وشاملة أيضاً فسوف يستعد لمواجهتها بشكل أكبر.

فأنت في شهر رمضان تستطيع الصوم بسهولة كبيرة لأن الصوم في هذا الشهر عمل عام لكل الناس، ولكن حينما تريد ان تصوم في غير شهر رمضان، وحيث ليس هناك صائم فصومك بمفردك عمل صعب.

والقرآن حينما يصدر الأمر بالصوم يقول للمسلمين ان هذا الأمر ليس خاصاً بكم. بل هو عام ومفروض على جميع الأمم السالفة ﴿كُتِبَ عَلَيكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَىٰ الَّذِينَ مِنْ قَبلِكُمْ﴾(٣). نعم العلم بتاريخ الماضين له

(١) سورة البقرة آية (٢١٤).

(٢) لاحظ سائر الآيات التي جاءت على سياق ﴿وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ ابراهيمَ﴾، ﴿وَاذْكُرْ فِي الكتَابِ موسىٰ﴾ سورة مريم، آية (٤١-٥١) فهذه الآيات تشير الى السنة الإلهية على طول التاريخ، كما نقرأ في سورة الأحقاف آية (٣٥) ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾. فالصبر والمشكلات سنة الرسل والأنبياء.

(٢)سورة الكهف، آية (٦٨). ونقرأ في هذه السورة تفاصيل قصة المصاحبة التي حصلت بين الخضر وموسى

أثره الكبير على تحلي الانسان بالصبر.

كما ان العلم بأسرار المستقبل له أثره على صبر الانسان وتحمله، ولذا نجد الخضر«ع» يخاطب موسى «ع»: ﴿وَكَيفَ تَصبِرُ عَلىٰ ما لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبراً﴾(١).

الموضوع الآخر الذي له دور مؤثر في تحلي الانسان بالصبر هو الاطلاع على تجربة الصابرين. فالتعرف على صمود السابقين وصبرهم أحد السبل للاستعداد والنجاح في مواجهة الأحداث الصعبة. وقد تحدث القرآن كثيراً في هذا المجال وأوضح نماذج للصبر والاستقامة في الأمم السابقة. فأنبياء الله في مواجهة أشد ألوان الأذى يرتفع نداؤهم ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلىٰ ما آذَيْتُمُونا﴾(٢).

دعى فرعون السحرة لمواجهة موسى «ع» وأبطال ادعائه بالنبوة، و بعد ان قابلوا موسى «ع» أدركوا حقانية وصدق دعواه، ودخلوا في الايمان. عند ذاك هددهم فرعون... فقالوا مقابل هذه التهديدات: ﴿فَاقْضِ ما أنتَ قاضٍ﴾(٣).

٣ــ التوجه لله واليقين بحضوره في كل آن، حيث يسمع كلامي و يرى عملي و ييسر الصعاب. فالله يقول لموسى وهارون ﴿إنَّني مَعَكُما أسْمَعُ وَأرىٰ﴾(٤)، والله يأمر نوحاً ليصنع السفينة تحت نظر الله ورعايته ﴿وَاصْنَعِ الفُلْكَ بِأعْيُنِنا﴾(٥). و بعد ان أخذ نوح «ع» بصنع السفينة استهزأ به

عليهما السلام، وخلاصتها: ان الخضر قال لموسى انه لايستطيع تحمل الأعمال الخارقة التي تصدر منه وليس لموسى «ع» معرفة باسرارها. لكن موسى «ع» اجابه بأنه سوف يصبر و يتحمل انشاء الله. وقد أثبتت التجربة ان عدم اطلاع موسى «ع» بالأسرار التي تحيط بأفعال الخضر أدى به الى التساؤل وعدم الصبر.

(١) سورة الكهف آية (٦٨).

(٢) سورة ابراهيم، آية (١٢).

(٣) سورة طه، آية (٧٢).

(٤) سورة طه، آية (٤٦).

(٥) سورة هود، آية (٣٧).

قومه، وقالوا: ألم تدّع النبوة، فكيف أصبحت نجاراً!.

الاّ ان الأمر الذي جعل نوحاً «ع» يقاوم هذه الحرب النفسية هو كلام الله له ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾(١)

أجل فالايمان والتوجه الى القدرة المطلقة يحيي روح الصمود والمقاومة عند الانسان.

٤ــ الأمر الرابع الذي يمكنه احياء روح الصمود أمام المشكلات هو التوجه للأجر والثواب. اذ ان الصبر على المكاره والصعاب له ا دبر الأجر والثواب الأخروي. ونشاهد الوعد بهذا الامتياز في كثيرمن آيات القرآن.

٥ــ القوة الخامسة التي يمكن ان تكون مموّناً للانسان بالمقاومة والصمود هي الصلاة والدعاء والصبر ﴿وَٱسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾(٢)

خلاصة هذه الفقرة: ان الله عادل، والمصاعب والعقبات التي تواجهنا تمثل مواد امتحان واختبار من قبل الله لنا. والبشر في مواجهة هذه الاختبارات أربعة أصناف. واتضحت لنا من خلال هذه الفقرة الطرق والأساليب التي تلهمنا السداد والموفقية في هذه الاختبارات.

(١) سورة الطور، آية (٤٨).

(٢) سورة البقرة، آية (٤٥)، (١٥٣) وفي سورة الأعراف جاءت الآية بهذا الشكل ٢(وٱسْتَعِينُوا بِاللّهِ)، ومن المعروف عن الامام علي «ع» انه حينما يصطدم بمصيبة وحادث صعب يعكف على الصلاة. فتحول الصلاة الضعيف الى قوي باتصاله بالقوة التي لا تنتهي وتنزل الطمأنينة على القلوب ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ سورة الرعد، آية (٢٨).

الفقرة الخامسة

تُطرح الكثير من الشبهات في مجال العدل الإلهي بسبب سوء الفهم والاستنتاجات الخاطئة التي ننتهي إليها، ونأخذ بعد ذلك بالاشكال والاعتراض على الله.

مثلاً، نتخيل ان الموت يعني الفناء ونستشكل، إلهي لماذا أفنيت (س).

نتخيل ان الدنيا محل بقاء وخلود فنقول: لماذا اذهب السيل والمرض أولئك الناس؟

نتخيل ان الدنيا محل رفاه فنقول لأي سبب وجدت هذه المصاعب؟

ومثلنا في هذه الاشكالات مثل الشخص الذي يرد الى قاعة المحاضرات ثم يأخذ بالاعتراض، أين الشاي؟ لماذا لم يأتوا بالطعام؟ لِمَ لَمْ يكن هنا سرير للنوم؟... الخ وكل هذه الاشكالات والاستفهامات جاءت بسبب خيال باطل وغير صحيح وهو ان هذا الشخص حسب انه دخل الى قاعة الطعام. ونحن اذا استطعنا ان نخرجه من هذا الخيال ونقول له هنا قاعة محاضرات ودرس وليست قاعة طعام

واستقبال، حينئذ سوف يغمض النظر عن كل اشكالاته و يقدم اعتذاره.

ونحن لابدّ لنا من معرفة الحياة الدنيا على حقيقتها، كما لابدّ لنا من الاطلاع على هدف وجودها، وابداعها من قبل الله. وفي هذه الصورة سوف ترتفع اشكالاتنا بشكل طبيعي.

لابدّ لنا من التصديق في ان الدنيا ليست محل بقاء. بل هي نقطة عبور، اذ اننا لم نأت لنبقى بل لنذهب، وعليه فمن أي باب لابدّ ان نذهب عن طريق السيل أو الزلزلة أو شيء آخر، لابدّ ان نذهب... وحينما نصدق بهذه الحقيقة سوف ترتفع الاشكالات السابقة.

مثال

بائع الأواني الذي عرض آنيته على دكة الدكان، وكانت الأواني بشكل مقلوب بعضها على بعض.

هنا جاء أحد المشترين وأخذ يحدّق بإلحاح بالأواني، ثم وضع يده عليها، وقال للبائع: لأي سبب كانت هذه الأواني مغلقة لافتحة لها، ثم رفع أحدها وهو على حالته المقلوبة وهو يقول: هذا الاناء ليس له قعر أيضاً؟

ضحك البائع وأخذ منه الاناء ووضعه على حالته الاعتيادية وقال له: هذا الإناء له قعر وله فتحة أيضاً...

فالكثير من اعتراضاتنا على مبدع الخلق بسبب رؤيتنا المنحرفة واستنتاجنا الخاطيء، فالشخص الذي ينظر بنظارة حمراء سيرى حتما كل (شلغم) ويحسبه (شوندر).

وخلاصة الكلام هي: ان مجموعة من اشكالاتنا بسبب التفسير الخاطىء للعالم والانسان وهدف وجوده، فنتخيل ان الدنيا حقل نزهة واستمتاع، فنقول: لماذا هذه العقبات؟
في حال ان الدنيا ميدان رشد وحقل زرع، ومن المحتم ان يكون ميدان الرشد والمزرعة محل جهد وعرق ومتاعب.

تفاوت القابليات أساس بناء المجتمع

اذا وافقنا على بعض النقاط فسوف نتعرف على الدور المهم الذي تلعبه القابليات المتنوعة في حياة الانسان:

النقطة الأولى: ان الانسان كائن اجتماعي (١)، بمعنى ان الانسان ليس كأعشاب النباتات تنمو بنفسها وتيبس بنفسها ولاارتباط بينها، بعضها بالبعض.

النقطة الثانية: ان الحياة الاجتماعية لايمكن ادامتها الآ عن طريق التعاون. ومن الواضح ان التعاون ليس له مفهوم الآ في صورة وجود التفاوت في القابليات. فحينما يكون كل شخص متخصصاً في حقل وماهراً فيه، وفي مجالات أخرى ليست لديه معرفة ومهارة، فهذا التفاوت في القدرات والأذواق والقابليات سبب لبروز الحاجة. والحاجة عامل ظهور الحياة الاجتماعية لتبادل الخبرات وسد الحاجات بشكل متبادل. وعلى هذا الأساس فالاختلاف في القابليات يخلق الحاجة والحاجات تبني الحياة الاجتماعية. ورشد الانسان تحت ظل الحياة في مجتمع.

دور المصاعب في بناء الشخصية

يقول القرآن ان مواجهة الأحداث المرة، ومظاهر الرعب والخوف جرس ايقاظ الانسان. فحياة الانسان على منوال واحد تسوس البدن وتنخر شخصية الانسان.

يقال ان الشارع اذا كان مستقيماً وخالياً من الزحام فسائق السيارة يأتيه النعاس.

في الحديث الشريف نقرأ عن الصادق «ع»: (ان أشدّ الناسِ بلاءً الأنبياء ثمَّ الذين يلونهم ثمَّ الأمثل فالأمثل) (١)

وفي الحديث نقرأ أيضاً، إن الله يبتلي عباده المؤمنين بأشكال المصاعب والبلاء ليصلب عودهم وليربيهم بهذه الوسيلة مثل ما تربي الأمّ ولدها بارضاعه الحليب.

المصاعب يمكن ان تؤدي دورها في حياة الانسان. لا حينما تكون حيّة وقائمة فحسب. بل الالتفات الى العقبات والمصاعب الماضية واستذكارها له أثر أيضاً في حياة الانسان. فالقرآن يخاطب الرسول «ص»... فليكن اليتم والفقر السابق عاملاً تربوياً في نفسك يارسول اللّه لترعى الأيتام والفقرء، (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوىٰ... وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنىٰ) (٢)

إذن، فالله يجد في استذكار الماضي الصعب أثراً على حركة الانسان ورشده وتربيته.

القرآن بصراحة ووضوح يقول: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذنَاهُمْ

(١) بحار الأنوار ج (٨١)، ص (١٩٥).
(٢) سورة الضحى، آية (٦-٨).

بِالبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ)(١) وفي سورة الأعراف نقرأ أيضاً في الآية (٩٤) نظير هذا المضمون وهو ان أحد آثار وفوائد البأساء والمتاعب هو التوجه الى الله.

وفي الحديث نقرأ (لَولا ثَلاثَة ما طاطأ رأس ابن آدم، الفقر والموت والمرض)(٢)

حقاً ان الرفاه والراحة تصنع من الانسان موجوداً بلاارادة. يقول: (ألا وانَّ الشجرةَ البرّيّة أصلبُ عوداً)(٣)

ويمكن ان يكون المقصود من قوله «(ع)»: (مامِن بليّةٍ إلاّ وللهِ فيها نعمة تحيطُ بها)(٤) هو ان البلايا تدفعنا للارتباط بالله من جهة، ومن جهة أخرى تدفع أذهاننا للتفكير والعمل.

وعلى هذا الأساس فالضغط الذي تولده البلايا والمتاعب على الجسم يُعوض بالقوة التي تحصل عليها الروح، نظير الشخص الذي يبذل جهداً في الاستعداد لضيافة شخص فهو يبذل من قوته الجسمية، ومن وقته، إلاّ ان روح الكرم والكمال تنمو فيه. وهذا هو مقصودنا من ان البلاء له أثر في بناء ورشد الشخصية.

نقرأ في حديث:

(البلاء للظالم أدبٌ وللمؤمنِ امتحانٌ وللأولياء درجة)(٥) ونستطيع ان نقرب هذا الحديث بالمثال التالي:

(١) سورة الأنعام، آية (٤٢).
(٢) التوحيد للشيخ الصدوق، ص(٤٠٢).
(٣) نهج البلاغة، الكتاب (٤٥).
(٤) بحار الأنوار، ج(٧٨)، ص(٣٧٤).
(٥) بحار الأنوار، ج(٨١)، ص(١٠٨).

هناك ثلاثة عوامل في معسكرات الجيش تدفع لاستخدام الضغط على الجنود:

١ــ أحياناً يرتكب جندي ما مخالفة فيعاقب باعطائه بعض التدريبات أو الأعمال الشاقة، وهذا مصداق: «البلاء للظالم أدب».

٢ــ أحياناً يراد للجندي ان يرشد و ينمو استعداده وابتكاره، وهذا مصداق لقوله: (وللمؤمن امتحان).

٣ــ أحياناً أخرى يراد منح الترفيع واعطاء المركز أو منح الاجازة فهنا توكل للجندي بعض الأعمال الصعبة ليؤديها و يستحق الرتبة او الاجازة.

على هذا الأساس فعطايا الله ليست دليلاً على عزة وشرف وصلاح الشخص الذي يعطى. فأحياناً يطوق أفضل الناس وأطهرهم بأصعب المتاعب لينتهوا من بين هذه المتاعب للخشوع الى الله وصعود مراتب الكمال.

لايصل العطر المرغوب أحياناً الى مشامنا ما لم نحرق رأس العود. وهذه التحولات التي تطرأ على الوجود رمز التكامل في تمام الموجودات.

فالفلزات ما لم تدخل الى افران الاذابة لايمكن تصفيتها. والأرض ما لم تحرث وتقلب وجهاً على ظهر لايمكن اعدادها للزرع.

العلف ما لم تمزقه أسنان الخروف لايصير لحماً، ولحم الخروف ما لم يطبخ بالنار لايصير مهيئاً لتغذية الانسان و بناء خلايا الجسم البشري.

على هذا الأساس فالانسان ما لم يتصارع مع البلايا الصعبة في موكب الوجود، و يصقل روحه ويهذبها لايصل الى مرحلة التضرع والخشوع، و بالتالي يُحرم من بلوغ مجموعة من الكمالات. فانسانيتنا

لا تتحقق بالنوم والأكل اذ ان الحيوان شريكلنا في هذه الأعمال. بل انسانيتنا تتحقق بفعل امتلاكنا لمجموعة كمالات وصفات من قبيل التوجه لله، والحب، والايثار، والحلم. وغير خفي ان نمو ورشد الصفات لايتحقق بدون الدخول في معركة مع المصاعب والمشكلات الحياتية.

دور المصاعب في الابداع الانساني

يندر ان نجد اختراعاً ظهر للوجود دون حاجة وصراع. فما لم تكن هناك آلام وأمراض فلا وجود لعلم الصيدلة بكل فروعه. وما لم يكن البرد والحرّ فلاوجود لوسائل التكييف.

أجل فقد حصلت كل العلوم والصناعات في سائر فروع المعرفة على التقدم والازدهار تحت ظلّ الحاجات وبحكم الصراع مع خشونة الحياة.

وهذا أمر واقعي لايحتاج الى مزيد توضيح واستدلال.

الفقرة السادسة

لايحق للانسان ان ينظر الى الجوانب السلبية في أحكامه على الأشياء. يقول أحد العلماء: كلّما وصل الى يدي الليمون الحامض فلاأتلفه بسبب حموضته. بل أصنع من هذه الحموضة شراباً ليطفا.

وهذه حقيقة، فلابدّ من الاستفادة من العناصر الايجابية التي توجد في الأشياء.

يوسف «ع» ألقاه أخوته في البئر ثم أخرجه جماعة من البئر و باعوه عبداً لجماعة، ثم في مصر اتهمته امرأة العزيز بتهم غير لائقة، وألقوه في السجن... و بعد كل المعاناة صار يوسف عزيز مصر.

و بعد مدة من الزمن التقى يوسف بأبيه فسأله أبوه: ماذا فعل بك أخوتك؟

فقال له يوسف: لا تسأل عمّا فعل اخوتي بل اسأل عن لطف الله معي، وكيف حفظني وأنجاني من المؤامرة على حياتي ومن العبودية والسجن والتهمة، ثم جعلني سلطاناً على الجميع، وهذا هو منطق الانسان الذي لايلتفت الى الجهات السلبية على طول الخط، بل يأخذ في حسابه الجوانب الايجابية أيضاً.

وفي هذا المجال حديث ينقل عن الامام العسكري يحسن ذكره اذ يقول «ع»: (مامِنْ بليّةٍ إلاّ ولله فيها نعمةٌ تحيط بها).(١)

وهنا ننقل لكم مثالاً عن أحد العلماء يوضح ان اعتراضات البعض على عدل الله تنشأ نتيجة النظرة الى الوقائع والأحداث من زاو ية واحدة فقط، وهذا هو المثال:

تشرق الشمس على الكرة الارضية فيرتفع من المحيطات والبحار بخار الماء، ومن هذه الأبخرة تتولد الغيوم، فتهطل الأمطار. وجاذبية الأرض تجر المطر نحو الأرض. و بعد نزول الأمطار تتشكل جداول ووديان تجري منها الأنهار، ثم يبني الانسان السدود لتجميع المياه والسيطرة عليها في سبيل توليد الكهر باء وتطو ير الزراعة.

فهنا اذا وضع شخص ما يده جهلاً او تساهلاً على سلك الكهر باء فمات على اثر ذلك، أو اذا هُدم بيت النمل الواقع في طريق حراثة الأرض الزراعية، فهل تسمح للانسان ان يلعن أديسون بسبب اختراعه للكهر باء ووضعها في خدمة الانسان نتيجة موت ذلك الشخص؟ وهل تسمح للنملة ان تعترض؟ هل ان النملة لها الحق في الهتاف ضد الشمس والمحيطات والغيوم والأمطار والانسان والفلاح وتقول الموت لهؤلاء الذين خر بوا بيتي؟

ألم تكن هذه الاعتراضات ناشئة من نوع من حب الذات؟ وألم تكن مثل هذه الاعتراضات ناشئة عن النظر الى القضايا والأحداث من زاو ية واحدة ومركز واحد وهي المنافع الشخصية؟

ولسان الحال يقول لابدَّ ان يكون عالم الوجود بأكمله متحركاً وفق

(١) بحار المجلد ٧٨ صفحه (٣٧٤).

منافعي الشخصية وفي سبيل رفاهي. و بالطبع منافعي الآنيّة هذا اليوم. وأي مشكلةٍ لاأريدها حتى ولوكانت نافعة لي في غدي، اذ لااقتنع الاّ بالحصول على النفع الفوري!!!

بيان آخر

البيان الآخر لايضاح عدل الله مع أخذ الكوارث والمصاعب بنظر الاعتبار هو: اننا في عالم الوجود لابدَّ ان نختار احدى النظريتين اما القبول بوجود حساب ونظام لهذا العالم او نؤمن بالفوضى والعبثية.

واذا آمنا بوجود نظام وتخطيط في عالم الوجود فلابدَّ من القبول بوقوع الكوارث والمصاعب والاّ فسوف نذهب صوب الفوضو ية، توضيح ذلك:

اذا اخذت أي حادثة من الحوادث القاسية، وحللتها فسوف تجد ان هناك تخطيطاً ونظاماً دقيقاً جاء بها لعالم الوجود، وقبول هذا الحساب والنظام يعادل تحمل هذه الحوادث القاسية. مثلاً: يسقط سقف البيت على رؤوس أصحابه. فتجلس للتحليل والحساب وتتساءل، ما هو عامل هذا الهدم والخراب؟ يتبيَّن:

١ــ ان كرة أطفال الحي قفزت أثناء لعبهم و وقعت على سطح الجيران.

٢ــ أخذت الكرة تتحرك على السطح حتى وصلت الى فتحة المرزاب فوقفت هناك وسدت طريق خروج الماء من السطح.

٣ــ هطلت الأمطار فتجمع الماء فوق السقف الطيني وصاحب الدار نائم لايدري ماذا يجري.

٤ــ ماء المطر المتجمع على السقف اثّر أثره ونفذ الى طابوق (اللبن) الذي يتكون منه السقف.

٥ــ نام صاحب الدار تحت السقف مرتاح البال، لكن طابوق السقف بعد تجمع الماء عليه صار ثقيلاً فسقط بكامله على الأرض ودمَّر عدداً من الذين كانوا تحته.

وفق الحساب والنظام لابدَّ ان تقع هذه الحوادث، لأن كل المفردات المشتركة في وقوع الحادث لها حسابها ونظامها، الكرة وحركتها، انحدار السقف، ضيق فوهة المرزاب، ثقل الماء، مقاومة الطين، الضغط والفاصلة بين السقف ورووس الأفراد الذين يعيشون تحت السقف، بناء عظام الجسم.

حينئذ فاذا كنت من أنصار نظرية النظام والتخطيط في عالم الوجود فلابدَّ ان تقبل هذه الكوارث، اذ لوأردت عدم وقوع هذه الحوادث فلابدَّ من وقوع الفوضى في العالم، ولابدَّ من الغاء كل النظم والقوانين التي أشرنا الى قيام الحادثة على أساسها، ماذا يكون لوحصل مايلي ؟ :-

١ــ ان تثقل الكرة الى الدرجة التي تمنعها من الارتفاع الى السقف. وهذا الغاء لقانون الجاذبية.

٢ــ او ان تضعف قوة الأطفال على دفع الكرة فيخرجوا عن وضعهم الطبيعي.

٣ــ او ان تتسع فوهة المرزاب حتى تخرج الكرة منه.

٤ــ او تعطيل نظام المطر والقوانين المرتبطة به في تلك الليلة، لكي نحول دون سقوط الأمطار.

٥ــ او تعطيل خواص الماء الطبيعية لمنع تأثيره على الطين.

٦ــ او تحويل الطابوق اللبني الى حجر لكي نمنع من نفوذ الماء اليه.

٧ــ او يتوقف قانون الجاذبية عن العمل في تلك الليلة لكي لايجر السقف نحو الأرض.

٨ــ او تبديل عظام وجسم الأفراد الذين ناموا تحت السقف بحيث تأتي على صورة فولاذ فلايؤثر عليها سقوط السقف، او تحويل السقف الثقيل الى شيء خفيف كالقطن.

تلاحظ انك اذا كنت من أنصار نظرية النظام والحساب وتفكر في دائرة قانون العلية، فالكوارث ملازمة لحياة طبيعية. واذا كان القرار قيام العالم على نظام فلابدّ من وقوع الحوادث القاسية، والغاء حادثة من الحوادث المؤلمة يستدعي الغاء عشرات القوانين التي أودعتها يد الله الحكيمة في هذا العالم والتحول الى الفوضى التي هي بنفسها أكبر بلاء...

إلفات نظر

في سياق بحث العدل الإلهي وتفاوت الاستعدادات يلزم ان نلتفت الى نكتة في هذا المجال وهي، ان هناك أفراداً يرون ان استعداداتهم ضعيفة، في حين يمكن ان يكون لديهم في مجالات كثيرة استعداد، وذوق. فهناك أفراد لأجل رغبة عابرة أو مركز اجتماعي أو مالي يتجهون الى عمل أو فن، ولكن لايحالفهم التوفيق ويجدون أنفسهم فاشلين على أثر هذا الفشل يتعقدون و يرون الناس بعين الحقد والكراهية ويحسبون ان الناس أخذت تحتقرهم فيكفرون بالكون والخلق. في الوقت الذي يمكن ان يكونوا مبتكرين ومبدعين في مجالات واختصاصات أخرى.
يقال: ان والد دارون كان طبيباً وكان يرغب أن يكون ابنه طبيباً مثله، لكن دارون لم يوفق في مجال الطب، فتأثر أبوه على اثر فشله فدفعه لدراسة العلوم الدينية ليكون قساً نافعاً للمسيحية ولكن دارون لم يوفق في هذا المجال أيضاً.

و بعد هذين الفشلين دخل دارون مجال العلوم الطبيعية وصار بعد ذلك صاحب نظرية وابتكار. (١)

يخاطبنا أحد الأحاديث الشريفة فيقول اذا فشلت في عمل معين فعجّل في تغيير شغلك او حرفتك فعسى ان تكون صاحب امتياز وكمال في مجال آخر.

وللامام علي «ع» في نهج البلاغة لفتة جميلة تؤكد على ان الى جانب كل كمال عند الانسان هناك نقص فالبعض تراه طويل القامة لكن همّته ضعيفة (ماد القامةِ قصير الهمّةِ)، (زاكي العملِ قبيح المنظر)(٢) فالمظهر الرديء قد يصاحبه كمال العمل الحسن. على هذا الأساس فليس كل ناجح في مجال من مجالات الحياة ناجحاً في كل المجالات، وليس كل مَن فشل في مجال فاشلاً في كل المجالات. فمن الممكن ان يشتغل الانسان في مجال من المجالات بحكم الرقابة والفرض (مع انه ليس لديه الاستعداد الروحي والذوق في هذا المجال) فيفشل ثم يشرع بعد ذلك بالاعتراض على العدل الإلهي، لماذا فشلت؟ ولماذا نجح فلان؟...، بينما اذا دخل مجالاً يتناسب مع استعداده وذوقه فمن الممكن ان ينجح بشكل كبير. إذن يمكن لك ان تقول: ان الشخص يفشل في مجال من مجالات العمل نتيجة لعدم معرفته لاستعداداته وذوقه في هذا المجال، اما الأفراد الذين يتصورون انهم موفقون اذا أمعنوا النظر في نقاط الضعف واشكال الفشل والنقص فسوف يجدونها الى جانب موفقيتهم.

في خاتمة مسألة العدل الإلهي تطرح عدة أسئلة أخرى:

(١) مع امكان وقوع صاحب النظرية في أخطاء علمية لكن ذلك لا يمنع من كونه نابغاً ومبتكراً في مجاله.

(٢) نهج البلاغه فيض الاسلام صفحه (٧٢١ و٧٢٢).

السؤال الأول: هل ان خلق أبليس منسجم مع العدل والحكمة الإلهية؟

ألم يكن الهدف من خلق الله للانسان هو العبادة، فخلق موجود مثل أبليس مغاير لهذا الهدف؟ ولو اغمضنا النظر عن هذا الاشكال، فالانسان مع كثير من الجهد يؤدي عملاً ما غير ان هذا العمل -بسبب الذنوب والوسوسة الشيطانية- يفسد بأحد طرق ثلاثة، أما في أول العمل بسبب الرياء فلم يتصف بالصفة الإلهية. أو في وسط العمل حينما يعجب الانسان بعمله وانجازه، أو بعد نهاية العمل بواسطة مجموعة من الذنوب التي تحبط كل الأعمال الصالحة وتقذف بها في الفضاء. وفي ضوء هذا هل ان خلق الشيطان منسجم مع عدل الله وحكمته؟

الجواب: ان الوجود والامكانات التي أعطاها الله لابليس كانت كلها خيراً، وقد كان عابداً لله زمناً طويلاً(١) وسوء ابليس بسبب عصيانه لأمر الله. وأسوأ من ذنب العصيان هذا هو ان ابليس لم يعتذر ولم يتب ولم يندم، و بغرور هائل اعتبر أمر الله له بالسجود خطأً وقال ان هذا الأمر غير صحيح لأن أصلي من نار وهو أفضل من أصل آدم الذي خلقته من تراب. إذن فعصيان الشيطان وغروره مسألة ترتبط بشخص الشيطان ولاعلاقة لها بالله وعدله.

تبقى مسألة وسوسة الشيطان للانسان، وهذه الوسوسة ليست بالشكل الذي تدفع الانسان جبراً لارتكاب الذنب. و وسوسة الشيطان بالنسبة للانسان بمستوى دعوة الى العمل ولا تسلب هذه الوساوس

(١) الامام علي «ع» في نهج البلاغة يقول: (ان ابليس عبدالله (٦٠٠٠) سنة. و بطبيعة الحال نحن لانعلم هل ان هذه السنة من السنين الاعتيادية التي نعرفها ونَعُدُّ أيامها بـ(٣٦٥) يوماً أو من السنين التي يقول عنها القرآن ان يومها (٥٠,٠٠٠) سنة. راجع نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح، ص (٢٨٧).

ارادتنا. ومن حيث الأساس فوساوس الشيطان لها جانب ايجابي وهو ان رشدنا مرتبط بمخالفة الهوى الذاتي ووساوس الشيطان.فاذا كان هناك شخص أخـــرس ولم يغتب أحداً فلاقيمة لعدم اغتيابه.

واذا لم تكن هناك وسوسة وهوى فصلاح الانسان لاقيمة له. فنحن نعطي لقب (البطل) الى الشخص الذي يرفع الأثقال على يديه لأن عمله هذا مخالف لقانون جاذبية الأرض للأثقال.

نعم علامة البطولة هي في مخالفة الجذب والجاذبية، الرسول «ص» يقول: اذا جرّك غضبك الى عمل سوء واستطعت ضبط نفسك فأنت في ميدان الانسانية والمعاني قد وصلت الى مقام البطولة. ومع هذا فلوافترضنا ان شخصاً قاده سوء اختياره للخضوع أمام وسوسة الشيطان الاّ ان طريق التوبة والاعتذار مفتوح و يستطيع ان يتخذ القرار النهائي في التوبة.

مضافاً الى ذلك فاذا كنا وحدنا وكانت وسوسة الشيطان فهنا مجال للاشكال. اما اذا كانت مقابل وساوسه دعوة الأنبياء العظام وهداية العقل أيضاً التي يمكن ان تكون أفضل مساعد لنا في الحركة على الطريق المستقيم.

فدعوة الأنبياء وهداية العقل من جهة ومن جهة أخرى وسوسة الشيطان التي تأتي اثر نقاط ضعفنا وعدم وعينا.

فالشيطان لايجرنا هو لنفسه. بل نحن الذين نجره لاغوائنا ولذا يقول في قصة العالم الذي يعبد هواه:

(وَٱتْلُ عَلَيهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِي آتَيناهُ آيَاتِنا فَانْسَلَخَ مِنها فَأتبَعَهُ الشَّيطانُ فَكانَ مِنَ الغَاوِينَ)(١)

(١) سورة الأعراف، آية (١٧٥).

من هذه الآية يتضح ان الشيطان يحضر الى جوار الأفراد الذين هم أنفسهم بأعمالهم يعلنون استعدادهم. فالآية نزلت بحق (بلعم بن باعورا) وهو رجل من بني اسرائيل كان صالحاً وقد منَّ الله عليه بعلوم يستجاب بها الدعاء. لكن جذبه حبّ المقام والجاه للميل الى بلاط فرعون فانسلخ من آيات الله التي علمها الله إيّاه وثمّ جاء الشيطان وراءه.

ونقرأ في آية أخرى قوله تعالى: (إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ)(١) فالشيطان لايتوجه الاّ بعد ان يميل اليه الشخص و يتبعه و يتولاه ولذا يقول القرآن الكريم في آية أخرى: (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)(٢)

وطبعاً ليس المقصود بالسلطان في الآية ان الشيطان لايستطيع حتى الوسوسة بل لعل المراد هو ان المؤمن الحق يعرف الشيطان فمجرد مواجهته لوساوسه يتذكر و يتوجه قبل الوقوع تحت نفوذه وسيطرته. والقرآن يصف طريقة تعامل المؤمنين مع الشيطان بقوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا)(٣)

إذن فعلاقة المؤمن بالشيطان علاقة مواجهة، أما علاقة الفاسق بالشيطان فعلاقة رفقة وصداقة (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ)(٤)

وخلاصة الكلام هنا هي ان الشيطان موجود قادر على الاستفادة من امكاناته بأفضل وجه ولكن بسوء اختياره وتكبّره هدم هذه الامكانات

(١) سورة النحل، آية (١٠٠).
(٢) سورة النحل، آية (٩٩).
(٣) سورة الأعراف، آية (٢٠١).
(٤) سورة الزخرف، آية (٣٦).

واختار طريق الفساد، وهذا امر مرتبط به. ووساوس الشيطان لا تسبب سلب ارادة الانسان واجباره على الانحراف... وباب التوبة مفتوح للأفراد الذين أغراهم الشيطان. كما ان التهيؤ والاستعداد لسيطرة الشيطان مسألة بأيدينا...

ومع ملاحظة هذه الأفكار لايمكن القول بأن خلق الشيطان منافٍ للعدالة الإلهية...

السؤال الثاني: مسألة الأفراد ناقصي الخلقة من أكثر الموارد اثارة للاستفهام في بحث العدل الإلهي فيقال: اذا كان الله عادلاً فلِمَ يخلق هذا العدد من المشوهين الذين يقضون عمراً في ألم و يكونون باستمرار مورد اهانة وتحقير الناس؟

الجواب: يمكن ان نستفيد الاجابة على هذا الاستفهام من الأبحاث السابقة. فهناك قلنا ان عامل وجود الكثير من المتاعب هو نحن أنفسنا.

الأفراد المشوهون هم من مصاديق التسامح والاهمال الذي نرتكبه، فالوالدان لابدَّ لهما من مراعاة مجموعة قيود صحية ونفسية وبحكم تساهلهما جاء الوليد مشوهاً.

ولحسن الحظ نجد أحاديث القدوة من أهل البيت العصمة «ع» قد أكدت بشكل كامل على رعاية تلك القيود. فالجماع في حالة الحيض والسكر وفي حالة التسمم او الغضب له آثار سيئة على الطفل الذي يتولد ذلك الوقت. آملين من اخواتنا واخواننا الذين يشرفون على الزواج ان يدرسوا الوظائف والحقوق الاسلامية داخل العائلة وتوجيهات الاسلام لتربية الأبناء ومسائل الجماع ومايتعلق بها من أحكام اسلامية.

وهنا يطرح سؤال نفسه:

ولكن ما هو ذنب الطفل؟

جوابنا على هذا السؤال يتلخص في جملة واحدة وهي: ما هو تقصير الله؟ فالطفل هنا لاذنب له والله أيضاً منزه عن التقصير. و ينحصر التقصير في الوالدين فقط ولكن الألم والمتاعب تقع على رأس الطفل المسكين.

وهذا الوضع ليس خاصاً بحالة الطفل المشوه بل شامل لكل ظلم يقع في هذا العالم. فالتقصير من الظالم،والمظلوم هو الذي يتحمل آلام ومتاعب الظلم.

لوضربتك بحجر وجرحتُ جبهتك، فهنا أنت لستَ مقصراً، وليس الله مقصراً. بل الذنب منّي أنا الذي ضربتُك بالحجر. ولكنك أنت الذي تتحمل متاعب هذا الذنب. إذن فالسؤال الذي يقول: الوالدان أذنبا فما هو ذنب الطفل؟ هذا السؤال نظير التساؤل في سائر أنواع الظلم اذ يقال: الظالم أذنب فما هو ذنب المظلوم؟

لوأعطيت خبازاً عجيناً مراً او مالحاً فأعطاك خبزاً مراً او مالحاً، فهل لك الحقّ باتهام الخباز بالظلم؟

لوبذرت في الأرض بذور الرقّي فحصلت على رقّي على اثر ذلك فهل يبقى مجال للاعتراض؟

لواتجهت في سيرك نحو الجنوب فهل لك ان تتوقع الوصول الى المدن الشمالية؟

كل غذاء وكل حالة نفسية لها آثارها الطبيعية والذاتية، وإلغاء هذه الآثار يستلزم قلب تمام القوانين الطبيعية للموجودات. وعلى هذا فكل بذرة وكل نطفة لها نتيجتها ومن الخطأ ان نتوقع خلاف تلك النتيجة الطبيعية.

وقد يتساءل و يقال: ان تقصير الوالدين كان لحظة بينما يبقى عــــذاب

الطفل المشوه دائمياً. وهذا أيضاً ليس مرتبطاً بتقصير الله سبحانه. بل ظاهرة طبيعية فأنت حينما تأخذ سكيناً وتمزق بها عينيك في دقيقة واحدة فسوف تتحول الى أعمى ولمدة سبعين سنة، فتقصير دقيقة بقيت آثاره دائمية. وكذلك في ثواني لورميت الزجاج بحجر فسوف يبقى هذا الزجاج أجزاء الى الأبد. والقضايا النفسية على هذا المنوال أيضاً، فلحظة اساءة لصديق تهدم الصداقة طول العمر. ولحظة طلب معذرة تلغي وتغطي على كدورات أعوام متعددة. وفي الحلقة السابقة من هذه الدروس ضربت مثلاً عن مراعاة الوقاية الصحية طول العمر ولكن ملعقة سم تبطل مفعول كل تلك الرعاية.

وهنا يطرح سؤال آخر نفسه وهو، ان الوالدين لم يكونا على علم بأن ظروفاً وشروطاً معينة لها آثار سيئة على الوليد؟

الجواب: ان علم وعدم علم الأم والأب لايؤثر على الخواص الطبيعية للأشياء، فنحن اذا لم نكن على علم بأن هذا السلك فيه كهرباء، فوضعنا يدنا عليه فسوف تقتلنا الكهرباء حتماً.

والكهرباء لا تنتظر لترى اذا لم نكن على علم فتتركنا. نحن اذا أخذنا قدح خمر وكنا نتصوره ماء فشربناه حينئذ سوف نسكر لأن السكر من الآثار الطبيعية للخمر سواء تخيلناه ماءً او شيئاً آخر.

إذن فعدم تقصير الأبوين يعني انهم لم يرتكبا ذنباً عمدياً ولكن الآثار الطبيعية والخارجية تبقى محفوظة في موقعها.

السؤال الأخير يتعلق باهانة الناس للأفراد المشوهين، وغير خفي ان اهانة الناس ترتبط فقط بطبيعة تربيتهم وثقافتهم ولا ترتبط بالآخرين ولاباالله. فلاينبغي لنا ان ننظر الى الأفراد المشوهين بعين الإهانة والتحقير وقد أكدت وصايا الاسلام على هذا الموضوع بشكل خاص. وآخر مسألة

ترتبط بمسؤولية الدولة وواجبها في تأمين حياة هؤلاء بشكل محترم، بـاعداد العمل المناسب لكل فرد من هؤلاء حسب اختلاف أذواقهم واستعداداتهم وامكانياتهم، مع تهيئة الدخل المناسب لرفاه هؤلاء.

وعن هذا الطريق يمكن تلافي الكثير من المتاعب والآلام التي يعاني منها هؤلاء الأخوة والأخوات.

وهنا ننهي البحث في هذا القسم ولي رجاء من القراء الأعزاء:

الرجاء

لابدّ لنا في مسائل العقيدة والفكر (التي تعني أصول الدين وأسس التفكير الاسلامي العامة التي نأخذها بالاستدلال سواء كان عميقاً او اعتيادياً) من الحصول على الوضوح الكامل، ورفع كل تردد وشك. وحينما تعرض في أذهانكم أي شبهة فاتصلوا عاجلاً بأحد العلماء واسألوه.

لابدّ لنا من تسجيل أرقام هواتف بعض العلماء المتخصصين الى جانب أرقام هواتفنا في أي مكان كنا في المعمل او الجامعة، في السوق او المدرسة، في القرية او المدينة. فكما ان مسماراً صغيراً يدخل في القدم يؤدي الى تعطيل حركة الانسان ويحوّل حياته الى حياة مُرة كذلك الشبهة البسيطة حينما تدخل أذهاننا تؤدي الى سلب الأمل من نفوسنا وتعطل حركة فكرنا وتحول حياتنا الى حياة متعبة.

هذا رجائي من جميع الأخوة وأخص الفتيان الأعزاء الذين يعيشون اليوم في عالم مليء بالشبهات فلابدّ لهؤلاء من الارتباط بعالِم تقيّ واعٍ.

خاطرة

إلتقيت أيام حكم الطاغوت بمجموعة من الأصدقاء الأعزاء. وكانوا يقولون: ان قوانين الاسلام لا تنسجم وروح المدنية، اذ ان الاسلام

يقول: لابدّ من قطع يد السارق، في حين نجد ان الماركسية تقول اننا اذا أشبعنا السارق وأجرينا تغييراً في النظام الاقتصادي فسوف تختفي ظاهرة السرقة بشكل طبيعي.

و بعد ان جلست معهم لكي نتحدث حول الموضوع فهمت ان معلماً ماركسياً ألقى عليهم تلك الكلمات التي قالوها لي. وقد استمعوا في محيط الدرس لحديث المعلم فاغراهم.

قلت لهم: ان الاسلام لايقطع يد كل سارق. بل يشترط الاسلام لقطع يد السارق شروطاً متعددة، فأي واحد منكم يعرف هذه الشروط ؟

قالوا جميعاً: لاعلم لنا.

قلت: لو كنتم تعلمون أحكام الاسلام لوقفتم أثناء الدرس وقلتم للمعلم ان الاسلام الذي يقطع يد السارق قد اشترط حدود عشرين شرطاً، وأنت أيها المعلم لا تعرف هذه الشروط، فلاتتدخل رجاءً. ولو كنتم تعلمون فعلى الأقل تدعونه للبحث الحر، أو تتصلون هاتفياً بأحد العلماء للاستفسار منه، وتدافعون عن الاسلام العزيز... بعد ذلك أوضحت لهم بعض الشروط فالتفت الجميع لبطلان كلام المعلم... وانصرفنا.

قارئي العزيز: في ضوء وعود القرآن المتكررة. سوف يكونَ النصر النهائي نصيب الاسلام وسوف تُقبِل الناس في سائر أرجاء العالم على الاسلام وتشكل حكومة المهدي «عج»... ولهذه الوعود شروط:

١ــ توجه جماهير العالم الى الاسلام.

٢ــ معرفة الاسلام.

٣ــ الاعتقاد بالاسلام.

شهداؤنا في الثورة الاسلامية لفتوا أنظار العالم الى الاسلام وخطوا

بالتدريج الخطوة الأولى.

والآن وصل الدور لنا لنخطو الخطوة الثانية وهي (معرفة الاسلام) وتعريف العالم به. والخطوة الثالثة ترتبط بجماهير العالم فبعد مللها من اشكال النظم المختلفة و يأسها من العقائد والمذاهب التي تتخبط فيها سوف تأتي الى الاسلام وتعتنقه.

على هذا الأساس فلابدّ لنا أسبوعياً من مطالعة كتاب نافع بقلم مؤلف مثقف ومنصِف لتزداد معلوماتنا الاسلامية يوماً بعد يوم.

فالامام الرضا «ع» يشير الى ان الناس اذا أطلعت على ديننا وكلامنا وخطنا فسوف تؤمن وتعتقد به.

لابدّ لنا من الابتداء في برنامج القراءة والمطالعة من الكتب العقائدية لأن عقيدتنا هي أساس أعمالنا فلابدّ من اقامة العقيدة على أساس الاستدلال المحكم الملائم لفطرة الانسان. ومع أخذ سائر المذاهب الأخرى بنظر الاعتبار نختار عقيدتنا وخطّنا.

في وداع بحث العدل الإلهي أشير الى هذا المفهوم:

التفاوت رمز معرفة الله

كما ان التبعيض ظلم فالتفاوتات الحكيمة (١) مضافاً الى كونها عين العدالة فهي رمز معرفة الله. القرآن يقول: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمٰوٰاتِ

(١) أشرنا سابقاً الى الفرق بين التبعيض والتفاوت. فالتبعيض هو التفرقة بين الأفراد والموجودات ضمن تساوي الظروف والشروط، وهذا ظلم. اما التفاوت فهو اختلاف مع اختلاف الشروط فمثلاً. اذا تساوى الطلاب في التحصيل الدراسي ووضع المعلم لهم درجات متفاوتة فهذا تبعيض وظلم. أما اذا جاء التفاوت في درجات المعلم على أساس التفاوت في تحصيل الطلاب الدراسي فلا مانع منه.

وَالأَرْضِ وَٱخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ)(١)

فاختلاف وتفاوت الألوان والألسنة مؤشر من مؤشرات القدرة الإلهية. نعم فاذا كان الشاعر ينظم نوعاً واحداً من الشعر أو كان الرسام او المعمار أو المهندس يرسم نوعاً واحداً من المناظر وخرائط البناء، فهذا دليل على ضعفه ومحدوديته.

أما اذا كان يقدم في كل يوم طرحاً جديداً فهذا بنفسه دليل على امكانيته وقدرته.

(١) سورة الروم، آية (٢١).

الحلقة



العدالة الاجتماعية



المقدمة

بمناسبة البحث حول العدل الإلهي في الحلقة السابقة، نخصص الحلقة الثالثة لبحث العدالة الاجتماعية. ونظراً لسعة أطراف البحث فسوف نسعى لاختصاره ضمن مفاهيم نستلها من القرآن ونهج البلاغة والحديث الشريف مع شيء من البيان والايضاح.

المفاهيم والأفكار التي نعرضها في هذه الحلقة مفيدة بشكل عام للتعريف برسالتنا وللوعي بمفاهيمها.

الهدف من بحث العدالة الاجتماعية

نهدف في بحث العدالة الاجتماعية الى بيان موقف القرآن الكريم والقدوة من أهل البيت عليهم السلام حول حفظ الحقوق، والمساواة بين الناس أمام القانون، وإلغاء التمايز والاستغلال والظلم بين الناس.

وسنتحدث أيضاً عن أكثر من أربعين خاطرة تبين أسلوب الرسول الأكرم والأئمة «ع» في مجال التوزيع العادل لبيت المال، ونشير الى نماذج من الأُخُوَّةِ الاسلامية.

العدالة في سُدى ولُحمَة سائر البرامج

الاسلام مذهب العدل والاعتدال والسبيل المستقيم، والأمة الاسلامية أمة وسط، و نظام عادل.

وتتضح هذه المفاهيم في أحكام الاسلام وتعاليمه، فاذا دعى الاسلام للعطف والمحبة دعى أيضاً لاستخدام السيف والقوة، فدعى الى تربية الجسم، كما التفت الى الرشد المعنوي والروحي فكانت هناك الصلاة كما كانت هناك الزكاة.

واذا كان هناك حبّ وموالاة لأولياء الله كان هناك أيضاً تبرٍّ و بعد من أعدائه.

اذا ناصر الاسلام العلم فقد دفع للعمل أيضاً. واذا أكد على الايمان فهو قد ألزم بالعمل الصالح الى جواره.

واذا أوصى الاسلام بالتوكل على الله فهو قد أمر أيضاً بالعمل والفعالية. اذا احترم الاسلام ملكية الأفراد فقد شرّع قاعدة منع الضرر بالآخرين ولم يسمح بسوء الاستفادة من الملكية.

واذا دعى الاسلام للعفو والتسامح فهو قد دعى لاجراء الحدود الإلهية بحزم و بلا رأفة أيضاً.

قيل للإمام «ع» ان فلاناً يصلي بتوجه. فسأل «ع»: كيف عقله؟ فلابدّ إذن من العقل والايمان في شخصية الانسان المسلم.

وبملاحظة هذه التقابلات تجد معنى الاعتدال والعدالة والوسطية.

العلاقة بين العدالة الاجتماعية والنظرة الإلهية للعالم

هناك -في الوسط الاجتماعي- مجموعة من الشعارات التي تملأ الأفواه، ونحن اذا لم نتابع هذه الشعارات متابعة جذرية تكشف عن أصولها فسوف لانخرج في فهمنا لها عن مستوى الشعار.

والعدالة الاجتماعية شعار من هذه الشعارات التي تطبل بها كل الأنظمة وتدعي حمايتها لها الاّ انك لا تشاهد -على المستوى العملي- أثراً لهذا الشعار في معظم نظم العالم، والسبب في ذلك ان هذا الشعار لاينبثق من أساس وخلفية.

العدالة والمساواة في الاسلام تنبثق من أصول وأسس عميقة، ومن هذه الأصول:

١ـ عالم الوجود بكامل تفاصيله تحت هداية الله الحكيم، وليس هناك مجال للفوضى والعبث في هذا الوجود تدفع الانسان -بوصفه جزءً من أجزاء العالم- ليعمل وفق أهوائه مايشاء، ولايرى سوى نفسه.

٢ـ كل تصرفاتنا وأعمالنا وحتى أفكارنا تخضع لرقابة إلهية، ولابدّ ان نقف جميعاً أمام محكمة العدل الإلهية.

٣ـ كلنا من تراب ومصيرنا العودة الى التراب، ولافرق بين ذرات التراب ليكون هناك تمييز وتفرقة بيننا نحن البشر.

٤ـ الناس كل الناس عباد الله، وحبّ الناس يجلب رضا الله، وخير الناس محب الخير للناس.

٥ـ الوجود بأسره لايتجاوز الحد والقانون الذي سنّه الله بحق لسائر

الموجودات.

٦ــ أبو البشرية جمعاء واحد وهو آدم «ع» وأمّها واحدة وهي حواء.

ضمن هذه النقاط جاء تصور وتفسير الاسلام لعالم الوجود، وهذا التفسير هو عبارة أخرى عن النظرة الإلهية للعالم. وهذه النظرة تمثل أفضل أرضية مساعدة لتطبيق العدالة الاجتماعية وقبولها وإلغاء المحسوبية والمنسوبية والأهواء.

عشق العدالة ظاهرة فطرية

يرى القرآن الكريم ان الله سبحانه أودع في الانسان قابلية معرفة الحسن والقبح ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (١)

خُذ على ذلك مثلاً: الطفل الذي أودع عندك تفاحة حتى يشرب الماء ثم يعود. وبمجرد اطلاعه على انك قد أكلت شيئاً قليلاً من التفاحة سوف يتألم، و يأخذ يحدق فيك، وكأنه يريد أن يقول: ظننت انك أمين فأودعت التفاحة لديك، فلماذا خنت الأمانة؟!

هذا المعنى يدركه الطفل سواء استطاع ان يبرزه بلسانه أم لا. تلاحظ في هذا المثال ان الاحساس بقبح الخيانة مسألة لاتحتاج الى معلم ومرب، بل يدركها الانسان بفطرته واحساساته الأولية. كذلك العدالة فهي من المفاهيم التي يميل اليها الانسان و يعشقها بفطرته. والدليل على ذلك، ان الظالم نفسه يحاول دائماً ان يقدم تبريراً وتوجيهاً لظلمه، و يسعى لاعطاء أعماله الظالمة صورة العدل.

يتفق أحياناً ان تتعاون مجموعة على الاشتراك في سرقة. و بعد ان

(١) سورة الشمس، آية (٨).

ينقلوا الأموال المسروقة من محلها الى محل آخر، وتصل لحظة تقسيمها يقول بعضهم لبعض : تعالوا نوزعها بالعدل بيننا !! يصدر هذا الكلام وبلا وعي أحياناً. وحتى لولم يصدر كلام من هذا القبيل الآ انهم يميلون نفسياً الى العدالة ويحبونها، ولذا لوأخذ أحد الشركاء سهماً أكبر فسوف يتألم الآخرون.

نلاحظ ان الجنس البشري عموماً يرخب بالموت في سبيل اقرار العدالة الاجتماعية والدفاع عنها، و يرى ان الدفاع عن النفس والمال والدين والوطن والوقوف في وجه الظالمين عمل حسن. وما هذا العموم الآ لأجل ان الدفاع عن العدل والنضال ضد الظلم ارادة فطرية طبيعية في نفس كل انسان.

القانون العادل في ظل رسالة الأنبياء فقط

يندر ان يكون هناك مجتمع لايدور في أوساطه الحديث عن الحق والقانون والعدالة. و يندر أيضاً ان نجد نظاماً ادارياً لايدعي حماية مصالح وحقوق الشعب.

وهنا نحاول ان نجلس للتحليل ونطرح أسئلة منها:

١ــ أي قانون يستطيع ان يكون عادلاً ١٠٠٪، وأي قانون يبتعد عن الاستبداد الفردي او الحزبي ؟

٢ــ أي مقنن لا تؤثر الميول والأهواء الشخصية على قوانينه ؟

٣ــ ما هو المعيار الذي يحدد عدالة القوانين؟

٤ــ أي موقع وأي طبقة اجتماعية يحميها القانون؟

٥ــ لوافترضنا ان المقننين تحرروا من اشكال التبعية الحزبية

والقبلية والاقليمية والعنصرية، ولكن من أين لهم الاطلاع على كامل أبعاد الشخصية الانسانية وحاجاتها لكي لا تكون نتائج قوانينهم عاجلاً أو آجلاً مضرة بمصالح الشعب؟

في ضوء هذه الأسئلة ننتهي الى الاعتقاد بأن العدالة الاجتماعية تابعة لعدالة القانون. وان القانون العادل لايمكن الاّ عن طريق الخالق المبدع، ورسالة أنبيائه.

العدالة شرط أساس

المراكز الحساسة في حكم الاسلام تُعهد للعدول وهم الأشخاص الذين لم يكن لهم سوء سابقة عند الأمة والمعروفون بالاستقامة والصلاح.

ففي النظام القضائي -من القاضي حتى الشاهد والكاتب- هؤلاء جميعاً لابدّ من عدالتهم في أي مرحلة كانوا.

في صلاة الجمعة والجماعة اشترطت الشريعة عدالة الامام.

في النظام السياسي والاجتماعي من مرجع التقليد والولي العام ومسؤول بيت المال حتى مسألة الطلاق وفصل الزوجة عن الزوج لابدّ من العدالة في الجميع.

في الاعلام الطريق الوحيد للأخبار هو طريق الأشخاص العدول الذين يحصل بهم الاطمئنان.

وخلاصة الكلام هي ان الاسلام أولى أهمية خاصة بالعدالة واشترطها شرطاً أساسياً في سدى ولحمة المجتمع الاسلامي في مسائله الاجتماعية والعائلية والاقتصادية والحقوقية.

أهمية العدالة في الروايات

قال رسول الله «ص»: (عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة قيام ليلها وصيام نهارها).(١)

قال النبي «ص»: (لَعمل الامام العادل في رعيّته يوماً واحداً أفضل من عبادة العابد في أهله مائة عام أو خمسين).(٢)

قال الصادق «ع»: (الامام العادل لا ترد له دعوة).(٣)

قال الامام أميرالمؤمنين «ع»: (في العدل صلاح البرية والاقتداء بسنة الله» وقال «ع»: (العدل حياة والجور ممات).(٤)

نعم فالشعب الذي يخضع للظلم و يسلّم له هو في الحقيقة ميتة.

يقول الامام الكاظم «ع» في تفسير آية (يُحيِي الأرضَ بَعدَ مَوتِها)(٥): الأرض تحيا بسبب استقرار العدالة واجراء الحدود الإلهية.

استقرار العدالة هدف من أهداف الأنبياء

حدد القرآن للأنبياء، وظائف ومسؤوليات كان استقرار العدالة أحدها. وهنا نعرض فهرساً عاماً لأعمال القادة المعصومين:

١ـ (أنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا ٱلطَّاغُوتَ) (٦) هذا هو نداء جميع الأنبياء

(١) جامع السعادات، ج(٢)، ص(٢٢٣)

(٢) النظام السياسي في الاسلام، باقر شريف القريشي، ص(٧١).

(٣) النظام السياسي في الاسلام، باقر شريف القريشي، ص(٧١).

(٤) قصار الجمل.

(٥) قصار الجمل.

(٦) سورة النحل، آية (٣٦).

للناس على طول التاريخ، الدعوة لعبودية الله، ومخالفة الطاغوت واجتنابه.

٢ــ الانذار والتبشير (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً)(١)

٣ــ التربية والتعليم (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ...)(٢)

٤ــ النضال ضد سائر أشكال الخرافة والأوهام والعبودية والأسر التي طوقتهم بها نظم الضلال والجاهلية.

(وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ)(٣)

الإصر هو ميثاق العبودية وتكاليفه الشاقة.

٥ــ فضح وتسفيه خطوط الجاهلية والانحراف وتعرية القيادات الزمنية المزيفة (وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ)(٤).

٦ــ الهدف السادس للأنبياء هو تشكيل المجتمع الذي تمضي حياة جماهيره على هدي العدل في سائر الروابط العائلية، والاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

وان توفق الأمة الى العدل في معاملاتها مع العدو والصديق سواء.

هذا هو هدف الأنبياء احياء هذه الروح الايمانية بالله واليوم الآخر في نفوس أبناء الأمة. وان يخلطوا هذه الأخلاق وتلك الطريقة الإلهية في التفكير مع سدى ولحمة المجتمع الاسلامي لكي ينهض الناس أنفسهم بالعدالة و يشكلوا المجتمع العادل (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمْ

(١) سورة البقرة، آية (١١٩).
(٢) سورة الجمعة، آية (٣).
(٣) سورة الأعراف، آية (١٥٧).
(٤) سورة الأنعام، آية (٥٥).

الكِتَابَ وَالمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِالقِسطِ، وَأَنزَلنَا الحَدِيدَ فِيهِ بَأسٌ شَدِيدٌ)(١)

فالغاية هي قيام الناس أنفسهم بالعدل. وحيث ان بناء المجتمع العادل بحاجة الى القدرتين المادية والمعنوية جاءت الاشارة لهاتين القدرتين في الآية أعلاه (البينات والكتاب والميزان) فهذه اشارة للقدرة المعنوية. (وأنزلنا الحديد) اشارة الى القوة حيث تستخدم في مواجهة قوى التخريب.

إذن استقرار العدالة الاجتماعية هدف من أهداف الأنبياء.

استدلال الامام علي «ع» على المساواة

لما اعترض على الامام علي «ع» لتقسيمه الأموال بالتساوي بين المسلمين خطب «ع» (٢) ونجد في خطبته الدليل على المساواة وهو كالآتي:

١ــ قوله «ع»: (لوكان المال لي لسويتُ بينَهُم، فكيف وإنَّما المال مال اللّهِ) فحينما يكون المال مال الله فهذا يعنى ان هناك حقاً لكل فرد من أبناء الأمة فيه.

٢ــ قوله «ع» (ألا وان إعطاء المالِ في غيرِ حقهِ تبذيرٌ واسرافٌ) وحيث ان القرآن يقول: (إنَّ المُبَذِّرِينَ كَانُوا إخوَانَ الشَّيَاطِينَ) (٣) إذن لابدَّ من المساواة.

٣ــ ثم يمضي الامام في خطبته و يتحدث عن مساوىء التميز

(١) سورة الحديد، آية (٢٥).

(٢) نهج البلاغة، ص(١٨٣).

(٣) سورة الأسراء، آية (٢٧).

والتفرقة في التوزيع فيقول: (وَهُوَيرفَعُ صاحبَهُ في الدُّنيا وَيَضَعَهُ في الآخِرةِ وَيُكرِمُهُ في الناسِ ويُهِينُهُ عندَ اللهِ، ولمْ يَضَعِ امْرَؤٌ مالَهُ في غيرِ حقِّهِ ولا عندَ غيرِ أهلِهِ إلاّ حرمَهُ اللهُ شكرَهُمْ وَكانَ لِغَيرِهِ وُدّهُمْ فان زلّتْ بِهِ النَّعْلُ يوماً فاحتاجَ الى مَعُونَتِهِم فَشَرّ خَليلٍ وألأم خدين.) (١)

زلت به النعل = فقد مركزه الاجتماعي، خدين = صديق.

الموقع الذي تصادر العدالة الاسلامية فيه الأموال

كلَّما ابتعد الزمن عن عصر الرسول «ص» ازدادت الهوة بين الناس وعدالة الاسلام الاجتماعية، وتدرج الوضع بالبعد حتى وصل الدور الى عثمان اذ أخذ يهب بلاحساب لعشيرته وللمقربين من أصحابه الأموال والأراضي التي هي ملك عام للمسلمين. وقد أدَّى هذا التبعيض واللامساواة الى ضجر شعبي انتهى بمقتل عثمان، و بالبيعة للامام علي «ع».

ولـمَّا وصل الدور للامام علي «ع» كان لابدَّ له من إلغاء السنن المنحرفة، وارجاع الأموال التي صرفت بلا ميزان وعدالة، واصلاح الوضع الاداري الفاسد.

وكانت هذه الأعمال برامج الامام علي «ع» التي أقدم عليها بثورية وفور تسلّمه لزمام الحكم، ولتستمع له وهو يقول:

(واللهِ لووَجدْتُهُ قد تُزوِّجَ به النساء وَمُلِكَ بِهِ الإماء لَرَدَدْتُهُ...)(٢)

(١) نهج البلاغه ص(١٨٣).

(٢) نهج البلاغة، ص(٥٧).

وواضح ان مقصود الامام «ع» من (وجدته قد تزوج) يعني الذي وُهب له المال لا على حقّ.

لافرق بين العرب والعجم

أتت امرأتان الامام علياً «ع» لتأخذا سهميهما من بيت المال، وكانت إحدى المرأتين من العرب والأخرى من غير العرب، فأعطى كل واحدة منهما سهمها بالسوية، فاعترضت العربية وقالت: اني امرأة من العرب وهذه امرأة من العجم فأجابها الامام علي «ع»: واللهِ انّي لاأجد في هذا الفيء فضلاً لبني اسماعيل على بني اسحاق.(١)

وبسبب رعاية العدالة والمساواة بين أبناء الأمة تعرض الامام علي «ع» مرات متعددة للانتقاد من قبل العناصر التي تربت على الاستكبار الجاهلي وحبّ الذات. الاّ ان هذه الانتقادات لم تخرجه أبداً عن حريم التوحيد والعدالة، وكان مثله عليه السلام كما يقول القرآن: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾(٢).

احصاء الموتى

كانت العرب في الجاهلية تفتخر بزيادة أفراد القبيلة، وقد بلغ النزاع بين القبائل الى حدّ ان قالوا: احصوا عدد الموتى من كل قبيلة، لنرى أي القبائل أكثر عدداً؟ فنزلت الآية: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾(٣)

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص(٨١).
(٢) سورة المائدة، آية (٥٤).
(٣) سورة التكاثر، آية (١-٢).

وقد انتقد الامام علي «ع» في الخطبة (٢٢١) هذا اللون من التفكير انتقاداً شديداً.

اجتمع عدد من المسلمين يوماً وأخذ كل واحد من الجالسين يتحدث عن عشيرته ونسبه و يفتخر به، ولمّا وصل الدور لسلمان المحمدي ظن جميع الحاضرين ان سلمان سوف يخجل بسبب عدم انتسابه لقبيلة معروفة. الاّ ان سلمان بحكم ثقافته الاسلامية التي تربّى عليها قال لهم برشد وافتخار بأنه لاغرض له بالعشيرة، والذي يعرفه انه رجل كان ضالاً فهداه رسول الله «ص» الى الاسلام، وليس له اهتمام آخر. (١)

وبهذا الجواب الرسالي ألغى الامتيازات الفارقة، وأوضح مساواة الجميع أمام الله والقانون، وأفشل محاولتهم للمتاجرة بالفخر العشائري.

اقتراح شراء الضمائر

جاء جماعة من الحريصين على المصلحة الى الامام علي «ع» وقالوا له (فَضِّل الأشراف من العرب على الموالي والعجم ومن نخاف غيّه من الناس وفراره الى معاو ية). غيّه = انحرافه

فقد جاء هؤلاء الى الامام «ع» يقترحون تفضيل أشراف العرب والعناصر التي يخشون انحرافها في العطاء.

فما كان من الامام الاّ ان أجابهم: (أتأمروني ان أطلبَ النصرَ بالجورِ؟ لاواللهِ، لاأفعلُ ما طلعتْ شمسٌ وما لاحَ في السماء نجمٌ. واللهِ لوكانَ مالَهُمْ لي لَوَسّيتُ بينَهُمْ، وكيف وإنّما هو أموالُهُمْ.)(١)

(١)ـ سفينة البحار: جزء(٢) ص٣٤٨

(٢) بحار الأنوار ج ٤٠، ص(٣٢١).

فلابدَّ من تطبيق العدالة في العطاء، وقد أصرَّ الامام في جوابه هذا على عدم استخدام الأموال لجذب الأفراد، وحقّاً ان الأفراد الذين يتحولون الى أنصار بالمال فسوف يتحولون بأكثر من المال الذي أعطيناهم الى مخالفتنا.

نعم هذا هو خط الامام فهو غير مستعد لمخالفة العدالة لغرض جذب جماعة من الأفراد.

نموذج للأخوة الاسلامية

يقول أحد أهالي مدينة بلخ: كنت في مجلس الامام الرضا «ع» وقد حلَّ وقت الطعام، فجاؤوا بالسماط، فجمع الامام «ع» كل الخدم والعبيد من السود والبيض حول السماط، وجلس الامام الى جنبهم وكان «ع» كأحدهم دون أي خصوصية وتشريفات.

فاقترحوا على الامام «ع» ان يعزل سماط العبيد والخدم! فقال الامام: **إلهُناواحدوكلُّنامن أبٍ واحدوأمّ واحدة وجزاء السيء والصالح موكول ليوم القيامة إذن فلأي شيء يتعالى البعض على الآخر؟ (١)**

وإذا جاء اليوم الذي نجد فيه كل فرد بأي عنوان ومنصب كان يجالس الناس بصورة طبيعية ففي ذلك اليوم تنضج ثورتنا الثقافية.

اذا كان كل مسلم يرى نفسه بالصورة التي لايحس معها بالتعالي والامتياز و يعيش مع الناس وفي الناس ومن الناس، ويحيي في نفسه الأخلاق الاسلامية فسوف نكسب العالم و ينجذب كل انسان يتعامل معنا الى رسالتنا وديننا.

(١) راجع نص الرواية في الكافي، الجزء ٨، ص(٢٣٠).

المساواة في الاسلام

تمضي على العالم القرون من الزمن ويخضع السود للظلم والقهر، فمدارسهم ومقابرهم ومقاهيهم ومستشفياتهم وحماماتهم معزولة عن مرافق حياة الرجل الأبيض الممتاز

وقد ألغى الاسلام بصراحة كل هذه الامتيازات: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾(١)، وما هذه الاختلافات في اللون واللغة الاّ دليل على القدرة الإلهية التي يجب الارتباط بها ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَٱخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾(٢)

قال رسول الاسلام الأكرم «ص» في آخر سفرة للحج بعد أن جمع الناس: يتساوى المسلمون جميعاً من أي عرق وقبيلة ولسان كانوا. (٣)

وقد منح النبي «ص» أيام حياته مقاماً خاصاً للمستضعفين والمستعبدين، وأقر الزواج بين الأسود والأبيض، حتى انه «ص» زوَّج ابنة عمَّته بعبد أسود ليلغي الامتيازات العرقية التي كانت سائدة.

انتقاد قاعدة خاطئة

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾(٤)

ضرب الله تعالى في هذه الآية علامة خطأ على أحد الامتيازات التي كانت تدّعيها قريش لنفسها.

(١) سورة الحجرات، آية (١٣).

(٢) سورة الروم، آية (٢٢).

(٣) سفينة البحار، ج (٢)، ص (٣٤٨).

(٤) سورة البقرة، آية (١٩٩)

ومبرر هذا الامتياز هو ان قريشاً كانت سادنة الكعبة فكان هذا سبباً لأن تترك الذهاب الى عرفات في أداء مراسم الحج وتستبدلها بالذهاب الى المزدلفة، وكانت قريش تقول: نحن أهل بيت الله ولاننفصل عن الحرم الشريف. هنا نزلت الآية المتقدمة لتقول لهم ألغوا هذا الامتياز واذهبوا مع الناس شأنكم شأنهم.

فرق بين الرسالية والمتاجرة

كان المستكبرون يستحقرون أنصار نوح «ع» و يرونهم أراذل لاقيمة لهم. وكانوا يقترحون على نوح بأن يُبعد هؤلاء عنه لكي يستطيعوا هم الالتفاف حوله!

وحيث ان نوحاً «ع» كان باستمرار حامي المستضعفين فأجابهم بالنفي ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾(١)

فلم يوافق «ع» على طرد المؤمنين لأجل جذب القوى المتكبرة، فالذي له قيمة عنده هو العدالة الاجتماعية وحفظ الرسالة ولابدَّ من كسب الأفراد تحت ظلّ هذه الرسالة لاان نغض النظر عن جانب من الرسالة ونتركه فنخرج عن حريم الحق والعدالة عسى ان يضاف بعض الأفراد الى عددنا. فهذا الطراز من التفكير متاجرة ومناورة لجميع المؤيدين وليس عملاً رسالياً وعبادة إلٰهية.

التوزيع العادل لرغيف خبز

جاؤوا بكمية من الأموال العامة الى الامام علي «ع» فتزاحم الناس

(١) سورة هود، آية (٢٩).

على هـذه الأمـوال. هـنـا ضـرب الامـام «ع» حـول الأمـوال حاجزاً من الحبال ليمنع الاعتداء عليها، ونادى الناس بالابتعاد عن الأموال. ثم أخذ بـنـفـسـه يقسـم الأموال على نواب القبائل في ذلك اليوم، و بعد ان أكمل التوزيع وجد رغيفاً من الخبز قد بقي في أحد الأواني فأمر «ع» بتوزيع هذا الـرغيف الى سبعة أقسام كما وزّع تمام بيت المال وان يعطى لكل طائفة سهم.

ثورتنا سوف تصدر حينما نجسد هذا السلوك في بلدنا ونعرّف العالم به، ونـقارن بين هذا الحرص على بيت المال وذلك الاسراف والتبذير، ونوازن أيضاً بين الحاكم المسلم والحكام الآخرين.

لاتهدموا الرسالة لأجل مصلحة الأفراد

سُرقَ بـيـت أحـد المسلمين في المدينة واتهم اثنان بهذه السرقة، كان أحدهما مسلماً والآخر يهودياً، فاعتقلا وجيء بهما الى النبي «ص».

على اثـر ذلـك عـمّـت المـسـلـمين خشية من ثبوت السرقة على المسلم فـلا يبقى لهم اعتبار عند اليهود. فجاؤوا النبي «ص» وقالوا: ليكن السعي الى تبـرئة المـسـلـم فان اعتبار المسلمين في خطر. لكن النبي «ص» كان يرى ان القضاء الظالم هدم لاعتبار الاسلام والرسالة.

وقالوا للنبي «ص»: ان اليهود ظلمونا لحد الآن، فلوفرضنا اننا ظلمنا يهودياً في هـذه الـسـرقـة فـليس هذا الظلم بشيء مقابل كل المظالم التي ارتـكـبـوهـا. لـكـن الـنـبي «ص» كان يرى ان حساب القضاء والعدالة منفصل عن حساب العداوات القديمة.

وأخيـراً قـام النبي «ص» بالتحقيق مع المتهمَين، وعلى خلاف رغبة

المسلمين وحكم على اليهودي بالبراءة من السرقة.

وهذا النموذج من العدالة رغم انه كان في حساب مسلمي ذلك الزمان هدماً لاعتبارهم غير انه أعطى للعدالة والرسالة الاسلامية اعتبارها وعظمتها في الواقع.

نعم لابدّ ان نفكر بمصلحة الاسلام وان لانفرط بالرسالة قليلاً أو كثيراً لأجل رضى بعض الأفراد أو الجماعات.

جواب لطلب واهن

مرت جماعة من جانب مجلس النبي «ص» فشاهدوا أفراداً من الفقراء والمحرومين نظير عمار و بلال، فقالوا للنبي «ص» بتعجب:

أتقتنع بأمثال هؤلاء الضائعين، أسرع في إبعاد هؤلاء عن مجلسك ليكون الجو مهيئاً لنؤمن بك.

صاحب تفسير المنار بعد نقل هذه الحادثة يضيف، ان عمر أظهر ميلاً لاقتراح مستكبري قريش وقال للنبي لأجل الاختبار أطرد هؤلاء الفقراء مدة من الزمن، لنرى هل يُهيأ الجو لايمان هؤلاء المستكبرين أو لا؟ ولنرى هل ان هؤلاء كانوا صادقين في قولهم أو لا؟

فنزلت الآية: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَدَاةِ وَالعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾(١)

لا تنظروا للقضاء نظرة سطحية

أتى طفلان الى الامام الحسن «ع»، وكل منهما يحمل كتابة له،

(١) سورة الأنعام، آية (٥٢).

وقدموها للامام ليحكم أي الخطين أفضل، وهنا ينظر كل انسان اعتيادي الى هذه المسألة نظرة سطحية لأنه أولاً مورد القضاء هو الخط، وثانياً طرفا الحكم طفلان.

غير ان المسألة على كل حال مسألة حكم وقضاء، ولذا ينذر الامام علي «ع» ولده الامام الحسن «ع» و يقول له: **(انظر كيف تحكم فان هذا حكم والله سائلك عنه يوم القيامة)** (١)

الموقع الذي يطرد فيه الضيف

نزل أحد الأفراد ضيفاً عند الامام علي «ع»، و بعد مدة طرح قضية نزاع له مع شخص آخر، فهنا أشار الامام عليه، **بأنك كنت ضيفي لحد الآن، أما بعد ان أصبحت طرف دعوى فاخرج عني لأن النبي «ص» أوصى ان لايكون أحد المتخاصمين ضيفاً عند القاضي الآ ان يكون الآخر حاضراً أيضاً**، فالضيافة لها حساب والقضاء له حساب آخر. فالضيافة على أساس العاطفة والمحبة، والقضاء على أساس القانون.

والقاعدة هي: لابدّ من الابتعاد عن أي عمل عاطفي ونفسي يحتمل تأثيره على العدالة في القضاء(٢)، الامام علي «ع» يوصي جباة الأموال بأن لاينزلوا ضيوفاً في بيت أحد من أهالي المنطقة التي يذهبون إليها، وليقيموا منزلهم الى جوار عين ماء، لأن الضيافة تؤثر على أخذ الضرائب من الناس. (٣)

(١) مجمع البيان، ج(٣)، ص(٦٤).
(٢) وسائل الشيعة، ج(١٨)، ص(١٥٧).
(٣) نهج البلاغة، الكتاب (٢٥).

انتقاد القرآن الشديد للترجيح بلاأساس

آيات القرآن أخذت بالنزول على رسول الله «ص»، و بالتدريج أخذت تجذب لها عناصر وأفراداً، وكان شخص النبي «ص» و بعض المسلمين يبذلون الجهد لتعريف الاسلام والدعوة اليه.

وفي يوم من الأيام انعقدت جلسة عند النبي «ص» وكان الحاضرون من الشخصيات المعروفة آنذاك ودار الحديث معهم ودعوا الى الاسلام. وفي هذه الأثناء دخل رجل أعمى الى المجلس، وشرع بالكلام والحديث وأخذ يكرر كلامه أيضاً. وكان كلام هذا الرجل الأعمى سبباً لقطع الحديث الدائر مع الشخصيات الجالسة في محضر النبي «ص». ولذا استاء المتحدث في تلك الجلسة، وتبدلت ملامحه، اذ لم يكن راغباً بدخول هذا الرجل الأعمى الى المجلس في تلك الحال، واذا دخل فلا أقل من سكوته.

ومع ان العبوس وتغيير ملامح الوجه بالنسبة للفرد الأعمى لاتختلف كثيراً عن انبساط الوجه، غير ان القرآن يشير الى هذه الحادثة في آيات من سورة عبس ويحذر متحدث الجلسة و يعاتبه على تغيير ملامح وجهه و يقول: (عَبَسَ وَتَوَلّى أنْ جاءَهُ الأعْمىٰ، وَمايُدرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ أوْيَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرىٰ...)(١)

نموذج آخر لعدالة علي «ع»

جاء عقيل بن أبي طالب لأخيه علي «ع»، ومعه أطفاله جياعاً قد

(١) سورة عبس، الآيات الأولى.

تـغيّـرت ملامح وجوههم، فطلب من أخيه زيادة عطائه من بيت المال. ومـن الـطبيعي ان يتأثر الأخ حينما يرى أطفال أخيه جياعاً. لكن الامام أجـاب حـازماً بـالـنفي، ولأجـل ان يُـفهم أخاه فلسفة جوابه المنفي أحمى قـطعة من الحديد وقرّبها الى بدن عقيل فضج عقيل من ألم الحديد فقال له أمير المؤمنين «ع»: (ثَكِلَتْكَ الثَّواكِلُ يا عقيلُ: أتَئِنُّ من حديدةٍ أحماها إنسانُها لِلَعِبِهِ وتَجرّني الى نارٍ سَجَّرها جَبَّارُها لِغَضَبِهِ.)(١)

سلوك علي «ع»

الـشخـصيات المعروفة تذهب عادة بنفسها الى السوق لشراء السلع، واذا أرسـلـت أحـداً لـيـشـتـري لها فـسوف يخبر البائع بأن الجنس نريده للـشـخـصـيـة (س) ليحصل على السلعة الأفضل و بسعر أقل. وفي بعض الأحـيـان يمـكـن ان يـكـون هـذا الـعـمـل رشـوة أو سوء استخدام المركز والمـنـصـب ممـا يـؤدي الى ايجـاد التبعيض في سوق المسلمين وتأخذ جماعة الـسـلـع الأفضل بأسعار زهيدة و يستهلك الأفراد العاديون السلع المتوسطة بأسعار أعلى.

ولكن الامام علياً «ع» كان يسعى شخصياً للشراء من الباعة الذين لايـعـرفـونـه، واذا أرسل أحداً الى السوق فلايلفت نظر البائع الى ان هذه الـسـلـع تُشترىٰ لعلي «ع». وهذا هو السلوك الذي اختص به الامام سلام الله عليه.

(١) نهج البلاغة، ص(٣٤٧).

نموذج آخر لدقة الامام «ع»

كان الامام «ع» يقسم بيت المال، وفي هذه الأثناء جاء طفل من أحفاده، وأخذ شيئاً من بيت المال وذهب. وهنا يمكن ان يغض كل أب النظر عن المسألة الاّ ان الامام ركض بسرعة خلف الطفل، وأخذ ذلك الشيء من يده وأرجعه الى بيت المال. فقال الناس للامام ان هذا الطفل له حصة من بيت المال أيضاً! فأجابهم الامام: أبداً، بل أبوه وحده له سهم وهو سهم بقدر سهم أي مسلم آخر، وفي أي وقت أخذ أبوه سهمه فليعط الطفل مايعلم هو من حاجته. (١)

وهذا النوع من الحرص كان متصلاً ببيت المال، اما بالنسبة لبذل أمواله الشخصية فقد كان سخاء الامام بالحد الذي اعترف به حتى معاوية، اذ ينقل عنه انه يقول: اذا كان لعلي حجرتان أحدهما مملوءة بالتبن والأخرى مملوءة بالتبر (الذهب) فبذلُ أيٍ منهما لديه على حد سواء.

اعتراض خاطىء على الامام علي «ع»

طلحة والزبير من أصحاب الرسول وكانا يدعيان لأنفسهما امتيازات معينة، ولذا كانا بين الحين والآخر يوجهان الانتقاد لأسلوب الامام في توزيع بيت المال او يوجهان لأسباب أخرى، ومرة اعترضا على الامام: لماذا لا تستشيرنا ؟

أجابهما الامام علي «ع»، وبعد أن بين لهما استعداده ولياقته وعدالته وقدم لهما خلاصة عن أعماله، قال:

(١) نهج البلاغة، ص(٣٢٢).

(والله ما كانت لي في الخلافة رَغبة ولا في الولاية اربة، ولكنّكم دعوتموني إليها، وحملتموني عليها فلمّا أفضت إليّ نظرت الى كتاب ٱللّهِ وما وضع لنا وأمرنا بالحكم به فاتّبعته، وما استنّ النبي «ص» فاقتديته، فلم أحتج في ذلك الى رأيكما ولا رأي غيركما ولا وقع حكم جهلته، فأستشيركما واخواني من المسلمين ولو كان ذلك لم أرغب عنكما ولا عن غيركما.)(١)

اربة = حاجة.

العدالة في التعامل

كتب الامام علي «ع» الى واليه على مصر «محمد بن أبي بكر» قائلاً: (وآسِ بينهم في اللحظة والنظرة)(١) ثم أخذ يُبيّن الدافع للمساواة في الرعاية والملاحظة فيقول: (حتى لا يطمع العظماء في حيفك لهم ولا ييأس الضعفاء من عدلك عليهم) وحيفك لهم يعني ظلمك لأجلهم.

وفي حديث شريف نقرأ (كان رسول الله «ص» يقسّم لحظاته بين أصحابه فينظر الى ذا و ينظر الى ذا بالسوية)(٢)

وقد اهتمّ الاسلام برعاية الدقة في التعامل حتى انه أوصى صاحب المنزل ان يغسل يد الضيوف قبل الغذاء مبتدئاً من الجانب الأيمن، و يغسل أيديهم بعد الغذاء مبتدئاً من الجانب الأيسر، لأجل ان يكون الأول في الغسل قبل الغذاء الآخر فيه بعد الغذاء.

حقاً، فهذا النموذج من الدقة والعدالة في أي مذهب ورسالة تستطيع ان تجده؟

(١) نهج البلاغة، ص(٣٨٣).
(٢) وسائل الشيعة، ج(٨)، ص(٤٩٩).

ابتعدوا عن روتين المكاتبات الرسمية

كتب الامام علي «ع» الى ولاته في احدى تعاليمه الادارية:

(ادقّوا أقلامَكُم، وقارِبُوا بَينَ سطورِكُم واحْذِفوُا فضُولَكُم واقْصِدُوا قَصدَ المَعٰانِي، وإيّاكُم مِن الإكثارِ فانَّ أموٰالَ المسلِمِينَ لا تَحتَمِلُ الإضرٰارَ.) (١) لاحظ هذه الوصايا فجميعها تصب لمجانبة الروتين في بناء الدولة التي ترعى مصالح الناس. فدقوا اقلامكم، يعني قطها لتكتب بنعومة، واحذفوا فضولكم، يعني الزيادة والاطالة.

وللامام علي «ع» في الخطبة (٢٢٤) بيان طريف في أهمية العدالة والفرار من الظلم و يقول في هذه الخطبة:

(واللهِ لو أعطيتُ الأقاليمَ السَبعَةِ بِمٰا تَحتَ أفلاكِها على أن أعصِيَ اللهَ في نَملَةٍ أسلُبُهٰا جُلْبَ شعِيرةٍ ما فَعَلْتُهُ.)

و يقول أيضاً: (واللهِ لأن أبيتُ على حَسَكِ السَّعدٰانِ مُسَهَّداً أو أُجرُّ في الأغلالِ مُصَفَّداً أحبُّ إليَّ من أن ألقىٰ اللهَ ورسُولَهُ يومَ القيامةِ ظالِماً لِبعضِ العِبٰادِ.)

جُلْبَ شعيرة = قشرة الشعيرة.

حسك السعدان = الشوك القاسي.

مسهَّد = سهران.

مصفَّد = مقيد.

محاولة لزيادة العطاء

جاء طلحة والزبير الى الامام علي «ع» وقالا له: ما هكذا كان

(١) بحار الأنوار ج(٤١)، ص(١٠٥).

يعطينا عمر. فقد كان يعطيهم أكثر من عطاء الامام لهما. فقال لهم الامام علي «ع»: (ماذا كان يعطيكما رسول الله «ص» ؟) فسكتا.

فقال لهما: (ألم يكن رسول الله يقسّم الأموال بين المسلمين بالسوية ؟)

قالا: نعم يا أمير المؤمنين ان لنا سابقة وقرابة وعناء.

فهنا التفت اليهما الامام علي «ع» وأخذ يقارن بين هذه المزايا التي ادّعوا التفضيل على أساسها و بين مزاياه هو،

أقرابَتُكُما أدنىٰ أم قرابتي ؟ قالا: بل قرابتك.

أعناؤُكُما أشدّ أم عنائي ؟ قالا: بل عناؤُك .

أسابقَتُكُما أفضلُ أم سابِقَتي ؟ قالا: بل سابقتك.

فالتفت الى أجير كان يشتغل في زاوية عنده وقال: (انظرافوالله ما أنا وهذا الأجيرُ الآ بالسوية. (١)

سوء استخدام المنصب ممنوع

خطب علي «ع» في مركز خلافته الكوفة وقال: (يا أهلَ الكُوفةِ إذا أنا خَرجتُ مِن عندِكُم بِغَيرِ راحِلتِي ورَحْلِي وغُلامِي فلان فأنا خائِنٌ...) (٢)

ومقصود الامام «ع» من هذا الخطاب هو ان يُظهر للناس ان الخلافة لا تعني اطلاقاً استغلال الأموال العامة لمصلحة الخليفة الخاصة فان الاستملاك على حساب الأموال العامة خيانة. وقد كان علي «ع» يقتصر في طعامه على الخبز و يعطي للأمة الخبز وغيره.

(١) راجع بحار الأنوار ج (٤١)، ص (١١٦).

(٢) بحار الأنوار ج (٤١)، ص (١٣٧).

نموذج من المساواة في الاسلام

كان رسول الله «ص» يعيش بين الناس وبملابس اعتيادية يأتي اليهم و يذهب عنهم. وكان حينما يجلس في حلقات المجالس يجلس كأحدهم وليس هناك مكان متقدم وآخر متأخر في مجالس هذه الحلقات. و يوماً دخل رجل غريب الى المسجد فلم يعرف رسول الله وأخذ يحدق في وجوه الأفراد حتى عجز عن معرفته فسأل: أيُّكُم رسول الله ؟

نعم هذه الوحدة في اللباس والبساطة في العيش من خصوصيات رسالة الأنبياء. دخل أحد سفراء الدول الى منزل الامام الخميني قائد الثورة الاسلامية وقال: ان هذه الأفرشة العادية وهذه الحياة البسيطة تحيِّرنا.

المحسوبية ممنوعة

سرقت امرأة من بني مخزوم -وهي احدى القبائل المعروفة آنذاك- فصمم النبي «ص» على اجراء حكم الله في حق هذه المرأة السارقة.

ولمّا رأت عائلة المرأة ان اجراء الحد عليها يسبب لهم صدمة معنوية فاخذوا بالسعي لخلاص المرأة. وارسلوا (أسامة) أحد أصحاب النبي «ص» واسطة عسى ان يحول دون اجراء حد السرقة على المرأة.

فانفعل النبي «ص» وجاء في مضمون قوله لأُسامة:

أتكون شفيعاً و واسطة لكي تتعطل حدود الله ؟، فقد كانت علة دمار وهلاك الأمم السابقة تعطيل حدود الله بحق الأشراف والمعروفين ولكن تجري في حق الضعفاء والمجهولين. والله لو أن ابنتي فاطمة سرقت

لقطعت يدها. (١)

تقام الحدود في الدولة الاسلامية على المسؤولين أيضا

حيث ان الاسلام أراد للمجتمع المسلم التحلي بالعفة فقد شرع الحجاب وأصَّل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مضافاً الى أقراره لجواز التنبيه البدني بالنسبة للأفراد في بعض الموارد.

والتنبيه البدني طبعاً يسبب تضعيف اعتبار الأفراد، ولكن اذا كان هناك من الأفراد من يريد ان يهتك العفة العامة، و يرتكب المخالفة في محضر الناس و يسحق الدين والقانون، و يفتح المجال أمام الآخرين للمخالفة فلابدَّ من أبراز الحزم والشدة لتأديب هؤلاء الأفراد الذين يجرؤون على المخالفة الصريحة وبمرأى ومسمع من الناس.

ولكن هذا التأديب نفسه عبادة ولابدَّ ان يجرى وفق الأمر الإلهي وان يخلو من عنصر الانتقام. ولذا نقرأ في الرواية ان امرأة ارتكبت مخالفة أخلاقية فأحضرت الى محكمة الامام علي «ع»، و بعد الدراسة الكاملة للقضية أصدر الامام الأمر باجراء حكم الله. وكان قنبر هو المسؤول عن اجراء الحكم، وعلى اثر انفعاله ضربها ثلاثة سياط اضافية. وحالما اطلع الامام على الحادثة ،أخذ السوط وضرب به قنبر ثلاثة سياط.

نعم هذه محكمة العدل الاسلامي فحتى ذلك الشخص الذي عاش سنيناً مع الامام والآن هو مسؤول اجراء الحدود ايضاً هذا الشخص ليست له محسوبية اذا خالف بل يجري حكم الله على الجميع.

(١) صحيح البخاري، ومسلم نقلاً عن روح الدين الاسلامي.

اقتراح تأمين السكوت!!

بعد ان انتهت الخلافة الاسلامية الى أهلها وامسك الامام علي بزمام الأمور جاءه عدد من المسلمين الذين لم يدركوا بعد حقيقة الاسلام، وكانوا يفكرون على طريقة اللعب السياسي والدبلوماسية الدولية. فاقترحوا على الامام أن يوثق أركان حكمه بأن يستخدم الأموال لاقناع رؤساء القبائل والشخصيات التي يخشى من مخالفتها وزعزعتها للحكم لكي يدفع احتمال تخريبها و يضمن سكوتها، فكان جواب الامام «ع» لهؤلاء السياسيين: أتتوقعون منّي ان أبني أركان حكمي العادل على أسس الظلم والتعدي؟! وهل يمكن أن يكون أساس الشرك موصلاً للتوحيد؟!(١)

الكمالات الشخصية لا تؤثر على مقدار العطاء

قال الصادق «ع»: **(أهل الاسلام هم أبناء الاسلام أسوّي بينهم في العطاء، وفضائلهم بينهم وبين الله...(٢)**

والذي يبدو ان حديث الامام هذا جاء ليواجه مجموعة طموحات وتوقعات او كان يواجه خطأً فكرياً كان ينتظر فيه كل فرد زيادة في العطاء لأن لديه فضائل معينة. فجاء حديث الامام جواباً على توقع لم يكن في محله.

وحقاً اذا كنا نعطي زيادة مالية لأجل صفات لائقة وفضائل

(١) راجع وسائل الشيعة، ج(١١)، ص(٨٠).
(٢) راجع وسائل الشيعة، ج(١١)، ص(٨١)..

كمالية فسوف نرتكب خطأين:

الأول: نقيِّم الكمالات والقيم المعنوية بثمن ماديٍّ زهيد.

الثاني: نزلزل الاخلاص في نفوس أصحاب الكمالات لأننا نضع كسب الكمال في طريق الحسابات المادية.

وتنبغي الاشارة الى أننا اذا حسبنا القيم المعنوية والصفات الكمالية بثمن زهيد أو كبير فسوف نضرب الكمال والسائرين في طريقه ضربة لاجبران لها.

انتقاد الامام الشديد

كان علي «ع» ينظر بنفسه في أعمال ولاته، و يكلف مراقبين سريين وعلنيين لمتابعة أعمالهم. مضافاً الى ان الناس كانوا بكامل الحرية في ايصال أخطاء ونقاط ضعف الولاة الى الامام.

وكانت احدى شكايات الناس شكاية تدور حول والٍ من الولاة كان يميز في العطاء بين أفراد عشيرته وسائر المسلمين.

فنبه الامام علي «ع» مجسد العدالة واليه.

تنبيه الامام لعمر

في وصية علي «ع» لعمربن الخطاب قال «ع»: (ثلاث ان حفظتهن وعملتَ بهِنَّ كفتْكما سواهُنَّ، وان تركتَهُنَّ لم ينفعْك شيء سُواهنَّ)، قال: وما هُنَّ يا أبا الحسن؟ قال: (اقامة الحدود على القريب والبعيد، والحكم بكتاب الله في الرضا والسخط والقسمة بالعدل بين الأحمر والأسود...(١)

(١) وسائل الشيعة، ج١٨، ص(١٥٦).

ومفاد وصية الامام هو اغماض النظر عن العروق العشائرية والقبلية في اجراء الأحكام الإلهية والغاء تأثير الحالة النفسية (الغضب والارتياح) على تطبيق الشريعة.

لماذا ترك الامام علي «ع» قاعة المحكمة

يروى ان شخصاً في خلافة عمر اشتكى عند القاضي على الامام علي «ع»، فحضر المدعي والمدعى عليه في المحكمة أمام القاضي، وأخذ القاضي يستفسر منهما.. وقد أوصت الشريعة الاسلامية القضاة بالمساواة في التعامل مع أطراف النزاع،المساواة في الحديث وحتى في النظرة.

الاّ ان قاضي المحكمة آنذاك فرق في معاملته بين الامام والمدعي وأخذ يتعامل مع الامام باحترام ويخاطبه بكنيته بينما صاح على المدعي باسمه الصريح.

هنا انفعل الامام علي وترك قاعة المحكمة وأوضح السبب بأن القاضي العادل لاينبغي له ان يميز بين طرفي الدعوى، وأنت أيها القاضي ميزت بيننا في الخطاب والتسمية.

فهذه المحكمة ليست بمحكمة اسلامية. (١)

الموقف من اللجاجة في البحث والعمل

حينما نسير مع القرآن الكريم نشاهد طريقته العادلة في سائر الموضوعات التي يطرحها، ونلحظ بأم أعيننا الانصاف والعدالة في كل

(١) راجع صوت العدالة الاسلامية، ورواية الصادقين. تأليف الشهيد مرتضى المطهري.

براجه. ولأجل المثال نقدم نماذج:ـ

١ـ حينما يريد تحريم المشروبات الكحولية (الخمر) يشير أولاً الى المنافع الاقتصادية أو الطبية التي تستخرج من هذه المواد، ثمَّ يشير الى ضررها و يقول: ﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ﴾(١) أي أكبر من نفعها.

٢ـ رغم كل الامتيازات التي تتمتع بها الرسالة الاسلامية وكونها خاتمة الرسالات الاّ انها لا تتجاوز وتغفل الكتب السماوية السابقة لها و يقول القرآن: ﴿مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيهِ﴾(٢) من الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل قبل تحريفها. وهذا الاعتراف بنفسه نموذج للإنصاف.

٣ـ لم ينكر القرآن امانة اليهود والنصارى انكاراً كاملاً بل قال: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾(٣)

وهذا النموذج من البيان القرآني المنصف بحق أولئك الذين يرفضون التصديق به.

الروايات والأخلاق الاسلامية توصي بأن المحاورة العلمية اذا انحرفت عن مسار العدالة والبحث عن الحقيقة وانتهت الى الجدل وتثبيت الادعاء فلابدَّ من ترك المحاورة فوراً، مهما كان الحق معنا.

العدالة مع الأعداء والكافرين

لم يقتصر الاسلام بتوصيته على اجراء العدالة بحق الأخوة

(١) سورة البقرة، آية (٢١٩).
(٢) سورة آل عمران، آية (٣).
(٣) سورة آل عمران، آية (٧٥).

والأصدقاء. بل أوصى باجرائها بحق الأعداء وفي حال الحرب أيضاً.

١ــ (فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ)(١).

فالعدالة في حالة اصرار العدو على القتال تقتضي القتال، وغير القتال يعني الجبن والذلة. وعلى أية حال فلايكون المسلم بادئاً بالاعتداء واذا بادروه بالقتال يقابلهم بالمثل.

٢ــ (وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلايُسْرِف فِي الْقَتْلِ).(٢)

تشير هذه الآية الى العصبية الجاهلية اذ كانت سنة العرب في الجاهلية هي أنه حينما يقتل لقبيلة شخص تصر قبيلته على الانتقام بقتل عدة أشخاص من قبيلة القاتل ولاتهدأ بقتل القاتل فقط. وفي مقابل هذا التعصب الجاهلي يأمر القرآن و يقول: (فَلايُسْرِف فِي الْقَتْلِ)فالعدالة تقتضي القصاص ولكنها تمنع أيضاً عن الاسراف والانتقام وتحصر حق القتل جزاء للقاتل.

أوصى الامام علي «ع» ولديه العزيزين الحسن والحسين عليهما السلام بعد ان ضربه ابن ملجم وجاء في الوصية: (لا تقتلنّ بي الاّ قاتلي)(٣) ثم يقول: (فاضربُوهُ ضربةً بِضَربَةٍ) نعم الامام علي «ع» وهو يأسو جراحه لم يخرج عن دائرة العدالة.

٣ــ احدى ابتكارات الاسلام هي تثبيت منطقة واسعة أسماها (الحرم)، وحرّم الجدال والحرب في هذه المنطقة، وتركها منطقة حرة لايجوز صيد الحيوان فيها ولايجوز قطع الأعشاب من أرضها. وفي نفس الوقت يقول القرآن: (وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُم فِيهِ فَإِنْ

(١) سورة البقرة، آية (١٩١).

(٢) سورة الاسراء، آية (٣٣).

(٣) نهج البلاغة، ص(٤٢٢).

قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين). (١)

٤ـ (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله) (٢) اتقوه من التجاوز في الردّ على المعتدي.

٥ـ (لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم إنّ الله يحبّ المقسطين) (٣)

فالمخالف الذي لايحمل السلاح في وجه المسلمين ولايعمل على إبعادكم عن دياركم اعدلوا معه فالله يحب العادل المقسط.

٦ـ وفي موقع آخر من القرآن نقرأ (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم) (٤) لاأكثر من ذلك (ولئن صبرتم لهو خير للصابرين).

٧ـ نقرأ في سورة المائدة (لايجرمنّكم شنآن قوم على ألاّتعدلوا) (٥) فالعداء والبغض لايدفعكم للظلم.

٨ـ رغم ان الآيات في هذا المجال كثيرة غير اننا نورد آية أخرى مع شيء من التوضيح ونختتم هذا المقطع:

(لاتقولوا لمن ألقى إليكم السّلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدّنيا) (٦)

مورد نزول هذه الآية واقعة نلخصها بمايلي:

ارسل النبي جماعة ليعين الوظيفة العملية ازاء يهود خيبر. فأخذ أحد اليهود باخفاء أمواله في جبل واستقبل المسلمين وأظهر اسلامه. فاستعجل المسلمون وقالوا: ان اسلام هذا اليهودي حيلة وكذب، بل أظهر الاسلام

(١) سورة البقرة، آية (١٩١).

(٢) سورة البقرة، آية (١٩٤).

(٣) سورة الممتحنة، آية (٨).

(٤) سورة النحل، آية (١٢٦).

(٥) سورة المائدة، آية (٨).

(٦) سورة النساء، آية (٩٤).

خوفاً من الموت وحفظاً لأمواله، فقاموا وقتلوه.

هنا نزلت الآية (لاتَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلامَ) وأعلن اسلامه (لَستَ مُؤمِناً) فتقتلونه لتحصلوا على أمواله (تَبتَغُونَ عَرَضَ الحَياةِ الدُّنْيا) فلابدّ من الابتعاد عن هذه الأحكام العاجلة.

ومن الواضح ان الآية لا تعني التصديق والقبول العاجل مقابل كل حيلة ومؤامرة يخططها الأعداء أيضاً. اذ ان هذه الآية نفسها تقول: (إذَا ضَرَبتُم فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا) فلابدّ من التحقيق لاالقتل العاجل ولاالتصديق الساذج. فالتحقيق هو الطريق الوسط لحفظ العدالة الاجتماعية، وهذه هي رسالتنا وعدالتنا الاجتماعية في الحرب والتعامل مع المخالفين فالعدالة والحبّ للعناصر المسالمة، والجزاء والعقوبة للعناصر المؤذية المعتدية.

الدية والقصاص ضمان للعدالة الاجتماعية

(وَلَكُم فِي القِصَاصِ حَيَاة يَاأُولِي الأَلْبَابِ)(١)

كانت عادةالعرب في الجاهليه على المنوال التالي: حينما يقتل لقبيلة رجل تصمم قبيلته على أخذ الثأر وقتل مااستطاعوا من رجال القبيلة الأخرى، ولوأدّى الأمر الى فناء عائلة القاتل بأجمعها. فنزلت الآية أعلاه لتبين حكم القصاص العادل.

قانون القصاص الاسلامي حكم عادل جداً،اذاانه لايتكيء فقط على القتل كما يعتمد اليهود، ولايتكيء على العفووالدية كماتقوله المسيحية اليوم لأتباعها. اذ ان القصاص بالقتل جبراً قد يؤدي أحياناً الى مفاسد،

(١) سورة البقرة، آية (١٧٩).

وحتمية القصاص مسألة بعيدة عن العقل. فكما لو كان القاتل أخا المقتول او قريباً حميماً له في صورة الإلزام بالقتل سوف يؤدي هذا الإلزام الى مزيد من الألم والحزن لعائلته.

ومن ناحية أخرى فقانون العفو ودية الدم وحده يؤدي الى استهتار القاتل وسائر المجرمين. لذا شرع الاسلام القصاص كحكم أصل وضم اليه حكم العفو او الدية وجعل الاختيار بيد أولياء المقتول.

القصاص العادل في القرآن

(وَكَتَبنا عَلَيهِمْ فِيها أنَّ النَّفسَ بِالنَّفْسِ وَالعَينَ بِالعَينِ وَالأنْفَ بِالأنْفِ وَالأذُنَ بِالأذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِ وَالجُرُوحَ قِصاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ)(١)

جاء في بعض التفاسير انه كانت هناك في عصر الرسول «ص» قبيلتان يهوديتان معروفتان -بنوالنضير، و بنو قريظة- وكانتا تعيشان في المدينة.

بنو النضير قبيلة معتدية فاذا قتل أحدٌ منها أحداً من بني قُريظة فلا يجري القصاص في حقّه، ولكن حينما يَقْتُل أحد بني قريظة يجرون القصاص بحقّه و يقتلونه فوراً.

حينما جاء الاسلام ألغى هذا التميز. ولما أسلم بنوالنضير طلبوا من النبي «ص» استخدام نفس الأسلوب الجاهلي الذي يعتمد الأعتداء وابقاء حق القصاص بنفع بنوالنضير فقط. لم يوافق الرسول «ص» على هذا الطلب، معللاً ذلك بان العدالة في القصاص ليست مسألة خاصة بالاسلام وقد أشارت اليها التوراة أيضاً

(١) سورة المائدة، آية (٤٥).

(وَكَتَبْنَا عَلَيهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ)
(وَالعَيْنَ بِالعَينِ)
(وَالأَنْفَ بِالأَنْفِ)
(وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ)
(وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ)
(وَالجُرُوحَ قِصَاصٌ)

على هذا الأساس فحكم القصاص يجري بصورة عادلة و بلا أي تفاوت يقوم على أساس العرق والطبقة الاجتماعية والقبلية والمقام.

التوسط في العبادة

لابدّ من الالتفات الى هذا الموضوع وهو ان الروايات أوصت كثيراً بأن لانُحمّل أنفسنا مجموعة من العبادات المستحبة في الوقت الذي ليس لدينا الاستعداد الروحي لأدائها، وأوصت بالاقبال على العبادة بنشاط مصحوب بالاستعداد والتوجه القلبي.

قال الصادق «ع»: (لا تكرِهُوا إلى أنفسِكُم العبادة)

وفي حديث آخر نقرأ: (لا تُكرِهُوا عبادة اللّهِ إلى عبادِ اللّهِ)(١)

و بخصوص تربية الأطفال جاءت الوصايا بأن نعطيهم حرية أكبر ولانسمح لهم بأداء العبادات الشاقة غير الواجبة، ولدينا في هذا المجال حديث أيضاً.

(١) الكافي، ج(٢)، ص(٨٦).

العدالة والوسطية في المدح والانتقاد

كما قلنا ان مسألة الوسطية ورعاية العدالة اتخذت موقعها في سُدى ولُحمَة الحياة الاسلامية. ومن المسائل التي يجب الالتفات اليها بدقة مسألة المدح والانتقادات الظالمة والتي تأتي في غير الموقع المناسب، والذي له آثار سيئة على الفرد والمجتمع.

يقول الامام علي «ع»: **(الثناءُ بأكثرَ منَ الاستحقاقِ مَلَقٌ والتقصيرُ عن الاستحقاقِ عيٌّ أو حَسَدٌ)**(١)

لابدَّ من رعاية العدالة والانصاف في مدح الآخرين والاّ فسوف نبتلي بأحد عيبين الملق، أو الجهل.

العدالة في الانتقاد والحبّ

ولابدَّ من رعاية العدالة في الانتقاد أيضاً، قال علي «ع»: **(الإفراطُ في الملامةِ يشُبُّ نيرانَ اللَّجاجةِ)**(٢)

فالزيادة في التوبيخ تؤدي الى أثر عكسي وتشتعل نار اللجاجة في نفس الذي يقع عليه اللوم مماينتهي به الى التمرد.

ولابد للآباء والأمهات من دقة ملاحظة مسألة الحبّ فالمحبة أكثر من الحدّ المطلوب تسبب نحاسة الطفل. والرسول «ص» يوبِّخ الأمهات والآباء الذين تؤدي زيادة تعلقهم بأبنائهم الى أنانية هؤلاء، ومن جهة أخرى فلا ينبغي ترك الطفل يشعر بنقص المحبة والعاطفة فقد جاء في

(١) نهج البلاغة، الحكمة (٣٤٧).
(٢) تحف العقول، ص(   ).

حديث (من كان له صبي صبا) فلابدّ من تأمين الحاجات المعنوية للطفل عن طريق مجاراة الطفل واللعب معه والتحدث اليه.

التوسط في الأنفاق

رغم ان بحثنا في هذه الحلقة منصب على العدالة الاجتماعية، الاّ ان تحليل بعض المسائل الأخرى في ضوء القرآن والحديث لايخلو من فائدة وارتباط بموضوع البحث هنا.

احدى هذه المسائل مسألة العدالة في الانفاق والمصرف المعيشي. الاسلام في هذا المورد كما في سائر الموارد الأخرى يقترح الطريق الوسط. وفي مدح اتباع الاسلام المخلصين يقول القرآن: (وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسرِفُوا وَلَمْ يَقتُرُوا وَكَانَ بَينَ ذٰلِكَ قَوَاماً)(١)

يوصي الله تعالى رسوله في سورة بني اسرائيل هذه الوصية: (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبسُطهَا كُلَّ البَسْطِ فَتَقعُدَ مَلُوماً مَحسُوراً)(٢)

مسألة التوسط في الحياة المعيشية مورد اهتمام الحديث وقد جاءت روايات كثيرة في هذا المجال تحت عنوان (الاقتصاد في المعيشة).

العدالة في محيط المنزل

(فَإِنْ خِفتُمْ أَلَّا تَعدِلُوا فَوَاحِدَةً)(٣)

راعى رسول الاسلام العزيز العدالة بين نسائه حتى اللحظات

(١) سورة الفرقان، آية (٦٧).

(٢) سورة الاسراء، آية (٢٩)، تحسن الاشارة الى ان سورة بني اسرائيل والاسراء إسمان لسورة واحدة.

(٣) سورة النساء، آية (٣).

الأخيرة من عمره حيث كان مريضاً. فقد كان «ص» ينقل سرير مرضه ليلياً الى غرفة الزوجة التي خصصت تلك الليلة لها. (١)

عائشة احدى نساء النبي «ص» تقول: لم يرجح النبي أياً منّا على الأخرى، وكان يتعامل مع الجميع بالتساوي. وفي كل يوم يمرّ على الجميع ويحيي كل واحدة منّا، و يتفقد أحوالها. أما المبيت فكان عند الزوجة التي خصصت لها تلك الليلة. واذا اتفق تغيير المبيت من محل الى آخر فكان «ص» يستأذن من صاحبة الحق، ثم تقول عائشة: أنا لم أعط ليلتي الى أي من نساء النبي «ص». (٢)

العدالة الاقتصادية

يقوم النظام الاقتصادي في الاسلام على أساس العدالة، بمعنى ان طرح برامجه جاء بالشكل الذي لايضيع معه حق كل فرد، و يستطيع كل انسان ان يأخذ حقه على أساس عمله او حاجته بالشكل الذي يهيء له الحياة المريحة.

مقدار العمل

أوصى الاسلام بضرورة تقسيم الوقت حسب المجالات المختلفة، فلنخصص ساعات للعمل وساعات للعبادة وساعات للترفيه واللذة المشروعة، ليستطيع الانسان من اشباع كامل حاجاته المادية

(١) نظام حقوق المرأة.

(٢) نهج البلاغة، ص

والمعنوية. (١)

من زاوية أخرى اذا بلغ عمل الشخص ونشاطه الحد الذي يمنع الآخرين عن العمل حينئذ يتدخل الحاكم الاسلامي للسيطرة على التخلخل. مثلاً: اذا قام شخص باحياء عشرات الكيلومترات من الأرض فالقانون الاسلامي (مَن أحيىٰ أرضاً مواتاً فهي له) يسمح له بالملكية هنا. ولكن اذا كان ثمن هذا الاحياء حرمان الآخرين وفقدان التوازن الاقتصادي المطلوب، فالولي الفقيه والحاكم الاسلامي يمكنه ان يحدد من دائرة احياء هذا الشخص وفق مقاييس العدالة. (١)

في نوعية العمل منع الاسلام أيضاً عن الأعمال التخريبية والتحذيرية التي تؤدي الى الفساد.

العدالة في التوزيع

يقول الامام علي «ع» في عهده لمالك الأشتر (انّ للأقصى مثل الذي للأدنىٰ) (٢).

فالميزانية العامة للدولة لابدّ ان توزع بالتساوي على جميع أبناء الشعب دون تفضيل الجماعات القريبة من مركز الحكم.

بعض الأنبياء مثل شعيب «ع» بعد أن دعى الناس للتوحيد والنبوة أصدر أول بيان له بشأن العدل في التوزيع وتحذير المتلاعبين في الميزان: (أَوْفُوا الكَيلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ المُخسِرِينَ وَزِنُوا بِالقِسطَاسِ المُستَقِيمِ وَلَا تَبخَسُوا النَّاسَ

(١) اقتصادنا.

(٢) نهج البلاغة، ص (٤٣٨).

أشياءهم وَلَا تَعثَوْا فِي الأرْضِ مُفسِدِينَ)(١)

وفي سورة المطففين نقرأ (وَيلٌ لِلمُطَفِّفِينَ)

ومعنى المطففين هو: الذين يَستَوفون حقَّهم في الميزان، و يبخسون الآخرين فيه.

العدالة في الاستهلاك

لابدَّ من رعاية العدالة في مقدار المصرف، والقرآن يصرح في آيات متعددة ما يلي:

(كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إذَا أثمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَومَ حَصَادِهِ)(٢)

فلابدَّ من اعطاء المحرومين حقوقهم الى جانب الاستفادة من المحصول وفي موقع آخر يقول:

(كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسرِفُوا).(٣)

(كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقنَاكُم وَلَا تَطغَوْا فِيهِ)(٤)، الطغيان في الأكل واستهلاك الطيبات.

يقول الامام علي «ع» في وصف المتقين: (وَمَلبَسُهُم الإقتصاد)(٥).

يقول الصادق «ع»: (لَوْاقتَصَدَ النَّاسُ فِي المَطْعَم لاستَقَامَتْ أبدانُهم)(٦)

ومضافاً الى رعاية العدالة في المصرف يؤكد القرآن على نوعية وهوية

(١) سورة الشعراء، آية (١٨١-١٨٣).

(٢) سورة الأنعام، آية (١٤١).

(٣) سورة الأعراف، آية (٣١).

(٤) سورة طه، آية (٨١).

(٥) أصول الكافي، ج(٢).

(٦) النظام التربوي في الاسلام، ص(٣٧٦).

المصرف فيقول: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللهَ﴾(١).

الرجوع الى حكم الأنبياء لأجل استقرار العدالة

الحياة ميدان تتضارب فيه مصالح الأفراد، وعلى اثر هذا التضارب يبرز حتماً النزاع والصراع بين أبناء المجتمع. ومن الطبيعي ان يرى كل طرف من الأطراف انه على الحق دون سواه، أو يصر على عدم التراجع عن دعواه. وهنا اتخذ الاسلام موقفاً لغرض استقرار العدالة بين الناس، وذلك بارجاعهم الى الأنبياء ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾(٢)

ومع ملاحظة الحديث الذي يقول: (العلماء ورثة الأنبياء)(٣) حينئذ لابدّ من الرجوع الى العلماء الذين هم ورثة علوم الأنبياء لأخذ حكم الله منهم في موارد النزاع التي يرافقها خطر الانحراف عن حد العدالة والتجاوز على حقوق الآخرين.

علامة مُدَّعِي الاسلام

الفرد الذي يترك الرجوع الى العلماء الأمناء، و يرجع الى محاكم الطاغوت لتفصل في نزاعه مع الآخرين فيتحاكم لديها، و يتوقع العدل من المتسلطين على رقاب الشعوب لابدّ أن يعيد هذا الفرد النظر في اسلامه وايمانه لأنه يتخيل انه مسلم والله يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ

(١) سورة الأنفال، آية (٦٩).

(٢) سورة النساء، آية (٥٩).

(٣) ولاية الفقيه، للامام الخميني.

أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ).(١)

الفقيه هو المشرف على اجراء العدالة الاجتماعية

خلقنا الله سبحانه وأوضح لنا برنامج السعادة الأبدية عن طريق الرسول «ص» وكان النبي «ص» قائد الأمة وحافظ حقوق الشعب والمسؤول عن هداية الناس.

ثم انتهى الدور بعد النبي «ص» الى الأئمة عليهم السلام الذين كانوا كالنبي العظيم في جملة صفات الكمال والعصمة واللياقة فتعهدوا قيادة الأمة.

وفي زمان الغيبة فهذه المسؤولية بعهدة الفقهاء المطلعين على الاسلام الذين يستطيعون استنباط الحكم الإلهي من بين ثنايا القرآن والسنة وان يكونوا على درجة عالية في مجال الاجتهاد والاستنباط لكي يصح اطلاق مصطلح الفقيه عليهم... مضافاً الى العدالة الكاملة واللياقة المناسبة وتمتعهم بالرؤية السياسية والقدرة الادارية.

وفي الرسالة (التوقيع) الصادرة عن الامام المهدي يوصي «عج»: (وَأَمَّا الحَوادِثُ الواقِعةُ فَارجِعُوا فيها الى رواة أحاديثنا)(٢) فارجع الأمة الى الفقهاء لكي يبينوا حكم الله وطريقه في الحوادث التي تطرأ على حياة الأمة وتحتاج الى تصميم القائد.

(١) سورة النساء، آية (٦٠).
(٢) ولاية الفقيه للامام الخميني.

ولاية الفقيه سند العدالة الاجتماعية

نقرأ في الحديث عن الرضا «ع»: **(لولم يجعل لهم إماماً قيّماً حافظاً مستودعاً لدرست الملة)**(١) يعني لولم يجعل الله لهم اماماً لدرست الملة يعني لانمحت الأمة الاسلامية عن الوجود.

وفي حديث آخر نقرأ **(الفقهاء أمناء الرسل)**(٢)

وجاء في الأثر عن (أبي خديجة) أحد أعوان الامام المعتمدين انه قال: بعثني أبوعبدالله (الصادق) عليه السلام الى أصحابنا فقال: **قل لهم: إياكم اذا وقعت بينكم خصومة اوتداري في شيء من الأخذ والعطاء ان تحاكموا الى أحد من هؤلاء الفساق، اجعلوا بينكم رجلاً قد عرف حلالنا وحرامنا فاني قد جعلته عليكم قاضياً...)**(٣)

يتفق ان تقع بعض الأحداث الاجتماعية التي لم يحدد لها حكم صريح في القرآن والسنة، لكن القواعد والأصول العامة التي يمتلكها الفقيه تمكنه لتحديد الحكم في هذه الأحداث.

حينما يفقد المجتمع توازنه السياسي والاقتصادي او الأمني فللفقيه ان يتدخل بما له من صلاحية الاشراف والولاية على حياة المجتمع الاسلامي. ولأجل أن يعيد التوازن يصدر أوامره في تحريم بعض المعاملات، أو الدعوة الى التعبئة العامة، أو فرض ضرائب مالية مؤقتة، أو حلّ بعض الشركات التجارية.

أصدر المرحوم الميرزا الشيرازي فتواه بتحريم التنباكو وحينما رأى ان

(١) علل الشرائع ١٧٢/١، الحديث ٩، نقلاً عن ولاية الفقيه للامام الخميني ص٨٢.
(٢) الكافي، كتاب فضل العلم، الباب ١٣، الحديث ٥ نقلاً عن ولاية الفقيه للامام الخميني ص٧٥.
(٣) الوسائل، ١٠٠/١٨، الرواية ٦، نقلاً عن ولاية الفقيه للامام الخميني ص١٠٦.

اقتصاد ايران المسلمة قد وقع في قبضة الانكليزعن طريق استعمال مادة (التنباكو). فسدّ الفقيه الشيرازي بفتواه على الانكليز طريق استغلال وظلم الشعب المسلم.

الامام الخميني أصدر الأمر للعسكريين بالفرار من معسكرات النظام الشاهنشاهي، واستطاع خلع الشاه المقبور عن الحكم.

قصة حقوقية وقاعدة فقهية

حرية المسكن احدى أشكال الحريات التي منحها الاسلام للانسان: ﴿لاتَدخُلُوا بُيُوتاً غَيرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَستأنِسُوا﴾(١)

غير ان رجلاً فضولياً ومزاحماً اسمه (سمرة بن جندب) كانت له نخلة في حائط رجل من الأنصار. وكان منزل الأنصاري بباب البستان فكان يمرُّ به الى نخلته ولايستأذن، فطلب الأنصاري منه الاستئذان، فأبى سمرة، فذهب الرجل الى رسول الله «ص» فشكاه، فقال: يا رسول الله ان سمرة يدخل عليَّ بغير اذني فلوأرسلت اليه فأمرته ان يستأذن حتى تأخذ أهلي حذرها منه، فأرسل اليه رسول الله «ص»، فدعاه فقال «ص»: يا سمرة ما شأن فلان يشكوك و يقول: يدخل بغير اذني... يا سمرة اذا أردت الدخول فاستأذن، فلبى، فلما أبى ساومه، وقال رسول الله «ص»: يسرّك أن يكون لك عذق في الجنة؟ قال: لا، قال «ص»: لك ثلاثة، قال: لا، قال «ص»: ما أراك يا سمرة الاّ مضاراً.

فخاطب رسول الله الأنصاري وقال له اذهب فاقطعها واضرب بها

(١) سورة النور آية ٢٧.

وجهه. (١)

(لا ضررَ ولا ضِرارَ في الاسلامِ)...

عوامل الانحراف عن العدالة

هناك ثلاثة عوامل أساسية للانحراف عن حدّ العدالة أشار لها القرآن: العامل الأول: حبّ الذات والارتباطات والعلاقات يقول القرآن: (يا أيُّها الّذينَ آمَنُوا كُونُوا قَوّامِينَ بِالقِسطِ شُهَداء لِلّهِ وَلَوْ عَلىٰ أنفُسِكُم أو الوَالِدَينَ وَالأقرَبِينَ إنْ يَكُنْ غَنِيّاً اوفقيراً فَاللّهُ أولىٰ بِهِما)(٢).

فهذه الآية تشير الى العلاقات الخطيرة على تحقق العدالة، وتحذر من آثار الصداقة والعلاقات العاطفية والعائلية في الابتعاد عن حريم العدالة.

العامل الثاني

العامل الثاني الذي يحول دون حركة الانسان على خط العدالة هو، استياء الانسان من فرد او جماعة، وفي هذا المجال يقول القرآن: (يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوّامِينَ لِلّهِ شُهَداء بِالقِسطِ وَلايَجرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَومٍ عَلىٰ ألاّ تَعدِلُوا إعدِلُوا هُوَ أقْرَبُ لِلتَّقوىٰ) (٣)

شنآن قوم = بغض قوم.

وتلاحظ في هذه الآية لفتة خاصة لمسألة البغض والاستياء والعداء الذي يؤثر أحياناً على تصرفاتنا وأحكامنا.

(١) وسائل الشيعة، ج١٧، ص(٣٤٠).

(٢) سورة النساء، آية (١٣٥).

(٣) سورة المائدة، آية (٨).

العامل الثالث

ثالث عامل يخرج الانسان عن حريم العدالة هو الرشوة، والقرآن في هذا المجال يحذّر بهذه الآية: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُم تَعْلَمُونَ﴾(١)

فلوفرضنا ان القاضي أصدر حكماً لصالحك وأنت تعلم ان هذا الحكم صدر لأجل الرشوة التي أعطيتها للقاضي، فالتصرف بالمال الذي حصلت عليه بموجب حكم القاضي حرام، لأن حكم القاضي الظاهري لايسبب ملكية للشخص الذي يعلم يقيناً بمخالفة حكم القاضي للحق.

جاء في الحديث المشهور عن رسول الله «ص»: (لعن الله الراشي والمرتشي والساعي بينهما)

قال الصادق «ع»: (وأمّا الرشا في الحكم فهو الكفر بالله العظيم.)(٢)

ولايخفى ان هذا العمل المنحرف يتستر أحياناً بأسماء خادعة، مثل الهدية، ورد الجميل، والحق...

وقد أخبر رسول الله «ص» ان أحد ولاته أخذ الرشوة بعنوان الهدية فغضب رسول الله «ص» وقال له: لِمَ أخذتَ شيئاً ليس هو بحق لك؟ فأجابه: ما أخذتُه كان هدية ولم يكن رشوة. فقال له رسول الله «ص» (أرأيتَ لوقَعَدَ أحدُكُم في داره ولم نولّه عملاً أكان الناس يهدونه شيئاً؟!)

ونلاحظ في أحكام الشريعة ان الاسلام يكره للقاضي ان يذهب بنفسه الى الأسواق، لتجنب الأثر اللاشعوري لتسامح البائع معه بتخفيف الأسعار فيؤدي به الى التسامح في الحكم مع هذا البائع.

(١) سورة البقرة، آية (١٨٨).

(٢) وسائل الشيعة، ج (١٢).

آية شيَّبتْ الرسول «ص»

روي عن النبي «ص» انه قال: (شيَّبتْني آية في سورة هود وهي «اسْتَقِمْ كَمَا أُمِرتَ»)...

وحينما نتأمل هذه الآية نجد ان مسألة الاستقامة والصبر ليست هي المسألة الأساسية في الآية. بل الخصوصية هي في قوله (كما أُمرتَ). اذ ان الاستقامة والتحمل يمكن ان تكون أحياناً بسبب التعصب والاصرار وليست منبعثة عن الأمر الإلهي.

ويمكن ان يكون التحمل حيناً آخر لأجل ان لايقول الناس تعب فلان أو عجز وخاف ففرّ من الميدان، وأحياناً بالاضطرار وأخرى لأجل ابراز العضلات.

والاستقامة في كل هذه الموارد لاقيمة لها بالنظرة الإلهية اذ انها خارجة عن دائرة الحقيقة، ولم تأت كما أمر الله، ولذا نجد في القرآن قوله تعالى: (وَالَّذِينَ صَبَرُوا ٱبْتِغَاء وَجهِ رَبِّهِم)(١)

خلاصة الكلام هي: ان تطبيق العدالة والعمل والتحرك وفق المعايير الإلهية عمل شاق بحيث انأولياء الله طلبوا منه العون لاجراء هذا العمل. ويمكن ان يكون المراد من الصراط الذي هو أدق من الشعرة وأحدّ من السيف، والذي لابدّ ان يعبره كل الناس هو هذا الخط الإلهي الذي حُدد لنا في الدنيا والذي هو حقّاً أدق من الشعرة.

(١) سورة الرعد، آية (٢٢).

استقرار العدالة الاجتماعية تابع لتحكيم الرقابة العامة.

حينما تتحرك كل السيارات على الجانب الأيمن و يكون كل سائق مراقب لمسير الآخر. وبمجرد مشاهدة سائقي السيارات مخالفة من سائق آخر فسوف يشعلون مصابيح السيارات و ينبهون المخالف بأبواق السيارات، مضافاً الى تدخل الشرطة بحزم. وفي صورة غفلة شرطة المرور عن المخالف يخبر الناس أنفسهم الشرطة. في هذه الصورة وفي هذا المحيط يندر ان تجد سائقاً يسمح لنفسه بالمخالفة.

كان المثال السابق نموذجاً والآن اذا أردنا ان لاتخرج الأمة عن حريم العدالة والقانون فلابدَّ لنا من الاستفادة من أصلين تشريعين وهما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وان لانقف مكتوفي الأيدي في مواجهة أي مخالفة.

* * *

على أمل اليوم الذي تسري فيه تجربة ثورتنا الثقافية الى سائر جامعات العالم. وفي ذلك اليوم سوف يعلن الطبيب الذي لايقدر على تشخيص الداء و يقول بصدق: لم أفهم، و باخلاص يرجع للمريض النقود التي استلمها لفحصه ويهديه الى الطبيب المختص. وذلك اليوم هو اليوم الذي سوف نشاهد فيه نموذج العدالة الاجتماعية في المجتمع الانساني.

الحلقة



النبوة




القسم الأول:

الحاجة الى الأنبياء

على أساس النظرة الإلهية للعالم، وفي ضوء تفسيرنا للانسان والعالم فالحاجة الى الأنبياء مسألة مسلَّمة ولامجال للشك والترديد فيها.

وذلك لأن عالم الوجود اذا كان له هدف، و يتحرك في خط سليم فلابدَّ لهذا الانسان -بوصفه أحد أجزاء العالم- من خطٍّ صحيح (منزه عن الخطأ والانحراف) وهذا هو خط الأنبياء.

وإنْ لم يكن للانسان خط من هذا القبيل فسوف يكون جزءً غير متماثل مع الوجود الَّذي يسير في خط صحيح وضمن حركة هادفة.

اذا كان وراء ابداع الانسان هدف، وانه لابدَّ أن يصل الى مقره الدائم و يذهب لسعادته الأبدية، فهذا الهدف ليس عملياً ما لم يكن له طرح شامل ومشخصات يسعى الانسان لتحقيقها، والأنبياء هم

المسؤولون عن تقديم هذا الطرح وتحديد هذه المشخصات.

اذا كان الانسان يغفل ويحتاج الى منبِّه، فالأنبياء هم المنذرون المنبهون في المجتمع البشري.

اذا كان الانسان مسؤولاً ولابدَّ له من تقديم حسابه في محكمة العدل الإلهي إذن فيلزم أن يكون هناك مبيِّن للأحكام والمسؤوليات، وكان هذا دور الأنبياء العظام.

اذا كان لابدَّ للانسان من التفكير في مستقبله فلابدَّ من وجود شخص يوضح المستقبل للانسان. وفي هذا الايضاح والرؤ ية يتضح دور الأنبياء في موكب الانسانية.

اما في ضوء النظرة الماديّة للعالم فليس هناك مجال لطرح مسألة النبوة أساساً، اذ أنَّ هذه النظرة ترى أنَّ الوجود ليس له هدف وطريق مشخص من قبل، وأن الانسان أيضاً خلق بلا تخطيط مسبق، وسوف ينتهي بعد حين الى عالم الفناء.

على هذا الأساس فمسألة النبوة ترتبط بشكل مباشر بجوهر حياتنا، الذي يعني الوصول الى الهدف الانساني والاسلامي، وهذا الوصول لايمكن إلاّ عن طريق واحد وهو الطريق المنزه عن السهو والشك، الطريق الذي ينبع من العلم الإلهي الّذي لانهاية له، والذي يعي كل العوامل الدخيلة في سعادتنا وشقائنا.

وطريق الأنبياء هو الطريق البعيد عن كل ألوان الاستغلال والذاتية وهو الطريق الذي يجذب الانسان.

ونحن حيث قُدِّرَ لنا أن نعيش في دنيا العلم والتقنية نشهد اليوم ألوان الانحرافات والجنايات التي يرتكبها الأفراد والشعوب بسبب ضياعهم عن الهدف وعدم كونهم في خط الأنبياء.

وقد حوّلوا كل هذه الاختراعات والاكتشافات الى جهنّم تحترق بها البشرية.

وفي مجلس الأمن الدولي الذي جاء للانقاذ من الظلم! نرى بأمّ أعيننا حق الفيتو الظالم. ومع وجود ملايين البطون الجائعة تُصرف الميزانيات المالية من أجل سباق التسلح، ورغم كل وسائل الترفيه الاّ أن الاطمئنان يغيب عن الأبصار و يلجأ الناس جماعة جماعة الى الانتحار والإدمان على المخدّرات واستخدام الأقراص المنومة.

مع مشاهدة مثل هذا الوضع فهل هناك مجال لأي ترديد في حاجة الانسان الى قائد معصوم وخط سالم؟!

علامة فقدان المعرفة الواقعية بالله

إنتخبنا النظرة الإلهية للعالم بهداية العقل. وقبلنا حركة الخلق نحو هدف وغاية، وان جميع الموجودات تحت نظر الله، وقد وضعت تحت اختيار الانسان، وخلقت ليستفيد منها.

نحن الذين إنتخبنا كل هذا كيف نقبل أن الانسان نفسه ـ هذا الموجود المختار الوحيد من بين الموجودات في ارادته واختياره، وزهرة الموجودات اليانعة ـ قد تُرك لحاله في هذا العالم متحيراً بلاطريق وتوجيه، ولم يرسم مدار لحركته السليمة ولم يُعين له قائد يوجّهه؟

فهل تنسجم هذه الرؤ ية المنحرفة مع معرفة الله؟

الجواب نأخذه من القرآن نفسه حيث يقول ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾«١»

(١) سورة الأنعام، آية (٩١)

حقاً كيف يمكن أن يخلق الله الحكيم كل الموجودات لأجل الانسان و يتركه وحده بلابرنامج، ألم يكن هذا العمل مخالفاً للحكمة الإلهية ؟

واذا قبل شخص هذا الخيال فهو لا يعرف الله حقاً.

يتضح لنا دور الأنبياء والحاجة لهم حينما نقارن بين النظم الوضعية والرسالة السماو ية ونعي نقاط ضعف تلك النظم، وان نعرِّف الآخرين بالنماذج التي تربت في ظلال رسالة الأنبياء.

الحاجة للأنبياء

إهتم الاسلام كثيراً بالعلم والعقل حتى اعتبر العقل الرسول الباطني، وجاء العقاب والثواب على أساس العقل، وقد أمر القرآن مكرراً بالتعقل، وخاطبت الكثير من الآيات أهل الفكر والعقل فقط.

وقد استخدم الاسلام في مجال التعريف بالعقل أفضل التعابير، منها: ان العقل هو الواسطة التي يعبد بها الله. وفي روايات أئمتنا المعصومين عليهم السلام اجلال كبير للعقل والفكر يندر أن يحترم موضوع آخر، كما احترم العلم. وحينما يصفون شخصاً للامام بكثرة عبادته يقول(ع) (كيف عقله ؟).

اختص القسم الأول من كتب الرواية المعتبرة في مدح العقل والعلم. وأي مذهب من مذاهب العالم لم يلزم كل الناس بتحصيل العلم كما ألزم الاسلام، والاهتمام الذي أكّده الاسلام بالعلم أيام الجاهلية لم يؤكّده أي مفكر في أي مكان في العالم حتى هذه اللحظة.

فأي مذهب يقرر أن تحصيل العلم من المهد الى اللحد، وأي مذهب

يقرر أن موضوعه من معرفة الحيوان حتى معرفة الفلك، وأي مذهب يدعو لطلب العلم حتى من الأعداء و يدعو للرحيل في سبيل تحصيله حتى ولو كان في الثُريَّا من السماء.

ولكن هذا العلم والعقل لا يغنينا أبداً عن الأنبياء للأسباب التالية:

١ ـ محدودية علم الانسان

يزداد عدد الجامعات والاختصاصات، ويحظى الانسان باختراعات واكتشافات جديدة يوماً بعد يوم. وعندما نوكل الانسان الى علمه وعقله فقط فاننا نضعه في الحقيقة تائهاً في أرض وعرة، لأنَّ فهم وتفكير الناس مختلف ومتفاوت. وتنبع أكثر الاختلافات والنزاعات الخطيرة من الأفراد الواعين والعناصر العاقلة، والعلم والعقل الذي تنشأ تحت ظله كل هذه النزاعات، كيف يكون رافعاً للنزاعات والاختلافات؟ فعسى أن يدرك شخص ما أن عملاً من الأعمال خير وحسن، ولكن شخصاً آخر لا يدركه.

نعم معرفة الانسان محدودة فهو لا يملك معلومات صحيحة عما كان في الماضي ولا عما سوف يكون في المستقبل. وليس لديه اطلاع دقيق عن ردود أفعاله المباشرة أو غير المباشرة.

وكم جميل ما قيل ان علم الانسان بالنسبة الى جهله كقطرة الى بحر، او كسُلَّم قصير للتحليق في الفضاء.

والمؤشر الواضح الآخر لهذه المحدودية تغيير القوانين في جميع الدول، وتبدل قرارت كل فرد منا.

٢ ـ عقبات المعرفة

أحـد الأبحاث التي تُطرح في موضوع المعرفة هو موانع وعقبات المعرفة. مع انّ الانسان يمتلك العقل والفكر والقدرة على التحصيل الاّ انه يقع أحياناً في سياق طوفان الغرائز والشهوات بحيث يفقد معها القدرة على المعرفة الواقعية. وقد التفت القرآن والحديث كثيراً لهذه الموانع، فكل من الغضب والشهوة والعلاقات والعصبيات والرغبات يمكن أن تكون مانعاً دون المعرفة السليمة وتحجب الانسان عن ادراك الأمور الواقعية.

مثال

لتنظيم الرحلات والسفرات العامة تُستخدم طريقة توزيع البطاقات على المسافرين لحجز مقاعد السيارة. ولكن توزيع البطاقات يكون عادلاً وواقعياً حينما لا تحكم الغرائز الشخص المسؤول عن توزيعها والاّ اذا كانت زيادة ثمن البطاقة من قبل المسافر ذات أثر على الموزِّع، أو كانت العلاقات الشخصية مؤثِّرة عليه، أو كان المركز الاجتماعي وهيبة المسافر لها أثر على الموزِّع، فحينئذٍ لايمكن اطلاقاً ان تُوزع البطاقات بشكل عادل. فاذا كان تنظيم السفر في سيارة واحدة بحاجة واقعية كاملة وتجرد عن التبعية لهذا أو ذاك لكي تصدرَ البطاقة صدوراً عادلاً ١٠٠٪، فكيف يمكن ان نوكل وضع القانون الذي ينظم حياة مجتمع بكامل أبعاده المختلفة الى عناصر وأفراد تلعب بهم ميولهم وارتباطاتهم كل لحظة الى هذه الجهة أو تلك.

خلاصة الكلام هي أن الانسان بحكم كونه خاضعاً لغرائزه ولايستطيع ان يكتشف الواقع كما هو، و يفقد المعرفة السليمة في بعض

الواقع، فليس له حق التشريع والتقنين. القرآن الكريم يقول: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾«١»، واذا اصطلحنا على مجلس الشورى الاسلامي بأنه القوة المقننة فالمراد بهذا الاصطلاح في الواقع هو تطبيق القوانين لا وضعها

٣ ـ العلم يطّلع ولكن بعد قرون

يصل الانسان أحياناً الى الواقع بعد مرور زمن، و بفضل التقدم العلمي. لكن على عاتق مَن تقع مسؤولية التأخير ولمئات السنين؟ فمثلاً في حدود خمسين عاماً ثبت ان أكل لحم الخنزير يسبب تكاثر أنواع من الديدان، فَهَمَ الانسان هذه المسألة بعد سنين طويلة، أمّا الأشخاص الّذين عرفوا حرمة لحم الخنزير عن طريق الوحي فقد كانوا في حصانة من خطره قروناً من الزمن، لدينا عشرات الأحكام التي اكتُشفت أسرارها بمرور الزمن و بفضل التقدم العلمي، ولكن اتباع رسالة الأنبياء وضعوا أنفسهم في الطريق الذي يصل اليه العلماء المعتمدون على تجربتهم وعلمهم بعد قرون.

٤ ـ يمكن للانسان ان يتقدم خطوة الى الامام و ينتخب طريقه وأسلوبه في المسائل المادية والحسيّة فقط وذلك بفضل علمه وعقله ومتابعته.

اما في المسائل المعنوية والتربية الروحية والسعادة الأبدية فحيث ان باع الانسان فيها قصير فليس لدينا طريق غير طريق الوحي والأنبياء.

ونحن نختلف مع الجماعة التي تتخيّل أنّ الوجدان الأخلاقي وحده يكفي لهداية الانسان وليست هناك حاجة لدينا لهداية الأنبياء.

(١) سورة الأنعام، آية (٥٧)

لا بدّ ان نقول ان هذا الوجدان الأخلاقي تابع لنا ولمجتمعنا بحدود كبيرة، و يتلون بالمحيط والعادة وليس دليلاً اطلاقاً على الواقع الحقيقي. خذ السيكارة مثلاً فهذه السيكارة المرة يرفضها كل وجدان سليم، ولكن بحكم العادة والمحيط يصل الانسان تدريجياً الى الالتذاذ بشربها.

نحن نعرف أشخاصاً يشمئزّون من قطع رأس دجاجة ولا يسمح لهم وجدانهم بذلك ولكن بعد الاقدام على الذبح بين حينٍ وآخر يتغيَّر ذلك الاحساس والوجدان.

كيف يمكن الاعتماد على الوجدان الأخلاقي في الوقت الذي يكون فيه حكم الوجدان مختلف باختلاف الأفراد وتابع بحدود كبيرة لعلم ووعي الأفراد. مثلاً: شاهدنا شخصاً فجأة يُسحب الى مقصلة الإعدام وقد شُدت عيناه، ونحن لم نكن في جو جريمته وذنبه، حينئذٍ تتولد في نفوسنا حالة لا يحس بها القاضي أبداً بحكم اطّلاعه على ظروف الجريمة التي لا تُغفر.

ونحن لا ننكر أصل الوجدان الأخلاقي والفطري ودوره، الامام علي (ع) يشير الى ان الانبياء جاءوا ليُحيوا هذه الفطرة و يزيلوا عنها الحُجب. لكن بحثنا في انه هل يمكن الاكتفاء بهداية الوجدان فقط أو لا؟ والجواب بالنفي حتماً.

٥ــ الأمر الخامس الذي يوضّح لنا الحاجة الى الانبياء، و يضعف اطمئناننا بالقوانين الوضعية هو وجود مجموعة استفهامات وشكوك طبيعية لدى الانسان، من قبيل ان هؤلاء الأفراد الذين يعتمدون عقولهم وعلومهم و يضعون لنا القانون:

أ ــ من أين لهم أن يعرفوا تمام أبعاد شخصية الانسان، وحاجاته؟

ب ـ من أين لهم حبّ الخير للانسانية ؟

ج ـ هل أن القانون والطريق الذي يبيّنونه خال من السهو والخطأ ؟

د ـ من أين نعرف ان هؤلاء لم يلاحظوا في وضع قوانينهم مصلحة فرد أو جماعة خاصة، ولم يبدل محيط ونظام الأسرة والقبيلة والحياة الاقتصادية مسيرة معرفتهم الواقعية ؟

هـ ـ من أين نعرف ان آثار ومردودات هذه القوانين لا تلحق الضرر بالفرد أو المجتمع عاجلاً أو آجلاً ؟

هذه مجموعة استفهامات وشكوك حينما نضيفها الى الماضي الأسود لدعاة حماية حقوق الانسان والعناصر التي تصرخ وتنادي بالعدالة الاجتماعية تتحول حينئذٍ الى يقين. وقد عرف الجميع ان هؤلاء الحماة لم يخطوا خطوة مؤثرة لنجاة المحرومين والمستضعفين، و يندر أن يكون هناك شخص مطّلع على هذه السابقة والتجربة المرة ويحس مع ذلك بالأمل في تطبيق القوانين الأرضية.

واذا وجدنا تطبيقاً لهذه القوانين التي انبثقت من أفكار السياسيين والحقوقيين في مناطق من العالم، فهذا التطبيق لأجل ادامة المعيشة المادية أو خوفاً من مخالفة الدولة وعقابها، وليس هناك إحساس داخلي بالعشق وحرارة الارتباط وقدسيته في نفوس اتباع المبادىء والقوانين الاّ في نفوس اتباع رسالة الانبياء.

حقاً فالانسان الذي وُلِدَ حُراً وَخُلِقَ حراً لماذا يتحول الى عبد مطيع لأمر هذا وذاك ؟

نعم فهذه الأفكار والشكوك تقتل عشق العمل وتجمّد حرارة الشوق في نفس الانسان، فييأس. و يتضح هذا اليأس وعدم الارتباط خصوصاً في الوقت الذي لا يندفع الانسان فيه للارتباط والأمل عن أي طريق، اذ

ان الانسان يلاحظ انه بمجرد مخالفة هذه القوانين تواجهه المحاكم والمحاكمات للتحقيق والجزاء، في حين انه قضى عمراً ليتحرك وفق هذه القوانين ولم يحسب له أي تقدير على ذلك، وهذا بخلاف القوانين السماوية التي حددت للمخالفين والمذنبين جزاءً تأديبياً، كما أعدت للعناصر التقيّة والمطيعة اجراً وثواباً أيضاً. بل قد حُدِّدَ في رسالة الانبياء أجر وثواب للخطوات التي يخطوها الانسان على طريق الهدف، وهذا امتياز آخر لطريق الانبياء.

نجمع أطراف الحديث ببيان مثال:

تخيل ان هناك مضيفاً دعى ضيفاً لمنزله، لكن الضيف لا يعرف الطريق المؤدي الى المنزل من جهة، ومن جهة أخرى هناك في الطريق الى المنزل طرق فرعية وملتوية، كما ان هناك حيوانات مفترسة وقُطاع طرق، والوقت ليل مُظلم...

في هذا المثال هناك طريقان فقط:

١ــ ان يصرف المضيف النظر عن الضيف ولا يُهيّء له الطعام واذا اتفق انه قد هيّأ طعاماً فيصرفه بطريقة من الطرق.

٢ــ ان يرسل المضيف شخصاً واعياً ومهتماً وبصحبته فانوس أو مصباح يدوي وسلاح ليذهب ويهدي الضيف الى الطريق. وفي غير هذه الصورة فان الدعوة تُلغى من الأساس.

الآن وقد اتضح المثال نعود الى صلب الموضوع. الله تبارك وتعالى أبدع العالم بأسره ليستفيد منه الانسان، ودعانا جميعاً لعبادته وللسعادة الأبدية عنده. ومع ملاحظة اننا لا نعرف الطريق أو نخطأ في تشخيصه، وفي مسير حركتنا نصطدم بخطوط الانحراف والوسوسة الشيطانية والطواغيت وظلام الشرك والجهل والتفرقة، وأحياناً نهدد في وسط

الطريق ونجبر على الانحراف. فالمضيف الذي هو الله سبحانه وتعالى اذا لم يرسل لنا هادياً كالنبي يحمل في يدٍ نوراً كالمعجزة التي تقدم لنا طرحاً شاملاً وترسم أهدافاً محددة كالقرآن ويحمل في اليد الأخرى القوة والسيف، حينئذٍ فالدعوة التي دعانا الله لضيافته فيها تصبح لغواً وعبثاً، ولايتحقق الهدف النهائي من ارسال الانبياء، لأن الهدف من بعثة الأنبياء هو حركة الانسان باتجاه الكمال الواقعي. وكل حركة تحتاج الى مبدأ ومسير ومركز وهادي، والحاجة الى الهادي والقائد أكثر ضرورة من سائر الحاجات هنا، اذ لولم يكن هناك قائد صالح يوجه المسير فكما نضل الطريق والهدف نستخدم أيضاً الوسيلة غير الصالحة.

على هذا الأساس فدور الأنبياء هو: ان الوجود أبدع للانسان والانسان أبدع وخلق للحركة الى الله. ولايمكن الاطمئنان برشد هذه الحركة الاّ عن طريق الوحي والانبياء.

فرق بين عمل العلم وعمل الأنبياء

قلنا في الدروس السابقة أن العلم لايؤدي دور الأنبياء والآن نقدم بعض الأفكار بشكل ملخص وببيان أكثر سرعة وتلخيصاً:

العلم يعمل في الطبيعة، الأنبياء مع الانسان.

العلم يقدم لنا وسائل، الأنبياء يحددون الهدف.

العلم يساعدنا على الاسراع في أعمالنا، الأنبياء يحددون لنا جهة هذه الأعمال.

العلم يتحدث عن الموجود، الأنبياء يتحدثون عماينبغي أن يوجد.

العلم يخطط للثورة في عالم الشكل الخارجي، ثورة الأنبياء تشمل الشكل والمضمون أيضاً.

العلم يوسع الامكانات، الأنبياء يصعّدون الامكانات.

العلم مصباح، الدين مصباح وطريق.

المعارف والأفكار البشرية تتضارب لكن الأنبياء جميعهم في اتجاه واحد.

يتخيل الانسان أحياناً أنه فهم حقيقة من الحقائق ثم يتضح انه لم يفهم أصلاً، فالعلم يختلط أحياناً بالخيال، ولكن لا طريق للخيال الى الوحي.

لكي نختصر الحديث نلقي نظرة أخيرة على عصرنا الحالي فنلاحظ أن أطراف العلم تتسع يوماً بعد يوم الاّ أن تعداد الجرائم لايقلّ أبداً.

بيان آخر للحاجة الى طريق الأنبياء

أنت كلما تمرض تعرض نفسك على الطبيب، وسيارتك حينما تعطل تضعها في يد الميكانيك، وعلّة هٰذين العملين واضحة: لأن الطبيب بالنسبة الى بدنك والميكانيك بالنسبة الى سيارتك اعلم منك وان لم يكن أكثر حرصاً وعطفاً.

ونحن في انتخابنا للطريق لابدّ ان نضع أنفسنا في طريق الله ورسالة الأنبياء، لأن الله أعلم منّا كما هو أرحم منّا، وكما يقول القرآن: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً﴾«١»

اللّه أعلم منّا لأنّه خلقنا، وصنع كل شيء، لديه الاطلاع الكامل والكافي على مصنوعه، يقول القرآن: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾(٢).

(١) سورة المائدة، آية (٥٠)

(٢) سورة الملك ، آية (١٤)

ينقل عن المرحوم الشهيد نواب الصفوي مثال جميل حيث يقول:

أنت حينما تشتري أي محصول أو سلعة من أي معمل فالذي يحدد تعليمات الاستفادة من هذه السّلعة لابدّ ان يكون المهندس الذي صنع هذه السّلعة وليس لغيره حق في اصدار التعليمات. والانسان ليس أقل من سلعة ومنتوج معمل فلابدّ أن يصدر له الله تعليمات الانتفاع من وجوده والله هو الّذي صنعه وهو الذي يعلم جميع حاجاته المادّية والمعنويّة و يعلم أيضاً مستقبله ومسيره الأبدي.

بيان أخير للحاجة الى الأنبياء

لابدّ للانسان في حياته من انتخاب طريق، والسؤال هنا هو من أين يأخذ هذا الطريق:

١ـ وفق ميوله وفهمه الشخصي يختار طريقاً.

٢ـ ينتخب الآخرون له طريقاً.

٣ـ يتخذ مسيره في ضوء ما جاء به الأنبياء عن طريق الله.

متابعة قصيرة تنتهي بنا الى الطريق الثالث. لأن التجربة أثبتت أنّنا اخترنا مرات متعددة طريقاً ثم اكتشفنا خطأنا وغيّرنا الطريق. فهل تجد شخصاً لم يندم آلاف المرات على سلوكه. ونتيجة محدودية علمنا وتأثر عقلنا بالمشاعر والاحساسات والمحيط والغرائز نكون سيّئي الظّن بمعارفنا وميولنا وفي ضوء هذا الدليل نترك الطريق الأول.

والطريق الذي يحدده الآخرون لي لاقيمة له أيضاً اذ كما ان محدودية العلم والعقل وتأثير الغرائز يغيّر طريقنا فكذلك يوقع الآخرين بالاشتباه والخطأ.

الطريق الوحيد هو ذلك الطريق الذي يأتي من الله عن طريق الوحي و يعرض علينا بواسطة الانبياء المعصومين عن الخطأ والاشتباه.

هل يمكن أن نقف مكتوفي اليدين إزاء نداء الأنبياء؟

مؤشرات كثيرة تدفعنا باتجاه الأنبياء، ننقل نماذج من هذه المؤشرات هنا:

١ ــ شرع الأنبياء على طول التاريخ بانتفاضات مجهدة وذهبوا في طريقهم حتى الشهادة، وكان الماضي المشرق لهؤلاء العظام واضحاً لدى الصديق والعدو بالشّكل الذي لم يصدر فيه من أعداء هؤلاء الأنبياء اتهاماً بالمخالفة أو الذنب، وقدّموا الأدلة والمعجزات الكثيرة، واستطاعوا الحصول على الاتباع المخلصين. ومن خلال كل نهضات الأنبياء نحتمل المسؤولية والعذاب الإلهي وهذا يكفي وحده لاعادة النظر في طريقنا واتخاذ طريق الأنبياء حصانة لنا حسب قاعدة: (ان دفع الضرر المحتمل واجب)، ولايمكن القول أن احتمال الضرر ضعيف لأن الاحتمال مهما فرضناه في نفوس العناصر اللجوجة ضعيفاً الاّ ان مورد الاحتمال هو خطر العذاب الشديد والأبدي ولذا يجرنا عقلنا للتحقيق في طريق هؤلاء العظام وتجديد النظر في الطريق الذي نسلكه.

٢ ــ منذ قديم قيل: تعلَّموا الأدب من غير المؤدبين، وذلك بأن نؤدي العمل المخالف لكل عمل يعمله أولئك.

وهنا اذا نظرنا نظرة لمعارضي الأنبياء فسوف نشاهد انه قديماً كان أبولهب وأبوجهل... واليوم المعسكر الشرقي والغربي و(القوى) العظمى هي المخالف اللَّدُود لطريق الأنبياء.

ونحن ننتهي من خلال مخالفة هذه القدرات الضالّة الى حقّانية طريق الأنبياء.

٣ـ المسألة الثالثة التي تدفعنا لمتابعة طريق الأنبياء وتلزمنا بذلك هي: أن الاحساس الفطري بشكر المنعم لم يختف عن ذات الانسان. فاذا التفت الانسان الى بحر النعم المادية والمعنوية التي تطوّقه فسوف يحس بذاته أن عليه أن يخطو في الطريق الذي قرّره ووضعه صاحب هذه النعم وبالخصوص اذا التفتنا الى أن الله تعالى حينما يضع تشريعاً يختلف تماماً عن المقنن البشري اذ لاينظر اطلاقاً الى مصلحته الشخصية او الى مصلحة طبقة او جماعة خاصة وليس لديه سوى مصلحتنا الواقعية.

والله تبارك وتعالى يشير في سورة قريش الى هذا الاحساس الفطري بشكر المنعم ومتابعة الحق فيقول: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾...

طريق الأنبياء مطلب الانسان منذ القدم

يساند الانسان ـ بالفطرة ـ القانون الذي يتمتع بالعدالة ١٠٠٪. فالانسان يعشق الحكومة التي لم تنبع من طبقة خاصة، ويميل للقائد الذي يعيش ببساطة و يتجرد تماماً عن حب الذات والرغبة الى الاستعلاء. فالمساواة والعدالة والصدق وحسن السابقة والبساطة مطالب طبيعية لكل انسان. وطبقاً للشواهد التاريخية فالنموذج البارز لهذا الشكل من الحكم والحاكم ينحصر في نظام الأنبياء العظام العادل وفي شخص الأنبياء ونجده متمثلاً في العناصر الملتحمة رسالياً والأكثر قرباً لهم. إذن فالاستجابة المنسجمة لذلك المطلب الفطري لاتتحقق الاّ في نور خط

الأنبياء.

والشاهد على هذا مانلاحظه من أنظمة حكم وحكام جُناة يمتصون على طول القرون دماء المستضعفين، ومانشاهده من حقوقيين وسياسيين لم يرفعوا ألماً من قلوب المحرومين وتسيطر عليهم حتى الآن وعلى مستوىً واسع أوهام وأفكار منحطة نظير عبادة العروق البشرية وتفضيل جنس من البشر على آخر وعبادة الأوثان والظلم والاستبداد و...

ايضاح القرآن بصدد الأنبياء

الآن وحيث تعرَّفنا على الحاجة الى الأنبياء عن طريق العقل، نشير أيضاً الى عدد من آيات القرآن الكريم:

١ ــ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (١)

٢ ــ ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (٢)

٣ ــ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ (٣)

فهداية الناس تقع على عاتق الأنبياء.

٤ ــ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً﴾ (٤)

٥ ــ ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ (٥)

(١) سورة يونس، آية (٤٧). ضمناً يستفاد من هذه الآية ان الله بعث لكل أمة في كل بقاع العالم أنبياء رغم ان تاريخ هؤلاء العظام لم يتضح لنا، وعلى هذا الأساس لايبقى مجال للاستفهام: لماذا كان الأنبياء جميعهم في أرض المشرق؟

(٢) سورة فاطر، آية (٢٤).

(٣) سورة الليل، آية (١٢).

(٤) سورة المائدة، آية (٥٠).

(٥) سورة الأنعام، آية (١٤٩).

ولايمكن لك ان تقول أنا الذي أشخّص طريق الحق عن الباطل لأنه مع وجود القادة المعصومين ينسدّ الطريق على أي عذر تنسجه. و يبقى الله وحده هو الذي يلزمك ويحجّك فيما اذا لم تتقيّد برسالة الأنبياء و براجهم.

٦ ــ (لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ) (١).

نعم لابدّ أن يتميز من قبل الله الشارع المعبد عن الحفر والمطبّات لكي يختار الانسان بين هذين بوعي وحرية كاملة.

٧ ــ (رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) (٢)

٨ ــ (وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَىٰ) (٣) من قبله: من قبل الرسول.

متابعة الآخرين

العناصر التي ترى نفسها مستغنية عن طريق الأنبياء ورسالتهم تبحث عن قوانين من الأصناف التالية:

١ ــ القوانين الديكتاتورية الفردية... وهي القوانين التي تنبع من ارادة شخص مستبدّ واحد، وتتصف هذه القوانين بالفرض والاضطهاد والتقصير بحق الشعب وتضليله، وسائر نقاط الضعف الأخرى.

٢ ــ القوانين الديكتاتورية الطبقية... وهي القوانين التي تضعها طبقة خاصة من الشعب كطبقة العمال أو الرأسماليين. وتنبغي الاشارة الى أن مجموعة هذه القوانين تنظر الى مصلحة طبقة واحدة وتحكم تحت

(١) سورة الأنفال، آية (٤٢).
(٢) سورة النساء، آية (١٦٥).
(٣) سورة طه، آية (١٣٤).

تأثير هذه الطبقة.

٣ـ القوانين الشعبية... وهي التي تنبثق عن آراء الشعب سواء أكان هذا الشعب واعياً أو كان غافلاً، وسواء أكانت هذه القوانين تنسجم مع المصلحة أولا، و يعرف هذا النوع الثالث في عالم اليوم بأنه من أرقى أشكال القوانين.

خلاصة البحث

الى هنا عرفنا هوية الشخص والمنبع الذي له حق التشريع والتقنين، وتعرّفنا على أن المشرع والمقنّن لابدّ أن يتصف:

١ـ العلم المطلق الذي لايتناهى، والاحاطة الشاملة بطبيعة الانسان وحاجاته المادّية والروحية.

٢ـ الرحمة الشاملة واللطف المستمر بالانسان.

٣ـ العدالة المطلقة وعدم ترجيح ميول الأفراد والجماعات على المصالح الحقيقية.

٤ـ الغنى وعدم الحاجة الى الآخرين.

ولايخفى أن المشرِّع الذي يتصف بهذه الصفات لامصداق له سوى الله تعالى والذي قدّم للانسان تشريعاته وتوجيهاته ونداءاته عن طريق الانبياء.

نعم الأنبياء بمنزلة جهاز الاستقبال الذي نصب على جسد البشرية.

كيف نجعل الناس يقبلون القانون؟

كل قانون يطبّق بنحو خاص و بطريق متميّز، ونحن نوضح هذه

الطرق بشكل مختصر:ـ

١ــ الجهل وعدم البصيرة: يوافق الناس في بعض الأحيان على الأحكام والقوانين نتيجة فقدان الوعي والبصيرة.

والاسلام لا يقبل اطلاقاً الاتّباع الأعمى وقد انتقدت آيات كثيرة بشدة أسلوب عبدة الأوثان الذين يعلّلون سلوكهم المنحرف بتقليدهم لأسلافهم.

(وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا) هذا على مستوى السوك والعمل سورة الأعراف، آية (٢٨)... وعلى مستوى الاعتقاد والعبادة (قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ) سورة الأنبياء، آية (٥٣).

٢ــ الخوف والطمع: يستخدم المستبدّون طريق الارعاب والتجويع فحسب، لأجل أن يجرّوا الناس لعبوديتهم و يطبّقوا قوانينهم، فيقول فرعون لموسى: (قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ)(١) هذه هي صورة التهديد والارعاب،وعن طريق الطمع والترغيب يكسبون أفراداً أيضاً، كما فعل فرعون مع السحرة الذين جاءوا لمناظرة موسى (ع) فوعدهم بالأجر والمال وتقريبهم الى بلاطه. (فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ)(٢)

لايخفى أن الخوف والطمع عاملان مؤثران على طاعة الناس للقانون إلاّ أن هذين العاملين يضعفان بشدّة الانتخاب الحر والواعي. ومع أن الاسلام طرح مسألة الخوف عن طريق جهنّم والشوق الى الجنّة، الاّ أنّ الناس يبقون مطمئنين في انتخابهم لطريقهم، اذ ان وعود الاسلام غير

(١) سورة الشعراء، آية (٢٩).

(٢) سورة الشعراء، آية (٤١-٤٢).

فورية وليست في هذا العالم فيراها الناس بعيدة، بعد الموت.

وفرق بين شخص موعد حساب ديونه غداً، وشخص موعد حساب ديونه بعد سنين. فالأول يتيه و يتحيَّر، والثاني كأنه ليس بمدين.

فالخوف والطمع بالنسبة لغد الآخرة لا يجبر الناس أبداً على العمل. وأفضل دليل لنا على ذلك هو التجربة الخارجية للناس أنفسهم فمع العلم بالوعود الإلهية يتساهلون كثيراً في أداء الواجبات الإلهية.

٣ــ الحاجة والرقابة: العامل الثالث الذي يمكن ان يكون باعثاً للانسان لكي يقبل القانون هو الحاجة والرقابة. فالحاجة الى المال ومراقبة الأصدقاء والأعداء يمكن أن يبعث بنسبة في المائة قوة المثابرة والعمل في الانسان.

٤ــ الفهم والتشخيص: الفهم من عوامل قبول القانون أيضاً. فاذا أغلقت شرطة المرور الطرق بوجه سائقي السيارات وكانوا على علم بعلة هذا العمل فسوف يسلِّمون للقانون تسليماً كاملاً و بلا ترديد. اما اذا لم يعلم سائقو السيارات علة هذا العمل ـ (ولو بشكل اجمالي) ـ فسوف لا يسلِّمون اطلاقاً خصوصاً مع احتمال النية السيّئة وسوء الاستفادة من الموقع والوظيفة.

يستفيد الاسلام من هذا الطريق عادة لدفع الناس باتجاه قبول القانون، اذ انه يأمر أحياناً و بشكل اح[illegible]اداء عمل من الأعمال لترشد روح التقوى في النفوس (١)، أو نجده في [illegible] المنفقين ﴿وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِم﴾(٢) فالانفاق نفسه عمل بناء لاستقرار وثبات المزايا النفسية في الروح. وفي

(١) نظير الأمر بالصيام سورة البقرة، آية (١٨٣) ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كتِبَ عَليْكم الصِّيامُ كَما كُتِبَ عَلى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

(٢) سورة البقرة، آية (٢٦٥)

روايات أهل البيت (عليهم السلام) ذُكرت علةُ الكثير من أحكام الاسلام بالشكل الذي أعدّ منها كتاب في هذا المجال (١).

ومن حسن الحظ تتضح الحقائق يوماً بعد آخر بفضل التقدم العلمي و يكشف النقاب عن فلسفة الأحكام الاسلامية. (٢)

٥ ـ العشق والحب: العامل الخامس الذي يمكن أن يكون مؤثراً في قبول القانون هو العشق والمحبة اذ لو كنّا نحب شخصاً ما فسوف نعمل طبقاً لأوامره حتى لو كانت علاقتنا به اعتباطية فكيف بالعشق والعلاقة التي تقوم على أساس العقل والمعرفة وتستحكم بالوعي والبصيرة ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ (٣)

هذه هي الطرق التي يقبل الناس القانون على أساسها، ولا حاجة الى تكرار أن الطريق الرابع والخامس هما أفضل هذه الطرق. فطريق العلم والعقل وطريق العشق والمحبة هو منهج الاسلام الصريح حيث يقول: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (٤)

الطريق الأساس هو طريق التعليم والحكمة والاستفادة من الجدال والقهر يأتي في المرحلة الأخيرة. فالأصل هو الوعظ والجدال بالحسنى وايجاد المحبة والعشق، وهذا القرآن يقول: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِن خَوْفٍ﴾ (٥) فالاطعام واشاعة الأمن والطمأنينة

(١) علل الشرايع.
(٢) ينبغي تجنب سوء الفهم هنا اذ لانقصد اننا لانطيع أي أمر إلهي ما لم نعرف علته!
(٣) سورة البقرة، آية (١٦٥)
(٤) سورة النحل، آية (١٢٥)
(٥) سورة قريش، آية (٤)

جعلته الآية مقدمة للعبادة لتكون باعثاً لتقدير هؤلاء للفعل الإلهي.

ما هي الضمانة لاجراء القانون؟

قلنا في البحث السابق ان أياً من الجهل والخوف لايمكن أن يكون عاملاً سليماً لاجراء وتطبيق القانون، وأفضل عامل هو الارتفاع بمستوى الرشد الثقافي وايجاد علاقة الحب والعشق بالمشرّع والمقنّن.

هنا ننقل اليكم بياناً آخر يوضح الضمانة الاجرائية:

١ــ الرشد الفكري: لم يوصِ أي اتجاه فكري بتحصيل العلم والتفكير كما أوصى الاسلام به. وجاءت وصاياه بالحثّ على مجالسة العلماء الملتزمين الاتقياء، أو بالدعوة للسير في الأرض، أو بالتأكيد على الاهتمام بالمشاورة، كل هذا لأجل رفع مستوى أفكارنا. تقع أبصارنا في القرآن الكريم على تاريخ الأمم السالفة وأسباب اندثارها، وتاريخ الأنبياء ورمز انتصارهم.

هناك أكثر من مائة كلية في عالمنا المعاصر تهتم بدراسة الاسلام في سائر أرجاء العالم. الثورة الاسلامية في ايران الفتت أنظار السياسيين فعبؤوا طاقات للتحقيق ودراسة هذه الثورة. فالركود والجمود واللجاجة تعشعش عادة في نفوس العناصر المتحجرة الأذهان، و بتعبير القرآن الكريم: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾(١)

فبيان فلسفة الأحكام وايضاح عوامل اندثار الأمم السالفة المعاندة يمكن أن يكون ـ بحدود كبيرة ـ ضامناً ومحركاً لتطبيق واجراء القانون.

(١) سورة محمد، آية (٢٤).

٢ ـ الكسب العاطفي: أحد العوامل المحركة للانسان نحو الفعاليات هو الاستعانة بجلب الأحاسيس والعواطف.

ومسألة التشويق والتشجيع طُرحت في القرآن الى الحدّ الذي يقول فيه للنبي ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾(١)

فالصلاة والدعاء في هذه الآية للأشخاص الذين يؤدّون الضرائب الاسلامية من خمس وزكاة لتكون عاملاً لاطمئنانهم وسكنهم. وفي آيات نقرأ ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾(٢) أو ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾(٣)

في موقع آخر من القرآن يقول: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾(٤)

ففي هذه الآية يحرك القرآن احساسات وعواطف الناس عن طريق ذكر (الولدان) يعني الأطفال الذين يقعون فريسة مخالب الظالمين، ليعبّأ الناس للجهاد.

وفي موقع آخر نقرأ ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾(٥)

لاحظوا تعبير القرآن في هذه الآية فالألفاظ التي استخدمها لدفع الناس للعمل كلها ألفاظ مهيجة عاطفية. (المسغبة) أيام القحط والمجاعة، اليتيم القريب، المسكين الذي يفترش الأرض...

(١) سورة التوبة، آية (١٠٣).
(٢) سورة البلد، آية (١٧).
(٣) سورة العصر، آية (٣).
(٤) سورة النساء، (آية ٧٥)
(٥) سورة البلد، آية (١٤ ـ ١٥ ـ ١٦).
(٦) سورة البقرة، آية (٢٥٦).

٣ــ الضامن الاجرائي الثالث: هـو أقوى في الحقيقة من جميع العوامل وهو مسألة الايمان بالله واليوم الآخر. الايمان بأن الأمر من الله وأنا عبده وتحت رعايته. وسوف أرجع له ولابدّ أن أجيب أمام محكمة العدل الإلهي. الايمان بأن كل عمل حسن يقابله أجرٌ بعشرة أمثاله و يعفو عن وساوسي، الايمان بأن كل ذرة من عمل الخير أو الشر لها حساب.

نعم مثل هذا الايمان والعقيدة لها دور مهم في اطاعة وامتثال الأوامر والقوانين.

٤ــ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: اذا خرج المجتمع من حالة اللامبالاة، وتحصَّن بحالة الالتزام والعمل فسوف يعمل كل أفراد هذا المجتمع بقاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

مثالها سائق السيارة الذي اذا خالف في حركته تُنبهه كل السيارات بمصابيحها وأبواقها، و يتكرر هذا التنبيه حتى يخجل ـالسائق ـ و يعود الى تغيير مسير سيارته للاتجاه الصحيح.

نعم الناس أنفسهم يستطيعون ان يكونوا ضمانة اجرائية.

٥ــ الحكومة والجزاء: ففي المثال السابق اذا كان السائق لا يعتني بتنبيه وتذكير زملاء المهنة (السوّاق). ومقابل جميع وسائل التنبيه من أبواق ومصابيح السيارات يتخذ موقفاً لا أباليّاً و يستمر في حركته، فحينئذ يصل الدور الى الشرطة والعقاب. نعم الجزاء والخشونة تتحتم في بعض المواقع. وهذا الجزاء لا يرتبط بالآية ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(١) اذ ان المراد من الآية عدم الاكراه في العقيدة القلبية لا في البرامج العملية التي تزاحم وتضر الآخرين، والاّ فهل يمكن للمحتكرين والمرابين واللصوص ان يقولوا: نحن نرغب ان نقوم بهذه الأعمال و﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾؟!

(١)ـ سورة البقرة آية ٢٥٦.

القسم الثاني:

معرفة الانبياء

لأجل معرفة الأنبياء هناك ثلاثة طرق:

١ ــ الطريق الأول: المعجزة؛ فالشخص الذي يدّعي أنَّه مرتبط بإلٰه الوجود و بالقدرة والعلم الذي لايتناهى لابدَّ أن يقوم بعمل أو يقول شيئاً لايصدر عادة من الآخرين، وعن هذا الطريق يثبت دعواه، يعمل عملاً إلهيّاً ليصبح يقيناً أنه ذو علاقة وارتباط أكيد مع عالم آخر، و يسمّون هذا العمل (المعجزة).

سؤال

ما الفرق بين أعمال الأنبياء الخارقة للعادة وأعمال المخترعين والمرتاضين والسحرة وأبطال الرياضة أحياناً؟ اذ ان كل واحد من هؤلاء يقدم عملاً لايصدر عادة من الآخرين فلِمَ لايقال بحق هؤلاء أنَّهم أنبياء؟

جواب

١ــ ان اعمال هؤلاء تمرينية خلافاً لعمل الأنبياء، فالمرتاض يقضي (٤٠) يوماً مثلاً لاينام او لايأكل ليحصل على ملكة معينة، البطل الذي يرفع الأثقال انما يحصل على هذه القدرة بعد أيام من التمرين. فيبتدأ عمله الرياضي برفع ثقل يستطيع الأفراد العاديّون حمله، و بالتدريج يرفع الأثقال الأكثر وزناً و بالتمارين والممارسة بين الحين والآخر يصل الى الحدّ الذي يستطيع فيه أن يرفع الثقل ذا الوزن العالي الذي يحتاج الى طاقة تعادل طاقة الأفراد الاعتياديين مرات متعددة. الآّ ان الناس الذين اجتمعوا حول نبي الله صالح(ع) طلبوا منه قائلين: اذا كنت مرتبطاً بقدرة إلهية فالآن اخرج لنا من هذا الجبل ناقة بخصوصيات وأوصاف معينة، فلم يقل لهم اصبروا الآن لأذهب أتمرن وشيئاً فشيئاً أستطيع أن أخرج لكم ناقة من هذا الجبل؛ ومن حيث الأساس مثل هذا العمل المدهش لا يأتي عن طريق التمرين والممارسة.

٢ــ يأتي عمل هؤلاء الأفراد نتيجة التعليم؛ فكل واحد من المرتاضين والمخترعين يدخل دورة و يعمل تحت ارشاد معلم، لكن الأنبياء لم يروا مرشداً ومعلّماً واستاذاً.

٣ــ عمل هؤلاء الأفراد تخصصي، فالمخترع مثلاً يتخصص في جانب او جانبين من المعرفة و يرتبط عمله بامكاناته البشرية المحدودة، عمل الأنبياء يختلف عن ذلك حيث انهم يقدّمون اعمالاً خارقة للعادة وليست محدودة بل متنوعة لأن قدرتهم على الفعل مستمدة من الله سبحانه وقدرة الله ليست محدودة بتقديم نموذج او نموذجين.

٤ــ يصاحب عمل هؤلاء غالباً هدف مادي، فاذا عرض ساحر سحراً

او رفع بطل ثقلاً أو قام مخترع أو مرتاض بأداء عمل فتنحصر أهدافهم بإلفات نظر الناس اليهم، أو جمع المال، أو اللهو، وغايته لكسب معيشة مرفَّهة. الاّ ان هدف الأنبياء هو بناء الشخصية الانسانية الرفيعة و بناء المجتمع العقائدي، وهداية الانسان باتجاه قدرة أخرى.

٥ ـ هؤلاء الأفراد يمكن أن يكونوا ذوي ماضٍ سيّءٍ، لكن الأنبياء لابدَّ ان يكونوا معصومين وليست هناك نقطة ضعف في حياتهم المليئة بالمفاخر. وسوف نتحدث باذن الله في القسم الثالث حول العصمة.

٦ ـ الساحر والمرتاض والمخترع لا يتحدّى أبداً ولا يقول ان الآخرين لايقدرون على أداء عمله وليست له الجرأة على التحدّي والمواجهة. لكن الأنبياء حيث يقدّمون معاجز إلهية يعلنون بشهامة واطمئنان ان الآخرين لايقدرون على أداء هذه الأعمال.

على هذا الأساس هناك فروق متعددة بين معجزة الأنبياء واعمال الآخرين الملفتة للنظر، فرق من حيث نوعية العمل ومن حيث هدف العمل، ومن حيث الشخص الذي يقدّم العمل، وهذه الفروق بين السحرة والمخترعين والنابغين والأنبياء لاتترك الانسان متحيِّراً يخلط و يشتبه بينهم.

معجزة لا معرض

هل ان الأنبياء يقدّمون أي شكل يطلبه الناس من المعجزة؟

الجواب بالنفي. لأننا نقرأ في آيات القرآن ان الناس كانوا ينتظرون من الأنبياء أحياناً ان يقوموا بأعمال مستحيلة، أو ضارة، او سخيفة، أو مخالفة لنظام الوجود. لكن أولئك العظام لم يعتنوا بهذه التوقّعات. واليك

نماذج من هذه التوقعات الجزافية:

١ــ قالوا: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ﴾(١)

ومع ملاحظة ان الله تعالى ليس بجسم فقد كان هذا التوقع محالاً.

٢ــ قالوا: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً﴾(٢)

كسفاً = قطعاً وأجزاءاً

فارادوا تحوير وتبديل نظام الوجود.

٣ــ قالوا: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ﴾(٣)

الزخرف = النقوش الذهبية.

٤ــ قالوا: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ﴾(٤)

وهل ان امتلاك بستان و بيت جميل مطرز بالذهب دليل على الارتباط بالله ؟! أكان فرعون وقارون ونمرود وأمثالهم بما لديهم من مال وثروة على ارتباط بالله ؟!

أكان الأنبياء يعدّون مسرحاً لكي يؤدوا فيه أعمالاً باسم المعجزة تطابق ميول هذا أو ذاك ؟!

ألم يكن تقديم المعجزة لأجل اثبات النبوة فقط ؟!

وهل أن بناء عدة بيوت من قبل مهندس او كتابة عدة صفحات من قبل خطاط لا تكفي لاثبات خبرته الهندسية او الخطية، ولا بدّ له من بناء بيوت وكتابة خط لجميع الأفراد لاثبات خبرته الهندسية أو الخطية ؟!

لو أغمضنا النظر عن كل هذه الأسئلة، أفلم يروا نماذج من

(١) سورة الاسراء، آيه (٩٢).

(٢) سورة الاسراء، آية (٩٢).

(٣) سورة الاسراء، آية (٩٣).

(٤) سورة الاسراء، آية (٩١).

الاعـجـاز، وألم يقولوا ان هذا سحر؟! فالشخص الذي يقرر سلوك العناد ولا يريد أن يقبل فلا يقتنع بمليون دليل وشاهد.

ألم تـكـن كـل خـلـيـة وكل ذرة وكل ورقة شجر شاهداً على اثبات وجـود الله؟ لـكـن الـشـخـص الـذي لايريد أن يقبل لا يقتنع. على هذا الأساس فالمعجزة تكشف لأولئك الناس الأسو ياء ذوي السريرة الحسنة عـن ارتباط النبي بالله تعالى. وليس هناك قرار بتقديم المعجزة في كل يوم وسـاعـة وفي كـل مـسـألة يميل اليها الناس. نشاهد حياة الأنبياء المملوءة بـالـصـعـاب فـقـد كـان هـؤلاء يتعاملون مع المشكلات بشكل اعتيادي و يستخدمون الطرق الطبيعية لمعالجتها بجهد وصبر وتحمل للصعاب فيحلّوا الـواحدة بعد الأخرى من هذه المشكلات، ولم يتوسلوا بالمعجزة اطلاقاً من بين كـل أشـكـال الـبـلاء والمـتـاعـب لـيـتخلّصوا عن طريق المعجزة هم وأتباعهم من هذه المتاعب.

السنخية في المعجزة

المـثـل المـعروف يقول: (قيمة الذهب يعرفها الصائغ) حقاً اذا كان البـنـاء على أن يقوّم شخص معجزة للمعمارين أو النجارين أو الخياطين فـلا بدّ من أن تكون المعجزة في هذه الصنعة تتناسب مع فكر ودوق الفرد الذي يراد تقديم المعجزة له. ولذا نرى ان معجزة موسى «ع» الذي عاش في زمـان راج فيه سوق السحر والمكر هي تحو يل العصا الى ثعبان. أو ان مـعـجـزة عـيـسـى «ع» ـ في زمـن كـان الـتـوجّـه فيه الى الطبّ ومعالجة المـرضـى ـ هـي احياء الموتى باذن الله. ونرى معجزة الرسول محمد «ص» الـذي بـعـث في زمن كان معيار العزة والشرف فيه هي الفصاحة والبيان

قد جاءت بشكل أساسي من سنخ الكلام والبيان. هذه من جهة، ومن جهة أخرى فالرسالة الخالدة والمستمرة بحاجة الى معجزة دائمة والقرآن هو معجزة الرسول الخالدة.

مزية القرآن

قلنا ان كل نبي لابدّ له من معجزة لكي يُثبِت ارتباطه بعلم وقدرة سماوية، وقلنا أيضاً أن معجزة كل نبي يتحتم أن تسانخ وتنسجم مع طبيعة فكر وعمل الناس الذين يحيون في زمنها. الآن نبين زاوية من امتيازات معجزة نبي الاسلام «ص»:

١ــ معجزة الاسلام (القرآن بيد الجميع وفي كل الأوقات، بخلاف عصا موسى أو الموتى الذين أحياهم عيسى، فتلك العصا وأولئك الموتى الذين عادوا للحياة لم يكونوا مشاهدين من قبل الناس في أزمنة وأمكنة أخرى.

٢ــ مفردات معجزة الاسلام هي الكلمات التي يتحدث بها كل الناس يومياً.

٣ــ القرآن معجزة وحكم الله أيضاً، ومعجزات سائر الأنبياء لم تكن كذلك.

٤ــ كانت معجزات سائر الأنبياء معجزة من جهة واحدة، الاّ أنَّ القرآن معجزة لها خمس عشرة جهة إعجاز كما يقول المرحوم المجلسي، أو احدى عشرة جهة كما يقول العلامة الطباطبائي، ويمكن أن تضاف أبعاد إعجازية أخرى في المستقبل نشاهد بعض دلائها الآن (في بيان الاعجاز العددي في القرآن، حيث اكتشفت قبل أعوام قليلة التناسب بين

الحروف المقطعة في مطلع السّوَر و بين عدد حروف كل سورة منها).

القرآن كتاب عظيم يحتوي على (١١٤) سورة، وحدود (٦٢٠٥) آية، و(٧٨٠٠٠) كلمة. (١)

وقد دعى الله تعالى في هذا القرآن المخالفين لترك التخريب وسفك الدماء واشعال نار الحرب وتيتيم الأطفال وايجاد الرعب واشاعة جوِّ التهم والافتراء والتوجه الى التعاون على تأليف كتاب كالقرآن (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلى أنْ يَأتُوا بِمِثْلِ هَذا القُرْآنِ لايَأتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً) (٢)

و يأمر الله تعالى نبيّه ليقول للمخالفين الذين يقولون ان هذا القرآن من نسج محمد وافترائه: (قُلْ فَأتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ) (٣). وفي موقع آخر نقرأ (قُلْ فَأتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ) (٤)

وفي الموقع الأخير نقرأ: (فَلْيَأتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إنْ كانُوا صَادِقِينَ) (١).

قارئي العزيز:

ارجع مرة أخرى لملاحظة هذه الآيات الأربع بدقة، فالله تعالى تنزَّل في تحدّيه أكثر من مرتبة وفي كل مرة يدعو الناس ليأتوا بكلام كالقرآن.

التنزل الأول: (في الآية (١١) من سورة هود) حيث اكتفى بعشر سور من القرآن عن المجيء بكتاب كبير كالقرآن.

(١) الوحي والنبوة، الشهيد مطهري ص٩٩.

(٢) سورة بني اسرائيل، آية (٨٨).

(٣) سورة هود: آية (١٣).

(٤) سورة يونس، آية (٣٨).

(٥) سورة الطور، آية (٣٤).

التنزل الثاني: (في الآية (٢٨) من سورة يونس) صرف النظر عن عشر سور وطلب من المخالفين سورة واحدة كسور القرآن.

التنزل الثالث: (في الآية (٣٤) من سورة الطور) قال لا يتحتم الاتيان بسورة كاملة ونرضى بالاتيان بكلام كالقرآن.

وهذه نظرة خاطفة على كلمات مثيرة:

١ــ لا يأتون بمثله ...

٢ــ لئن اجتمعت الأنس والجن...

٣ــ لو كان بعضهم لبعض ظهيراً...

الظهير = المساعد والمعين

٤ــ ان كنتم صادقين...

٥ــ وادعوا من استطعتم...

أربعة عشر قرناً ينتظر الجواب

حقاً مع هذه التنزلات وهذه الاثارة ومع هذا الحشد من الأعداء والمؤامرات، فلِمَ لَمْ يُجب فرد على هذا التحدي؟!

لغتنا الأم ليست هي العربية حتى نأتي بمثل القرآن، لكن لماذا يصمت العرب الاقحاح؟

أنصار الاسلام لايعارضون، لكن لِمَ لا يتحرك الأعداء؟ ففي الوقت الحاضر هناك آلاف الماركسيين المعارضين للاسلام بشدة في العالم العربي وفي غير الدول العربية أيضاً ممن يجيدون لغة العرب. وفي كل عام ينفقون الملايين في طريق التآمر والاعلام ضد الاسلام، ولديهم ارتباطات دولية واسعة و يستطيعون أن يجمعوا كل العقول المفكّرة بمدة قليلة في مؤتمر ويحاولون نظم كلام على طريقة القرآن، ولكن لا يفعلون!

هـذا الامـام علي «ع» مـع انـه يُعدّ من أفصح العرب ومع مالديه من استـعـداد وعـشق للقرآن فقد كان رفيقه منذ سن العاشرة لكن في نفس الـوقـت حينما تجيء في خطب نهج البلاغة آية قصيرة من القرآن فان لهذه الآية بريقاً وامتيازاً خاصاً.

وحتى في أحـاديـث رسـول الاسـلام أيـضـاً، ففي أي وقت تجيء آية ضـمـن حـديـث فـسوف تتميزعن سائر كلمات الحديث. وهذا هو معنى الاعـجـاز، فـالحـروف نـفـس الحـروف واللـغة نفس اللغة لكن تركيب وايقاع الآيات يبقى على طول أربعة عشر قرناً ولم يستطع أحد من تركيب آيـة مـثل آيات القرآن، هذا من جهة ومن جهة أخرى فالقرآن جاء عن طريق شخص غير متعلم، وفيه من المبادىء ماتتفتح أسرار معرفتها بتقدم دنيا العلم وهذا بنفسه دليل آخر على اعجاز القرآن.

في أي مـوقـع لاحـظنا تناقضاً بين العلم والوحي، فاما ان يكون هذا الـعـلـم لـيـس بـعـلـم في الحقيقة ولايتعدى كونه فرضية وحدساً واما ان لايـكـون في هذا الموقع وحي. والاّ فكل مسألة علمية ١٠٠٪ لا تتعارض أبداً مع الوحي.

هـنـاك آيـات مـلحوظة في القرآن كانت في زمن نزولها حاوية لجنبة تنبؤوإخبار عن المغيبات ولم تبرح زمناً قليلاً حتى تحققت.

حـينما كـان المتآمـرون يحـسبـون ان الرسول «ص» ليس لديه ولد، وسـوف تـنـتـهـي رسالته بموته وهم الذين سوف يستمرّون على خطهم لأن لـديـهـم أبـنـاء راشـديـن. فـنـزلـت الآية (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ)(١) الخير الكثير أعطيناك (وسوف تستمر ذرّيتك ونسلك من بنت من بناتك) واعداؤك هم الـذيـن سوف تنقطع ذريتهم. (إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ)(١) ولم يمض زمـن طويل

(١) سورة الكوثر، آية (١)-(٣).

حتى تحققت هذه النبوءة.

نزلت الآية ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾(١) وكان النبي «ص» يعيش في جو التآمر والاستهزاء. فجاءت الآية لتخبره بأن هذا الاستهزاء وهذا التآمر سوف يُسحق، وان الله سيكفيه ويحصنه منه. لم يمض وقت طويل حتى رأينا كيف يخرج نبي بمفرده سالماً من بين سيل الاستهزاء والمؤامرات، وتلفتُ رسالتُه أنظارَ العالم.

مَنْ الذي كان يُصدّق ان الروم بعد الانكسار العظيم يجبرون هذا الانكسار في المستقبل القريب و يكسبون النصر، لكن نزلت الآية التي تخبر عن وقوع هذا الانتصار بعد أقلّ من عشر سنين: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾(٢)

هذه الآيات في زمان نزولها كانت لها جنبة تنبؤ بالغيب، وقد بحثت بالتفصيل مع وجوه الاعجاز القرآني الأخرى في دراسات متعددة.

مسألة أخرى في اعجاز القرآن هي: ان كل انسان اعتيادي يبتدأ عمله مع تجربة قليلة ولم تنضج أعماله بعد ولم تحتل موقعها المطلوب، و بالتدريج تتجه نحو الرشد والتكامل. لكن آيات القرآن ليست كذلك، فلم تكن الآيات المسموعة عن النبي في عمر الأربعين أول البعثة مختلفة من حيث الايقاع والمفاهيم عن الآيات التي تلاها في سن الثالثة والستين.

فلم يتغير سياق هذه الآيات بحكم تغيير ذوق وتفكير النبي أو بحكم تجديد النظر وتطور التجربة. وهذا دليل على إلهية واعجاز القرآن. وقد بيّن القرآن هذه الحقيقة في الآية (٨٢) من سورة النساء: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ

(١) سورة الحجر، آية (٩٥).

(٢) سورة الروم، آية (٢،٣).

غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ إخْتِلافاً كَثِيراً) نعم فالحالة النفسية للانسان الاعتيادي ليست على نسق واحد في زمان السلم والحرب في حال الفقر والغنى وفي الذلّة والعزّة، وعند بداية العمل ونهايته. الاّ أن القرآن على سياق واحد في مفاهيمه وأفكاره، في الايقاع والموسيقى. وهذا بنفسه دليل على أن القرآن ليس من صنع الانسان بل هو وحي الله و بيانه، الله الذي لا سبيل للتغيير والتبديل والتجربة اليه.

نؤكد اننا في هذا القسم (معرفة الأنبياء) نهدف الى متابعة اجمالية ومضغوطة، ولذا نصرف النظر في بحث اعجاز القرآن عن شرح وتفصيل الاعجاز العلمي من قبيل حركة الأرض، قانون الجاذبية، كروية الأرض، التلقيح بواسطة هبوب الرياح، حركة الكواكب في مدار خاص، وجود حياة ونبات في كواكب أخرى... وغيرها من الحقائق التي لم يقتصر فقدان الطريق اليها على ما قبل ألف وأربعمائة عام بل دنيا العلم المعاصر حتى وقت قريب لم يكن لها طريق لها وقد جاءت في آيات القرآن بشكل واضح، وحيث ان في هذا المجال كتابات متعددة نحيل القارىء اليها.

وبحكم الاختصار فسوف لا نتصدى للاجابة على بعض الشبهات من قبيل شبهة تحريف القرآن اذ ان القرآن نفسه يجيب عليها بوضوح في آيات متعددة ننقل اليكم منها آيتين:

١ــ (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ)(١) من التحريف والتزوير.

٢ــ (لَا يَأْتِيهِ ٱلْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ)(٢)

(١) سورة الحجر، آية (٩).
(٢) سورة فصلت، آية (٤٢).

ومع وجود هذا البيان الواضح في مجال عدم تحريف القرآن حينئذٍ فلا قيمة لبعض الروايات غير المسندة (والتي تستخدم وسيلة لا ثبات تحريف القرآن)، اذ ان شعار مذهبنا هو ان كل ما خالف صريح القرآن (سواء أكان من الأعداء او صدر من الأصدقاء منسوباً الى الأئمة من أهل البيت) لابدَّ وان نطرحه ونرفضه، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فحينما نراجع بعض روايات التحريف نشاهد ان هذه الروايات اما ان تكون متعلقة باختلاف القراءة، واما ان تكون مرتبطة بمورد النزول، أو تكون من سنخ التفسير والمعرفة العميقة التي استفادها الأئمة المعصومون من الآيات والتي لا ترتبط أبداً بمسألة تحريف أصل القرآن.

لنعرف القرآن بشكل أفضل

خلافاً لتصور البعض الذي يرى أن القرآن كتاب ينصب على العبادات والأخلاق فقط لابدَّ أن نقول: إن واحداً من اثني عشر من هذا الكتاب السماوي يعني حدود ٥٠٠ آية يرتبط بالمسائل الفقهية. لكن غالبيته تنصبّ على المسائل المختلفة الاجتماعية، السياسية، العسكرية التاريخية، العقيدية، الثقافية... وغيره.

ففي أيّ كتاب تجد التأكيد البالغ على المسائل الاجتماعيه من قبيل الاتحاد، الشورى، محاربة الفساد، النظام والأمن، مقارعة الاشاعات والاعلام الكاذب... وغيره؟

القرآن كتاب استخدم في طريقته التربوية تقديم النظرية والأفكار الى جانب عرض النماذج والأمثلة العملية كالنبي «ص» (١)

(١) سورة الأحزاب، آية (٢١) [لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ].

وابراهيم «ع»[١]، وامرأة فرعون.

ومن الواضح ان تأثير كلام الله ينحصر في العناصر التي تطهرت من سائر موانع المعرفة، التعصب الأعمى ... حب الذات ... الهوى ... الغرور... العناد... التكبّر... الحقد..

لأن آيات القرآن تشبه المطر فحينما يسقط على حدائق الزهور يسبب ريحاً عطرة وحينما يسقط على مراكز الأوساخ يزيد في عفونتها.

القرآن ليس كسائر الكتب العلمية يتعامل مع الذهن فقط بل قبل أن يكون القرآن كتاب علم فهو كتاب رشد وهداية، قصّته ليست ترفاً بل هي عبرة، تأريخية ليس حكاية عن ماضي السابقين فقط بل يبيّن فلسفة انحطاط وتعالي الأمم.

القرآن كتاب سهل واضح ومتين، القرآن هداية توصل الانسان من التراب الى الله و يتعالى به من المادة الى المعنى. القرآن كتاب يعطي الرؤ ية للانسان بالدليل المحكم ويحدد له مسلكاً في حياته عن طريق نقل تاريخ الأنبياء والأمم، وعن طريق التشو يق والتقدير و بيان القدوة يخلق في الانسان الهمة والسعي.

في هذا الكتاب (القرآن) رسمت العلاقة بين الله والانسان ـــ العبادة ـــ كما رسمت الرابطة بين الانسان والخلق ـــ التعليم والتعلم، العفو والانفاق والايثار والتعاون و... ـــ، كما رسمت العلاقة بين الانسان والطبيعة ـــ التسخير والاعمار والاحياء والاستثمار بلا إسراف او تبذير دون التوقف عن الاستثمار، وفي كل مظاهر الطبيعة تشاهد دلالات وآيات الله ـــ .

(١) سورة الممتحنة، آية (٤) [قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ].

وفي هـذا الـكـتـاب حُددت أيضاً علاقة الانسان المسلم مع المخالفين والمنـافـقين ــ الـدعـوة للـحـق بـالحكمة والموعظة والمجادلة بالحسنى، وقلع المـفـسـدين الذين يشكلون مانعاً كالشوك في طريق قبول جماهير المحرومين للـحـق، والـدفـاع والـمواجهة الحادة للبغاة، ورد الفعل السالب والموجب ازاء المنافقين والرتل الخامس، كل هذا بأجمعه طُرِحَ ببيان واضح في هذا الطَرح السماوي ــ

طرحت في القرآن أهمية الوعي و بناء الذات والمجتمع وصفات المربي وأسلوب التر بية وفلسفتها ومسائل نظير:

١ــ ماذا نتعلم ؟

٢ــ من أين نتعلم ؟

٣ــ لأي شي ء نتعلم ؟

وقـد جـاء في هـذا الكتاب السماوي ــ و بشكل واضح ــ أسلوب مـعـاشـرة الـنـاس. ومحـار بـة أشـكـال الخـراقـة، والا تفاقيات السياسية والاقـتـصـاديـة والعسكرية، حقوق الأسرة، الاحترام المتبادل بين الزوج والزوجة و بين الابن والأب.

بـيّـن هـذا الـكـتـاب الـسـمـاوي أوامـر قـاطعة وصريحة بحق الجناة المـفـسـدين الذين يزعزعون الأمن العام، والذين يفتعلون الحرب الساخنة بـالـسلاح والـبـاردة بـالاشاعة، والذين يتجاوزون على الناموس والعفة الـعـامـة. هـذا الـكـتـاب الـسـمـاوي يخلق لدى الانسان رؤ ية وعقيدة بـالـشـكـل الـذي يجـد الانـسان نفسه في هذا العالم تحت رعاية الله العالم الـبـصـير في كل لحظة. واليوم يصل وضع هذا الكتاب الخلاّق المنجي ــ على اثـر فـقـدانـنـا الـوعـي والبصيرة ــ الى حدّ انحصار الاستفادة منه في الـتـشـريـفـات والـديكورات، وفي صناعة الأحجار الثمينة، وفي اللافتات

بـعنوان الدعاية أو على القبور أو على صدور الأطفال، أو افتتاح الحفلات والمؤتـمـرات وأمـثـال ذلـك!!! امـا برامج حياتنا فنستوردها من عناصر فـارغـة وأشخاص مستعمرين لا يعرفون سوى مصالحهم الذاتية فانتهينا الى هذا الوضع المؤسف.

فـلـو كـان فـتـيـانـنا يقرؤون كل يوم في مدارسهم: (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ)(١) فلا يجوز أن يكون أعداؤنا أولياء أمورنا والموجهين لنـا، وكـانـت هـذه الآيـة مـعـلـمـة لـطـلابنا ثقافة الاسلام السياسية، ثم نتبعها بالعمل والممارسة.

حينئذٍ لا مجال لنفوذ الاستعمار الينا.

اذا كـان في كل يوم عرض صباحي في الجيش تقرأ (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ)(٢)

حـيـنـئـذٍ لا يخـضـع الجـيـش المـسلم لسيطرة الخبراء الأجانب سنين طويلة.

و بالعمل بقانون (حَرَّمَ الرِّبَا)(٣) تغلق جميع مراكز أكل الربا الحرام.

وبحـكـم الآيـة (فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي)(٤) تنظم كل الدول الاسلامية سـيـاستها الـعسكرية وتجيب عملياً على عدوان المتجاوزين و يعيد العالم الاسلامي الذي يشكل $\frac{1}{3}$ سكان الكرة الأرضية تقريباً عزته الواقعية.

واذا يـقبل جميع المسلمين قلبياً نداء القرآن الذي يقول ان علّة تعاسة وهـلاك الأمـم هـي مـتـابعة الظالمين (وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ)(٥) فسوف

(١) سورة المائدة، آية (٥١).

(٢) سورة آل عمران، آية (١١٨). البطانة: المعتمد وصاحب السر.

(٣) سورة البقرة، آية (٢٧٥).

(٤) سورة الحجرات، آية (٩).

(٥) سورة هود، آية (٥٩).

يـكون العمل الأول لهم طرد عملاء قوى الاستكبار العالمي من ديارهم، و يستجيبون لنداءات القرآن التي تقول:

﴿لَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١)

﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٢)

﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً﴾ (٣)

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤)

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ﴾ (٥)

هـذه الـنـداءات القرآنية ظلّت بلا جواب من قبل المسلمين، ولم نطع نـداءات المـنـاديـن أمثال ابراهيم حتى علي «ع» ومن سائر المصلحين حتى الخـمـيني حـق الـطـاعـة المـطـلـوبة و بقينا نحيا حياة ذليلة ونؤدي الجزية للـظـالمين، وتخـلّـفـنـا على المـسـتـوى المادّي والمعنوي، وفي مستقبل قاسٍ سـنـحضر في محكمة العدل الإلهي، وفي يوم القيامة يشتكي علينا شخص و يـكـون طـرف الـدعوى هـو رسـول الله «ص»، اذ ان متن الـدعـوى والـشـكاية يبيّنها القرآن على لسان النبي ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾ (٦)

ونـسـتـثـمـر الـفـرصة هنا لنستمع الى كلام علي «ع» اذ يقول: ﴿إذا الْتَبَسَتْ عَلَيْكُمُ الْفِتَنُ كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ فَعَلَيْكُم بِالقُرآنِ﴾ (٧)

(١) سورة الأعراف، آية (١٤٢).
(٢) سورة الشعراء، آية (١٥١).
(٣) سورة الانسان، آية (٢٤).
(٤) سورة الجاثية، آية (١٨).
(٥) سورة القلم، آية (١٠).
(٦) سورة الفرقان، آية (٣٠).
(٧) الكافي، ج٢، ص٥٩٩.

و يقول «ع» في موقع آخر:

(آلله آلله في القرآن لايسبقكم بالعمل به غيركم)(١).

وحقاً ان الواقع هو هذا، فقد سبقنا غيرنا للعمل به. وقرآننا هو الذي يأمر المسلمين في أكثر من موقع بالسياحة في الأرض والاستفادة من التاريخ ومن التعامل مع الأمم المختلفة ومع الأمزجة المختلفة والمدنيات المتفاوتة،و يقدم لنا أسلوب ايجاد الحلول للمشكلات الاجتماعية. لكن تشاهدون كيف يتخلف المسلمون عن الاستفادة من منافع كثيرة نتيجة اهمال العمل بهذا الدستور. وجاء الآخرون الى العالم الاسلامي،وساحوا فيه وحلّلوا نقاط ضعفنا وقوتنا، واطلعوا على منابع ثروتنا ومعادننا في باطن الأرض وظاهرها،وعلى أرضنا شبراً شبراً. واكتشفوا واستخرجوا واستثمروا هذه الثروات و باعوها علينا بيع السيد المتعالي بثمن باهض.

وهذا هو جزاء من يترك كتابه السماوي و يدير ظهره لقادته المعصومين و يتخذ موقفاً لا أباليًّا منكراً للجميل، أو يرجع الى الوراء محارباً لاسمح الله.

انجى موسى «ع» أمة من عبودية فرعون، وترك أخاه هٰرون قيّماً عليهم لأيام قليلة، لكنهم أنكروا الجميل وتركوا موسى وربّ موسى وذهبوا صوب عجل فاتخذوه وثناً، حينما رجع موسى من سفره وشاهد هذا الارتداد والرجوع الى الوراء من قبل اتباعه تأثر تأثراً شديداً وانتقد أخاه، فقال له هارون: أيها الأخ ان هذه الأمة لم تقبل قيادتي لها،وهؤلاء العبيد بالامس استكبروا بمجرد تحررهم واستضعفوني وحتى أرادوا أن يقتلوني.

ففقدوا حالة الثورة التي كانوا عليها واستقرت فيهم حالة الترف

(١) نهج البلاغة.

وطلب الرفاه وملء البطون وعبادتها محل الايمان والنهضة وطاعة القائد.

جاء نقل هذه القصة في القرآن ليحذرنا نحن الذين تحررنا من أسر النظام الملكي الشاهنشاهي المقبور، فاذا تمايلنا كقوم موسى الى الانحلال والتفرقة وعصيان أمر القائد العادل فسوف نبتلي بنفس المصير (فَاعْتَبِرُوا يا أولي الألْبابِ)...

بحكم كون هذه الحلقة مختصرة فقد تناولنا في الحديث السابق زاوية من صفات القرآن مضافاً الى أن الكاتب يخشى ملل القارىء ولذا نختتم هنا الحديث حول مزايا القرآن لأننا لانقدر على أن نحلل في صفحات قليلة مزايا كتاب هو حديث الله وقد قال سبحانه في وصفه:

(قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتابٌ مُبِينٌ) (١)

(وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ) (٢)

(قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِن رَبِّكُمْ) (٣)

(ذٰلِكَ الْكِتابُ لارَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ) (٤)

(تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ) (٥)

(وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ هُوَ الْحَقُّ) (٦)

(ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى * إِلاّ تَذْكِرَةً) (٧)

في هذا الضوء اعتذر من الله والقرآن والقارىء واختم البحث بذكر

(١) سورة المائدة، آية (١٥).
(٢) سورة الاسراء، آية (٨٢).
(٣) سورة الأنعام، آية (١٠٤).
(٤) سورة البقرة، آية (٢).
(٥) سورة الفرقان، آية (١).
(٦) سورة فاطر، آية (٣١).
(٧) سورة طه، آية (٢-٣).

بعض الوصايا القرآنية لتلاوة القرآن.

تعليمات لتلاوة القرآن

١ــ (لَايَمَسُّهُ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ)(١) فبحكم هذه الآية لايحق لمس القرآن الاّ للأفراد المتطهرين، وجدير بالانسان ان يتوضّأ لتلاوة القرآن.

٢ــ عند الشروع في القراءة نلوذ بالله من شرّ ووسوسة الشيطان واستنتاجاته وعداوته وصفاته التي تحول دون نفوذ أوامر هذا الكتاب الى عمق النفس الانسانية:

(فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)(٢).

٣ــ عند قراءة القرآن نكون بالشكل الذي نحسّ فيه ان الله معنا الآن وبشكل مباشر وفي هذا المكان يحدثنا، ونحن المخاطبين بكلامه. لاان نقرأ القرآن لأجل الحفظ وتهيئة مادة للحديث او الخطابة.

٤ــ نسعى لقراءة القرآن بايقاع مناسب وعلى طريقة الترتيل (وَرَتِّلِ ٱلْقُرْآنَ تَرْتِيلاً)(٣)، يعني: مراعاة مخارج الحروف بشكل سليم، والتقيّد بالوقفات، لاان نقرأه قراءة سريعة وعاجلة.

٥ــ التدبر بعد القراءة، فقد انتقد القرآن بشدة الأشخاص الذين يحركون به شفاههم ويرتلونه بلاتدبر وبلافهم لأسراره ومعانيه (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْآنَ) (٤)

(١) سورة الواقعة، آية (٧٩).
(٢) سورة النحل، آية (٩٨).
(٣) سورة المزمل، آية (٤).
(٤) سورة النساء، آية (٨٢).

٦ــ في مقام الاستفادة من القرآن لابدّ من التوجه لروايات أهل البيت التي وردت في تفسير آيات القرآن ولابدّ من التوجه الكامل أيضاً للوقائع التي كانت سبباً للنزول لتجنب الانحراف الفكري والعقائدي والاستنتاجات التي لا محل لها سواء كانت رجعية او تقدمية.

* * *

كان بحثنا حول طرق معرفة الأنبياء، وقلنا ان رسل السماء يمكن معرفتهم عن طرق ثلاثة:

الطريق الأول المعجزة، وبهذه المناسبة تحدثنا حول معجزة النبي الخالدة (القرآن) ومن المظنون اننا ابتعدنا قليلاً عن صلب الموضوع. الآن استميحكم عذراً، ونتابع بحث طرق معرفة الأنبياء ونتحدث عن الطريقين الآخرين بشكل مختصر ونختم البحث في هذا القسم لنتناول الأقسام الأخرى.

الطريق الثاني

قلنا لأجل معرفة الأنبياء هناك ثلاثة طرق. يمكن معرفة الأنبياء عن طريق متابعة حالاتهم وأقوالهم وسيرتهم العملية.

لاحظ المثال التالي:ـ

يحدث نزاع في الشارع...

يأتي الشرطي فيأخذ المتنازعين الى مركز الشرطة و يشرع معهم في التحقيق بالشكل التالي:

١ــ الاسم والشهرة.

٢ــ أين كان محل النزاع؟

٣ــ في أي وقت نشب النزاع؟

٤ــ ماذا جرى؟

٥ــ ماذا قلت؟

٦ــ ماذا فعلت؟

ينتهي محقق الشرطة الى الصورة الواضحة عن طريق تجميع المعلومات التي حصل عليها بعد التحقيق. ونحن أيضاً نستطيع عن هذا الطريق ان نتعرف على نبينا.

ما هي هويته؟

في أي مكان نهض؟

أي العناصر آمنت به؟

أي الجماعات عارضته؟

عن أي طريق كان يثبت ادعاءه؟

ما هي حجة المخالفين أساساً؟

أي الأفراد أنشأ وربّى؟

تاريخ الأنبياء وخصوصاً النبي محمد «ص» يحكي لنا عن الاجابة على هذه الأسئلة بشكل واضح

ما هي هويته؟ رجل أمي غير متعلم وأمين

في أي مكان نهض؟ في مركز عبادة الأوثان والشرك وفي بلاد النزاع والخرافة والجهل شرع في نهضة معقدة وصعبة.

أي العناصر آمنت به؟ امرأة اسمها خديجة ورجل اسمه علي بن أبي طالب «ع»، وهما نموذجا الكمال والاخلاص والطهارة وقبل ايمانهما كانا متصفين بصفات عظيمة.

أي الجماعات عارضته؟ لم يكن في معارضيه سوى قوى الاستكبار

والاستثمار والظلم، والعناصر الأنانية.

عن أي طريق كان يثبت ادعاءه؟ لم يمض الاّ على سبيل الحقيقة. ولم يقدم وعوداً مادية أو يتظاهر بالرياء فينشر عن هذا الطريق رسالته.

كلامه وقوله تعاليم القرآن المضيئة.

أي الأفراد ربّى؟ العناصر التي تربت في رسالته أمثال سلمان وأبوذر ومقداد وعمار و...

حقاً ان نبينا لولم تكن لديه معجزة فهذه المتابعة البيلوغرافية وسيرته العملية وأهدافه يمكنها أن تكون شاهداً حاكياً عن صدقه.

الطريق الثالث

الطريق الثالث لمعرفة النبي يمكن أن يكون كلام الأنبياء السابقين:

لاحظ هذا المثال الجميل:

اذا أتيت وادعيت ان منزلك هو ملكي واسمي وهو يتي مثبتة في سند الملك . فالطريق الطبيعي مقابل هذا الادعاء ينحصر في تقديم السند أمام الناس وان تثبت لهم ان اسمي وهو يتي ليست موجودة في السند وادعائي كذب محض. اما اذا استبدلت هذا الطريق الاعتيادي بالعراك والنزاع و بذلت المال في سبيل النزاع ولم تقبل أبداً على تقديم السند فماذا يحكم الناس؟

فبعد عدم اظهارك للسند وتحملك اشكال النزاع والخسارة، أفهناك غير اثبات حقانية ادعائي؟

جاء رسول الاسلام وقال أنا النبي الذي ذُكر اسمي وهو يتي في توراتكم وإنجيلكم.

كان الموقف ان اليهود أعلنوا الحرب وان المسيحية تحملت الضربات في حين لولم تكن دعوى الرسول «ص» مثبتة في كتب الأديان السابقة لأمكنهم ان يقفوا في وجه الرسول باطمئنان وان لا يقتصروا على عدم الايمان به بل يثبتون بطلان رسالته، و يقولون: ان اسمك وصفاتك لم تثبت في التوراة والانجيل، وأنت رجل كاذب.

على هذا الأساس فنحن نستنتج من الحروب والخسائر التي تحملها أعداء الاسلام، ان اسم وهو ية محمد «ص» كانت موجودة في كتبهم وإنْ حُرِّفَتْ اليوم.

القسم الثالث:

صفات الأنبياء العامة وسيرة الرسول الأكرم (ص)

مقدمة

ندوّن في هذا القسم جانباً من صفات ومزايا الأنبياء بشكل مختصر.

التعرف على مزايا الأنبياء له أثر على عقيدتنا، الاطلاع على خصال وأخلاق هؤلاء العظام له دور هام في عملنا وسلوكنا. الاطلاع على التاريخ وفلسفته أحد العوامل المؤثرة على رشد الانسان وتربيته، وكم حسناً أن نتعرف على تاريخ رجال يمكننا اعتبارهم أكثر بني البشر توفيقاً وكمالاً وسلامة.

لايقتصر أثر الاطلاع على تاريخ وصفات الأنبياء علينا. بل هو مؤثر أيضاً حتى على الأنبياء أنفسهم، ولذا نلاحظ ان النبي حينما تهدده بين الحين والآخر أشكال المؤامرات والضغوط ينحصر علاج هذا التهديد في نافذة الأمل التي يفتحها الله له من خلال خاطرات الأنبياء السابقين.

حينما يتعرض النبي لسيل الاستهزاء تنزل الآية فوراً ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾(١) وعليك كما فعل أولئك العظام ان تبطل باستقامتك

(١)ـ سورة الأنبياء، آية (٤١).

وصبرك مفعول كل اللدغات السامة.

ومقابل الأذى الذي كان يوجهونه للنبي ينقل الله تعالى شعار الأنبياء السابقين ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا﴾(١)

خلاصة الكلام هي ان التعرف على أخلاق وتاريخ الأنبياء له أثر ايجابي على الجميع. وها نحن نرد البحث.

حياة الأنبياء الشعبية

حيث ان أفضل نموذج للدعوة والتبليغ هو التبليغ العملي، كان لابدَّ للأنبياء من مواجهة مشكلات الجماهير ليكونوا أمثلة عملية لتربية الناس وتقويمهم. ولذا عاش الأنبياء معيشة الناس الاعتيادية، وكانوا شركاء الناس في متاعبهم وآلامهم، يذوقون طعم سائر المشكلات من قبيل التورط بالعدو، اليتم، المرأة العاقة، المرض، الفقر، الاستهزاء، وسائر المتاعب التي يتعرض لها أبناء الانسانية باشكال متفاوتة وننقل مجموعة آيات في هذا المجال:

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً﴾(٢) وما يترتب على الزوجة والأبناء من مشاكل.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ﴾(٣).

كسائر الناس.

وهذه الحياة الاعتيادية البسيطة موضع نقد في ثقافة الخصوم

(١)ـ سورة ابراهيم، آية (١٢).
(٢)ـ سورة الرعد، آية (٣٨).
(٣) ـ سورة الفرقان، آية (٢٠).

كان علي «ع» يساعد الزهراء على أعمال المنزل بين الحين والآخر.

نعم هذه هي رسالتنا وثقافتنا وأسلوب سيرة قادتنا. الذين يمثلون نماذج مثالية نقدمها للعالم بفخرٍ واعتزاز ليعرف العالم انه اذا رفع شعار العدالة والشعب والمساواة فلم يأتِ بجديد، ولم يكن له قادة يجسدون شعاراتهم هذه.

تحذير الأنبياء

رغم ما كان يتمتع به الأنبياء من كمالٍ وقُرب من الله، الاّ ان تنبيهات وتحذيرات قاطعةً كانت توجه لهم بين الحين والآخر. التحذير من الخروج عن مدار التوحيد، ولأجل المثال لاحظ الآيات التالية:

١ـ ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾(١)

٢ـ ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾(٢)

الخطاب للنبي «ص»: اذا لم توصل للناس بلاغنا بشأن تعيين القائد المعصوم لم تؤدِ رسالتنا.

٣ـ ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾(٣)

تقوّل = افتعل كلاماً.

أخذنا منه باليمين = ايقاف فعاليته وقدرته على العمل.

الوتين = شريان القلب.

نماذج هذه الآيات القرآنية ليست قليلة. جاءت هذه الآيات التي

(١)ـ سورة الزمر، آية (٦٥).

(٢)ـ سورة المائدة، آية (٦٧).

(٣) ـ سورة الحاقة، آية (٤٤-٤٦).

تحذر أنبياء السماء، وتراقب سلوكهم في كل لحظة وتعاتبهم عتاباً شديداً، لتحفظهم من الانحراف بهذا الأسلوب التوجيهي.

أخلاق الأنبياء

عندما أخبر الله موسى «ع» بأنه قائد الأمة ورسول الله، كان أول طلب له من الله هو سعة الصدر التي تعني التحمل والروح الكبيرة والصبر.

(رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي)(١)

حقاً فأي قدرة تستطيع ان تقاوم سيل الاتهامات والسخرية والاهانة والعراقيل والتوقعات التافهة سوى التحمل والامداد الإلهي. نعم فالمركب الذي يتحمل كل تلك السيول هو سفينة الصبر.

فلم يأتِ نبي للناس الاّ واستهزءوا به:

(وَمَا يَأْتِيهِم مِن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ)(٢)

لم يأتِ نبي للناس الاّ قالوا عنه ساحر، أو مجنون (كَذَٰلِكَ مَا أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ)(٣) وقد اتهموا نبيّنا العزيز بالشعر والكهانة، الاّ انه كان على خلق عظيم، كما يصفه القرآن، وكان برأفته وعطفه الخاص يتحمل كل الاتهامات، ولو لم يكن كذلك فلا يستطيع ان يصل الركب الى محله: (وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لاَنفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)(٤).

(١) ـ سورة طه، آية (٢٥).
(٢) ـ سورة الحجر، آية (١١).
(٣) ـ سورة الذاريات، آية (٥٣).
(٤) ـ سورة آل عمران، آية (١٥٩).

كان يتعرض النبي بعض الأحيان لاهانة بعض نسائه ، وعندها يتألم أصحابه، و يقولون له: اطرد هذه المرأة سيئة الخلق من بيتك. الاّ ان النبي «ص» يجيبهم بأنه يتجاوز هذه الاهانة لأن نقاط الضعف لابدّ ان توضع الى جانب نقاط القوة.

كان النبي يستغفر لقومه وكان يشاورهم في مجالات متعددة، وكان رحيماً عطوفاً عليهم مهموماً حريصاً على هدايتهم الى الحد الذي خاطبه الله بقوله تعالى (مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ)(٣)

ويخاطبه في موقع آخر (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا)(٤)

باخع = مهلك.

ابتدأ الأنبياء نهضة صعبة معقدة واستمروا فيها حتى الاستشهاد.

لم يكونوا متزلفين ماكرين ولم يتحركوا على أساس اثارة الآخرين، ولم تكن تعاليمهم لأجل المنافع والمكاسب.

كلما تقدم العلم تفتحت الآفاق لادراك قيمة وأهمية مقولاتهم. كانوا واقعيين، بعيدين عن التأثر بالمحيط والأسرة والفقر والغنى والخوف والفشل.

هذا رسول الله «ص» كان يتعبد في غار حراء يوماً وكان يدعو الناس للاسلام على جبل الصفا يوماً آخر، وآخرِ يحمل السيف في الحرب، و يوماً يحمل الحجر على كتفه ليبني مسجد قبا، و يوماً آخر يدخل مكة فاتحاً.

كل هذه التحولات بنزولها وصعودها لم تترك أي أثر على شخص

(١)ـــ سورة طه، آية (٣).
(٢)ـــ سورة الكهف، آية (٦).

النبي، وكان ملتصقاً بالحقيقة والواقع. وبتمام وجوده كان يتلقى تلك الحقيقة ليبلغها للناس.

الاخلاص

الاخلاص مزية أخرى من مزايا الأنبياء، فلم يكن لدى هؤلاء انتظار ورجاء من أحد وكانوا صوتاً واحداً يقولون:

(إنْ أجْرِيَ إلاّ عَلىٰ رَبِّ ٱلعٰلَمِينَ)(١)

ونبيّنا «ص» كرر هذا النداء أيضاً (قُلْ مَا أسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أجْرٍ إلاّ مَن شَاء أنْ يَتَّخِذَ إلىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً)(٢)

وشأنه في هذا النداء شأن المعلم الذي يقول لطلابه: ان أجرة درسي هي ان تتعلموا الدرس جيداً، أو يقول لهم إنَّ أجرة تدريسي هي ان يجلب كل واحد منكم وقوداً لمدفئة الصف غداً.

وتنبغي الاشارة الى أن تلقي الدرس جيداً، وجلب الوقود لمدفئة الصف يصبان معاً باتجاه نفع الطلاب. وحينما يقول القرآن:

(قُلْ لاَأسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أجْراً إلاّ المَوَدَّةَ فِي القُرْبىٰ)(٣)

فهذه المودة التي يطلبها النبي لأهل بيته هي في الحقيقة مودة القادة المعصومين لأجل ادامة خط الله والأنبياء.

واذا لاحظنا ان أجر الرسالة يرتبط بأهل بيت العصمة وانهم الطريق الى الله، فذلك لأنه ليس هناك انفصال بين طريق الله وسبيل الأئمة المعصومين أبداً، كما ان كتاب الله وعترة أهل البيت النبوي عليهم

(١)ـ راجع سورة الشعراء من الآية (١٠٩-١٨٠) حيث تلخص نداء الأنبياء نوح وهود وصالح ولوط وشعيب.

(٢)ـ سورة الفرقان، آية (٥٧).

(٣)ـ سورة الشورى، آية (٢٣).

السلام يرتبطان ارتباطاً أبدياً لاانفصام له.

خلاصة الكلام هي ان الأنبياء لم ينتظروا أي أجرة مادية من الناس مقابل اختيار الناس ومسيرهم على طريق أولئك.

(قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ)(١) ولم يقتصر الأمر على عدم انتظارهم لأجر مادي من الناس بل تعداه الى انهم «ع» لم يمنحوا الناس وعوداً مادية. حيث نقرأ في التاريخ: ان جماعة جاءت النبي «ص» وقالت له نحن نؤمن بك على شرط ان تعهد لنا بالحكم من بعدك ، فأجابهم النبي «ص»: ان الايمان بي مسألة تعبد ورسالة، وهي ترتبط بالله... نعم فالآخرون هم الذين - كما يقول علي «ع»- يوزعون اللبن بينهم وهو في الشدي و يعزلون و ينصبون و يتشاطرون أو يغنمون على حساب الناس وحكمهم.

وهذا النبي يقف منفرداً أمام كل الاغراءات والوعود التي قدمها المشركون له و يقول: والله لوأعطيت الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما فعلت... (٢)

وهذا الحزم بنفسه أحد خصوصيات الأنبياء.

العصمة

العصمة احدى خصوصيات الأنبياء، وهي تعني ان الانسان على أثر المعرفة والايمان يصل الى درجة روحية لايرتكب معها أي ذنب وهو على حرية ووعي كامل، بل ان لا يكون هناك تفكير بالذنب.

(١)ـــ سورة سبأ، آية (٤٧).

(٢)ـــ راجع سيرة ابن هشام ج١ ص(٢٦٥).

يتساءل البعض متعجباً، كيف يستطيع الانسان ان لايفكر بالذنب ؟

والمسألة بالنسبة لنا محلولة، توضيح ذلك هو:

انك قارئي العزيز لديك العصمة من الكثير من الذنوب، بمعنى انك لم ترتكب ولم تفكر بها، واذا كنت شاكاً في ذلك فأجب على الأسئلة التالية:

١ــ هل خرجت عرياناً كما ولدتك أمّك أمام الناس لحظة ما ؟

٢ــ هل قذفت بنفسك في النار لحظة ما ؟

٣ــ هل قذفت بنفسك من شاهق المنارة ؟

٤ــ هل قتلت فرداً مؤمناً ؟

الجميع يجيب على جميع هذه الأسئلة بالنفي. لأننا على مستوى من الوعي الذي أبصرنا به عيب وضرر هذه الأعمال، وتيقنا بذلك وعبر يقيننا من حافة الذهن واستقر في القلب. فهنا يقين وتصديق لامجرد تصور وعلم.

حقاً فاذا عرفنا بعمق و وصلنا الى درجة اليقين والتصديق بأن الِغيبة والتعريض بالآخرين الذي يصدر هذه الأيام منّا له صورة مجسمة يوم القيامة فسوف لانفكر اطلاقاً بالغيبة.

عيبنا هو ان معارفنا ومعلوماتنا لم تعبر من حافة الذهن لتستقر في القلب فلدينا علم، ولكن ليس لدينا يقين. ولذا نعرف رداءة العمل الاّ اننا نرتكبه.

في هذا الضوء فأساس تجنب الذنب هو الايمان الواقعي والعلم المتغلغل في الوجدان والتصدِيق الكامل.

علامة اليقين

التفت النبي بعد اتمام صلاة الصبح الى الناس فشاهد شاباً أصفر اللون، شعث الشعر، ذهبت عيناه في قعر حدقته، فسأل النبي الشاب عن حاله، فأجاب الشاب: أنا الآن بين يديك وأنا على اليقين، فعجب النبي من سماعه لفظ (اليقين)، اذ ان الشاب لم يقل أنا على علم أو معرفة، بل قال: لديّ يقين.

فسأله النبي عن علامة اليقين، فأجاب الشاب: أنا متيقن من يوم القيامة بحيث ذهب النوم عن عيني، وكأني أرى جهنم ومشاعل نيرانها من جهة، وأرى من الجهة الأخرى الجنة ووافر نعمها، ومحكمة العدل الإلهي والناس تحشر، وأنا واقف بين يدي الحساب. بعد ان سمع النبي علامة اليقين من الشاب صدّق ادعاء الشاب. ثُمّ طلب الشاب من النبي ان يدعو له بالشهادة في سبيل الله، فدعا له النبي، ولم تمر أيام قلائل واذا بحرب تقع فيشترك هذا الشاب فيها، و يبلغ درجة الشهادة في صراع الحق مع الباطل.

ضرورة عصمة القائد الإلهي

يمكننا ان نعتبر الدليل على ضرورة العصمة مضمون بيت الشعر الذي يفيد: (ان الدليل على حاجتنا لقائد معصوم هو اخطاؤنا وانحرافاتنا الفكرية والعملية، فانه من ذلك اليوم الذي يكون فيه قائدنا أيضاً مبتلياً بالخطأ والانحراف، في هذه الصورة يكون هو نفسه محتاجاً الى قائد معصوم آخر.) هذا من جهة.

ومن جهة أخرى نقول: لابدَّ ان يُتمَّ الله حجته على الناس، وان لايترك مجالاً للمعاذير والحجج، وهذا لايتم الاّ بوجود القادة المعصومين.

كيف يمكن ان تعهد القيادة لشخص هو نفسه ليس بمأمن من الخطأ والسهو والذنب؟

أضف الى ذلك، ألم يكن اعطاء قيادة الناس لشخص مذنب اهانة لمقام الانسانية؟

فهذا القرآن أمامنا قبل كل شيء ينقل لنا دعاء ابراهيم «ع» الذي يطلب فيه ان يجعل الله الامامة والقيادة في ذريته، فيأتي الجواب بلا تردد:

(لاَيَنالُ عَهْدِي ٱلظَّالِمِينَ)(١) الظالم والمذنب لايمكن ان يتقلد المقام والعهد الإلهي أبداً.

ودليل آخر هو: ان القرآن أمرنا في موارد متعددة بطاعة الرسول وقد جاء الأمر القرآني مطلقاً بلا قيد وشرط، وهذا بنفسه دليل على عصمة الرسل.

اذ لو كان الأنبياء مبتلين بأي نوع من الانحراف والذنب فلابدَّ ان يأتي الأمر مقيداً ومشروطاً، كما هو الحال بالنسبة لطاعة الوالدين فهي رغم أهميتها الشديدة لكنها مشروطة و يصل القرآن الى الحد الذي يعلن فيه بصراحة: (وَإنْ جاهَداكَ عَلىٰ أنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما.)(٢)

قارئي العزيز: من خلال المقارنة بين طاعة الوالدين المشروطة وطاعة الرسول المطلقة بلا قيد أو شرط يمكننا ان ننتهي بوضوح الى ان النبي بحد العصمة التي لانحتاج معها الى تقييد اطاعته بقيد أو شرط، وكما يقول

(١)ـ سورة البقرة، آية (١٢٤).

(٢)ـ سورة لقمان، آية (١٥).

القرآن الكريم: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾(١).

ملاحظات

أ ـ نختلف مع تصور البعض الذي يتشبث ببعض آيات القرآن، لينال من عصمة الأنبياء. فمن خلال تجميع ومقارنة الآيات والروايات والأدلة العقلية فلا نجد منافاة اطلاقاً بين العصمة و بين العتاب والتحذير والتنبيه الموجود في القرآن، لأن هذه التحذيرات نفسها يمكن ان تكون طريقاً للعصمة وحائلة دون اشكال الغلو بحق الأنبياء.

وبما ان هدفنا في هذا الكتاب هو التبسيط والايجاز فسوف نتجنب الدخول في تفاصيل هذه المباحث.

ب ـ حيث انه يتحتم نزاهة الأنبياء من أي نقطة ضعف وابهام، لكي لا تكون حجة بيد الخصوم، ولكي لايسلب اطمئنان الا تباع، يلزم ان تكون عصمتهم شاملة للعصمة على مستوى تبليغ الرسالة وعلى مستوى الذنوب صغيرها وكبيرها سهواً وعمداً. لكي لايبقى مجال لالتماس المعاذير والحجج من قبل الخصوم، ولكي لايسلب اطمئنان الا تباع. ولكي تتم الحجة، وكما جاء في القرآن ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَالِغَةُ﴾(٢)

حقاً؛ اذا لم يكن النبي أو الأئمة معصومين، أفلا يصطدم الناس بالتناقض بين أعمالهم وأقوالهم، وهل يصحّ القول مع أمثال هؤلاء القادة بان الله أتم حجته على الناس؟!

ج ـ ان العصمة لا تتنافى مع استغفار ومناجاة الأنبياء، وذلك لأنه

(١) ـ سورة النجم، آية (٣، ٤).

(٢) ـ سورة الأنعام، آية (١٤٩).

حينما يرى نفسه في محضر الله وتحت رقابته، وآمن بروحه وقلبه ان الله واعٍ وحاضر وناظر على العقل والقلب، وان أعماله تضبط وتسجل بأكملها، فسوف يكون في وضع يستحي ويخجل معه من ارتكاب بعض الأعمال وان لم تكن محرمة.

فأنا نفسي حينما أكون في منزلي وأعطس أكثر من مرة فلا أحس بالخجل، أما حينما أكون تحت شعاع التصوير التلفزيوني لتسجيل صورة لدروس القرآن فأحس بالألم من عطسة واحدة.

وأولياء الله الذين يحسون انهم في حضور الله فجزاء أبسط أعمالهم يحصل لديهم مايفتقده الآخرون من الاحساس. وهذه هي فلسفة استغفار ومناجاة ودعاء النبي والأئمة المعصومين.

فهرست لجانب آخر من صفات الأنبياء:

من خلال مجموع الآيات والروايات يمكننا ان نحصي صفات لأنبياء السماء نفهرسها كما يلي:

١ــ ان يكون الأعلم.

٢ــ ان يكون مصوناً من الأمراض التي توجب التنفير العام.

٣ــ ان يتمتع باكمل أشكال التحلي بالصبر، واللياقة، وحسن السابقة، والأخلاق، والسبق الى العمل بما يقول. بل ان يكون أفضل أهل زمانه في هذه المزايا والصفات.

٤ــ ان لا يصدر منه أمرٌ مخالفٌ للعقل.

٥ــ ان يخبر بنبوته نبي قبله.

٦ــ ان يكون عارفاً بطبيعة الانسان حاذقاً في ذلك.

٧ــ ان يكون عارفاً بخصائص النفس البشرية، غرائزها، واحاسيسها، واسلوب هدايتها وترشيدها.

٨ــ ان يكون عارفاً بطبيعة المجتمع وأسباب نهضته وانحطاطه وان يكون مطلاً على المستقبل عارفاً أقصر الطرق وأعمق الحلول لهداية الفرد والمجتمع.

٩ــ ان تكون تعاليمه مطابقة للفطرة ومنسجمة مع نداء سائر الأنبياء.

١٠ــ ان يكون منحدراً من أسرة شريفة، طاهر المولد، يقظ الاحساس -لا يسهو-، وان يكون في أعلى مستويات العبادة والشهامة.

ويمكننا ان نستخرج عشرات هذه الصفات من بين طيات مئات الآيات والأحاديث، الاّ اننا نتجنب التفصيل بسبب بناء هذا الكتاب على أساس الاختصار والبساطة، ونرجع قارئنا الى الدراسات التفصيلية في هذا المجال.

صفات الأنبياء

عبودية الله

يختلف الأنبياء عن كل العناصر التي يؤثر أبسط المناصب والمراكز على تفكيرهم وعملهم، و ينتهي بهم الى الغرور والتعالي. فرغم ما كان لنبي الاسلام من سلطان، الاّ انه «ص» لم يخرج عن مدار عبودية الله والتواضع للمؤمنين... وكان أقرب المقاتلين في مواجهة العدو، وكان يكرر القول -كما نقله القرآن- باني بشر مثلكم. و يصرح القرآن الكريم بالتزام الأنبياء بخط العبودية:

(مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً

لِي مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾(١)

نعم فالأنبياء حتى بالنسبة لابنائهم وأهلهم ليس لهم حق الشفاعة لهم اذا خرجوا عن مدار التوحيد والعبودية، ولذا رُدَّتْ شفاعة نوح بحق ابنه في الجملة القرآنية المشهورة: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾.

علم الغيب

الاطلاع على الغيب أحد امتيازات الأنبياء، والقرآن في هذا المجال يقول: ﴿عَالِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾(١)

سؤال:

نقرأ في بعض آيات القرآن قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾(٢)، ومع وجود نماذج هذه الآيات التي تحصر علم الغيب بالله، فكيف نثبت علم الغيب للنبي والأئمة؟.

الجواب:

(١) علم الغيب لله وحده من حيث الأساس. واذا اطلع النبي أو الأئمة على شيء من الغيب، فهذا لايعني انهم يعلمونه من قبل، بل الله أعلمهم. ولذلك يجيب النبي احدى نسائه في واقعة من الوقائع اذ سألته: من أين لك العلم بذلك فقال النبي: ﴿نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾(٣).

(٢) ان علم الغيب على نحوين:

(١)ـ سورة آل عمران، آية (٧٩).

(٢)ـ سورة هود، آية (٤٦).

(٣)ـ سورة الجن، آية (٢٦-٢٧).

(٤)ـ سورة الأنعام، آية (٥٩).

(٥)ـ سورة التحريم، آية (٣).

واذا لم يبن الأنبياء مجتمعاً عقائدياً فهذا ناشيء عن تقصير الناس ونزيّن هذا الجواب بعدد من الآيات:

١ ـ (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ) (١)

٢ ـ (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي القَومَ الكَافِرِينَ) (٢)

٣ ـ (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي القَومَ الفَاسِقِينَ) (٣)

٤ ـ (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن هُوَ مُسرِفٌ كَذَّابٌ) (٤)

تتضح من خلال هذه الآيات بجلاء علة الابتعاد عن هدى الأنبياء وعدم تشكيل المجتمع العقائدي هم الناس أنفسهم، فبسبب الظلم والكفر والفسق والاسراف والكذب هبطوا من مستوى الاستعداد للهدى. في الصفحة الأولى من القرآن نصبت قطعة تقول:

(ذٰلِكَ الكِتَابُ لَا رَيبَ فِيهِ هُدىً لِلمُتَّقِينَ) (٥)

وتعني ان القرآن رغم نزوله لهداية جميع أبناء العالم، ولكن متابعة الحق تنحصر في الأفراد المتقين الذين ألقوا العناد والتكبر والهوى جانباً مقابل مبادىء الحق. فالأشخاص الذين لا يُزيلون من تربة وجودهم التعصب والعقد والعلاقات التافهة وسائر موانع المعرفة لا ينتفعون بالهدى أبداً

(١) سورة القصص، آية (٥٠).

(٢) سورة المائدة، آية (٦٧).

(٣) سورة المنافقون، آية (٦).

(٤) سورة غافر، آية (٣٨).

٥ـ كما ان العفو والتسامح في التعامل الاجتماعي مسألة منظورة كذلك القصاص والانتقام مسألة منظورة في موقعها:

(وَلَكُم فِي القِصَاصِ حَيٰوةٌ يَاأُولِي الأَلبَابِ.)(١)

٦ـ على مستوى السياسة الخارجية تمنع كل سلطة وولاية وتَدَخُّل للآخرين. (وَلَنْ يَجعَلَ ٱللَّهُ لِلكافِرِينَ عَلىٰ المُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)(٢)

٧ـ لايتاح للسفهاء وناقصي الأهلية اختيار التصرف في ميزانية الدولة والأموال الشخصية، وحسب وصية الامام «ع» لا تترك الأموال بيد العابثين المقامرين ومتعاطي الخمور اذ ان هؤلاء في رؤية الأئمة المعصومين سفهاء أيضاً:

(وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَموَالَكُمْ)(٣)

٨ـ الاكتفاء الذاتي والاعتماد على النفس علامة المجتمع العقائدي الاسلامي. والقرآن يشبه المجتمع الاسلامي بالنبات الذي يقف على ساقه (فَاسْتَوىٰ عَلىٰ سُوقِهِ)(٤)

فيعلن الاسلام للأمة ان تعتمد على نفسها اقتصاديا وتبدل جهدها لتعمير وسائلها الصناعية مستغنية عن الآخرين اذ ان الامام الصادق «ع» يقول:

(استصلاح المال استغناء عن اللئيم)(٥)

٩ـ يجب منح المراكز المسؤولة للعناصر اللائقة الرسالية المؤهلة لأن هذه المراكز أمانة والله يقول:

(١) سورة البقرة، آية (١٧٩).

(٢) سورة النساء، آية (١٤١).

(٣) سورة النساء، آية (٥).

(٤) سورة الفتح، آية (٢٩).

(٥) التوازن بين الدنيا والآخرة.

الطاغوتية. حتى قالوا بصدد نوح «ع»:

﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ (١)

تقرأ في تاريخ رسول الاسلام، انه حينما يجلس بين أصحابه تكون جلستهم على هيئة دائرة لكي لايكون هناك مقدمة ومؤخرة للمجلس يتميز على أساسها الأفراد.

وكان في لباسه وتعامله بالشكل الذي لم يستطع معه غريب دخل المسجد أن يشخص أياً من الجالسين هو نبي الاسلام مهما حاول تحديق النظر في الجالسين. وهذا هو الطرح الاسلامي لحياة القائد.

من ناحية العمل كان أكثر الأنبياء من الفلاحين وأصحاب الماشية وكانوا يرعون الحيوانات بأنفسهم.

كان النبي «ص» يجمع الحطب بنفسه لاعداد الطعام.

ولم ينفرد الأنبياء بهذا النموذج من السلوك، بل كان طلابهم من الطراز الأول، وأوصياؤهم على الحالة نفسها. خذ مثلاً: الامام السجاد، كان يذهب «ع» الى الحج مع قافلةٍ لا تعرفه، و يشترط على مسؤول القافلة أن يؤدي «ع» بنفسه كلَّ أشغال الحجاج طلباً لرضا الله.

يرد شخص الى الحمام، و يرى الامام الرضا «ع»، لكنه لم يعرفه فيطلب من الامام أن يغسل له جسمه، فيقبل الامام الرضا طلبه بارتياح و بلا تكلف، وعندما عرف ان الذي ينظف له جسده هو الامام الرضا اعتذر منه اعتذاراً مُخْجِلاً، وسحب نفسه، الاّ ان الامام «ع» أصرّ على اتمام غسل بدنه له.

الامام علي «ع» يقول: كلّما حمي الوطيس كنّا نلوذ برسول الله.

(١)ـ سورة المؤمنون، آية (٣٣).

الأول- مجموعة علوم يختص الله بعلمها ولا يُطلِعُ أحداً عليها- كما تقرأ في الدعاء (وبحق علمك الذي استأثرت به نفسك)

النحو الثاني: مجموعة علوم يعلمها الله ومع انها من الغيب، لكنه يمن باعلامها لأوليائه.

وهذه الخصوصيات من علم الغيب، والعبودية الحقة، والعصمة، والاعجاز والحزم، والمناجاة، ودموع العاشقين، هي التي تميز الأنبياء عن الآخرين. فنحن شاهدنا بين الحين والآخر مصلحين استهدفوا بناء المجتمع يصلح افراده و يُعون مسؤولياتهم. لكن الصفات المتقدمة من جهة، والامداد الغيبي من جهة أخرى، هما اللذان يميزان الأنبياء عن سائر المصلحين.

بعد ان أوضحنا جانباً من الصفات العامة للانبياء فمن المناسب ان نتحدث بشكل مختصر عن سيرة رسول الاسلام «ص»، ليكون التعرف على حياة الرسول درساً لامة هذا الرجل العظيم.

جانب من سيرة رسول الاسلام

يتفرد نبي الاسلام «ص» من بين جميع الأنبياء بأنه «ص» قد سجل تاريخه بكامله وثبتت وقائعه بأجمعها.-وهذه الخصوصية لنبي الاسلام بنفسها مجال فخر واعتزاز المسلمين، اذ ان حياة سائر الأنبياء، ثبتت بعد رحيل هؤلاء العظام بقرون، ومع كثير من الحذف، تصاحبه أشكال التهم والافتراءات.

الفت كتب كثيرة حول أخلاق النبي «ص» وكان أكثرها باللغة العربية. وحيث اننا بحثنا في الحلقات السابقة حول الأنبياء وطريق

معرفتهم وسيرتهم وصفاتهم رأينا ان المناسب هنا تناول جانب من سيرة رسول الاسلام العظيم، اذ ان التعرف على سيرة هذا الرجل العظيم وأسلوب حياته وأخلاقه الفردية والاجتماعية نافع للجميع بلا استثناء. سائلين المولى تعالى ان يتقبل منا هذا العمل ويجعلنا من أفضل اتباع رسول الله.

اعتمدنا في كتابة هذا المقطع على كتاب بحار الأنوار (ج ١٦)، وسيرة ابن هشام، وكحل البصر، وتفسير الميزان (ج ٦)... وكتب أخرى...

وحيث لانستطيع ان ندون السيرة الكاملة للنبي ولانحسب ان هناك شخصاً يسمح لنفسه ان يقول انني اكتب كامل سيرة هذا الرجل العظيم ـ فمن الأفضل ـ كما أشرنا في العنوان ان نتناول جانباً من أخلاق وأسلوب النبي العظيم،

(مالا يدرك كله لا يترك جله).

....

مشاركته الآخرين في مشاكلهم وهمومهم

قبل بعثة الرسول «ص» حدثت ازمة اقتصادية صعبت معها حياة الناس بشدة. وتدريجياً بلغ الوضع الى حد المجاعة والقحط، فتضايق الناس بشكل كبير، وكان من بين هؤلاء أبوطالب الأب العظيم لعلي «ع»، اذ كان «رض» رجلاً كبير السن ذا عائلة كبيرة، وكان قليل الموارد، بحاجة شديدة الى المساعدة والعون.

فاتفق النبي «ص» وعمه (العباس) على الذهاب الى أبي طالب.

وان يأخذ كل واحد منهم واحداً من أبنائه لتحميف مؤونه معيشة أبي طالب. فذهبا الي ابي طالب، فأخذ عمه العباس جعفر الى بيته، وأخذ النبي علياً عليه السلام، ومنذ الطفولة تربي علي في حجر الرسول... وهذا نموذج لمشاركة رسول الله في الهموم.

أخلاقه الفردية

كان ينام على الحصير، ويخيط ما تمزق من ثيابه ونعله.

كان يواجه السخرية، والاعتداء بالعفو والصفح في كثير من الأحيان. يذهب بنفسه الى السوق، ويحمل بنفسه حاجات المنزل.

يقول (أنَس) كنتُ في بيت رسول الله سنيناً، ولم يُعَنِفْني أبداً.

كان يحلب الشاة بنفسه، يسَلِّمُ على الأطفال، يستجيب لدعوة الفقراء والعبيد، لايذم الطعام الذي لايشتهيه، كان مواظباً على غسل الجمعة، واستعمال المسواك، والعطر، وارتداء الثياب البيضاء. وكان «ص» يبذل عناية خاصة في حلاقة شعره وتحسين منظره حين الخروج من البيت. لايتكيء على شيء حال تناول الطعام، لكي لا يظهر بمظهر المتكبر ازاء نعم الله.

زوج

رغم ان اكثر ازواج رسول الله «ص» نساء ثيبات وأرامل ومتفاوتات في الأخلاق، الاّ انه «ص» مثله مثل الآية (وَعَاشِرُوهُنَّ بِالمَعرُوفِ)(١)، فقد كانت معاملته لهن معاملة طبيعية مع كامل

(١)ـ سورة النساء، آية (١٩).

الاحسان. و يصدر بين الحين والآخر من بعض نسائه ما يؤذيه الى الحد الذي قال له أصحابه بتألم يا رسول الله: طلقها، فكان «ص» يجيبهم بان سيئات هذه النساء يجب ان توضع الى جوار حسناتهنّ ولاينبغي للانسان ان يطلق زوجته لأجل شيء من سوء التصرف والأذى. اذ ان لهن حسنات وكمالات أخرى.

قال النبي «ص»: (ليسَ مِنّا مَن وُسِّعَ عَليهِ فَقَتَّرَ علىٰ عِيالِهِ)(١)

قال النبي «ص»: (خَيرُكُم خَيرُكُم لأهْلِهِ وَأنا خَيرُكُم لأهْلِي)(٢)

و وفاءً لخديجة كان يتعامل بعد وفاتها باحترام خاص مع معارفها من النساء. وكان يتعامل مع نسائه بالمساواة والعدالة حتى في شدة مرضه حيث كان ينقل سرير مرضه في كل ليلة الى غرفة احداهن.

يرعى الصغير

جيء بوليد جديد الى النبي «ص» ليسميه، فبال هذا الطفل الوليد في حجر رسول الله... فصاحت به أمُّه وتألمت هي وأقرباؤها تألماً شديداً، الاّ ان النبي «ص» أمرهم بتركه حراً وانه سوف يقوم بتطهير ثيابه وخاطبهم بأن صياحكم على الطفل سوف يؤدي الى تخويف هذا الطفل البريء... (٣).

(١)ـ مستدرك الوسائل ج(٢)، ص(٦٤٣).
(٢)ـ وسائل الشيعة، ج١٤، ص(١٢٢).
(٣)ـ راجع النص في كحل البصر...

يؤدي السلام للأطفال

كان الرسول «ص» ينادي الأطفال بأسمائهم الجميلة، وقد أوصى بالبنات بشكل خاص، وكان اعطاء المرأة قيمتها ومكانتها مسألة مطروحة في رسالته. وهذا كتابه يتحدث عن الحالة الاجتماعية لأب البنت حينما يرزق أنثى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأنثىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ﴾(١)... في مثل هذا الجو يكون احترام الطفل وخصوصاً الأنثى مسألة في غاية الأهمية والتقدير.

نعم في الزمن الذي كانت البنت عاراً لأهلها: **(قال «ص»: لرجل عنده وقد تغير لون وجهه على اثر اخباره بانجاب زوجته بنتاً قال له: الأرضُ تُقِلّها وَالسَّماء تُظِلّها وَهِيَ رَيْحانَةٌ تَشُمُّها)(٢).**

جاء رجل الى النبي «ص» فقال: ما قبلتُ صبيّاً لي قطّ، قال رسول الله «ص»: **هذا رجل عندي، انه من أهل النار(٣)**

نظر رسول الله «ص» الى رجل له ابنان فقبل أحدهما وترك الآخر، فقال له النبي «ص»: **فَهلاّ واسَيتَ بَينَهُما. (٤)**

لا يناوِر

كان للنبي «ص» ولد اسمه (ابراهيم) وقد توفي ابراهيم في سن الصغر. واتفق بعد موت ابراهيم ان كسفت الشمس، فتخيل الناس ان

(١)ـ سورة النحل، آية (٥٨).
(٢)ـ وسائل الشيعة، ج(١٥)، ص(١٠١).
(٣)ـ وسائل الشيعة، ج(١٥)، ص(٢٠٢).
(٤)ـ وسائل الشيعة، ج(١٥)، ص(٢٠٤).

هـذا الكسـوف بـسـبـب وفاة ابراهيم. فقال لهم النبي «ص»: ان الشَمسَ والقَمَرَ آيتانِ لاينكسِفان ولا ينخسفان لموتِ أحدٍ...

في مـثـل هـذه الـفـرصـة يحـاول الـسـيـاسـيـون عـادة ان يستثمروها لاغـراضـهـــم الشخصية، ويحاولون ربط الناس بشكل أكبر بهم، لكن النبي لا يناور.

سبّاق للعمل

خـطـطـت كـل الـفـئـات المـنـاوئة لـلاسلام من المشركين والمنافقين والكفار للقضاء على الاسلام، فقررت قتال المسلمين في غزوة الأحزاب. هـنـا صمم النبي «ص» على الدفاع والقتال واستشار أصحابه، فاقترحوا ان يحفر خندقاً حول المدينة. فشمر النبي عن ساعده، وكان أول من أخذ بحفر الخندق و بقي مع المسلمين حتى آخر لحظة لا تمام الخندق، رغم ترك البعض للعمل بلا اجازة النبي او مع اجازته.

كرم الرسول

يـقول سلمان: دخلت على النبي في منزله فقدم لي متكأً... والملفت ان هذا السلوك كان يمارسه مع كل ضيف.

جـاء الـنـبـيَّ يـومـاً أخٌ وأخـت له في الرضاعة (١) فقابلاه كلاً على انفراد فأبدى الرسول للأخت احتراماً أكبر من احترامه للأخ. فَسُئِلَ عن علة هذا التفاوت فأوضح العلة، بان الأخت كانت تحترم أبويها وترعاهما أكثر من

(١)ــ الأخوة الرضاعية تنشأ بسبب رضاعة الطفلين أو الأطفال من ثدي واحد وقد بُينتْ في الكتب الفقهية شروط علاقة الأخوة الرضاعية...

الأخ، ولذا فاحترامي ومحبتي لها أكبر. (١)

وقد كان الضيوف يزاحمون النبي «ص»، و يبقون جالسين يتبادلون أطراف الحديث بعد تناول الطعام الاّ ان النبي يصبر و يتحمل هذا الوضع حتى نزلت الآية:

(فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ) (٢).

تعبّد رسول الله

اذ ينقضي طرف من الليل ينهض رسول الله من فراش نومه، فيقوم أولاً يسجد لله شكراً، و يستعمل المسواك، و يتلو آيات من القرآن، ينفرد بعد ذلك في زاو ية يتعبد فيها. رأته بعض نسائه على هذه الحال فسألته، أنت لا ذنب لك فلِمَ تبكي ؟ !

فكان يقول: ألا أكون عَبداً شَاكِراً لِلَّهِ؟!

واذ يحل شهر رمضان يعتق «ص» كل عبيده.

كان يرتعش أثناء صلا ته، وكلما أدى الصلاة منفرداً أطال ركوعه وسجوده الاّ انه وقتما يؤدي الصلاة مع الناس جماعة فيصليها صلاة اعتيادية. وقد أوصى بعض أصحابه ممن أصبح امام جماعة للمسلمين ان يقرأ السور القصار وان لا يطيل في صلا ته.

تدبير النبي

كان ذا رؤ ية وخطة و وضوح في حل المشكلات.

(١)ـ بحار الأنوار ج(١٦)، ص(٢٨١).

(٢)ـ سورة الأحزاب، آية (٥٣).

نقرأ في التاريخ ان قبائل العرب تعاونت على تجديد بناء الكعبة، ولما وصل الدور لوضع الحجر الأسود تنافست القبائل عليه فأرادت كل قبيلة ان يكون لها هذا الفخر. ووصل الأمر الى حد التدافع، وكاد ان يقع القتال بين القبائل، فاقترح أحدهم ان تُحكِّم القبائل أول قادم يرد الكعبة، وفجأة يرون رسول الله «ص» يرد الكعبة. فجعلوه حكماً بينهم، فأمر النبي بأزار، فاتوا به، فأخذ الحجر الأسود ووضعه في الأزار، وطلب من كل قبيلة فرداً. فحملوا الأزار الى ان وضعوه قرب الكعبة. فقام رسول الله «ص» وحمل الحجر بيده ووضعه في مكانه، وحلّ النزاع بهذه الطريقة.

النبي في الحرب

يقول علي «ع»، ان رسول الله كان في الحرب أدنى الناس من العدو... وفي غزوة الأحزاب، حيث قرر المسلمون حفر الخندق كان رسول الله أول ضارب بمعوله في الأرض لحفر الخندق، وواظب متعاوناً مع المسلمين على الحفر حتى نهايته. وكان علي «ع» يقول: كنا اذا حمي الوطيس لذنا برسول الله (ص).

حزمه

لم يكن النبي مستعداً أبداً على تجاوز أصل من أصول رسالته من أجل زيادة اتباعه. ولذا نراه «ص» حينما جاءه جمع من العرب، وقالوا له نحن نؤمن بك على شرطين:

١ ـ ان نستمر على عبادة الأصنام.

٢ــ ان لا نؤدي الصلاة.

فلم يوافق الرسول، ولم يضح بجانب من الرسالة، وان كان ثمن ذلك فقدان الاتباع. أولئك الآخرون لا النبي هم الذين يبدلون شعاراتهم واشكالهم وأسماءهم في كل لحظة لأجل تكثير عدد أنصارهم ويمضون كالتجار صوب الحصول على الزبائن.

زهد النبي

أعطى النبي (١٢) درهماً لعلي «ع» وطلب منه ان يشتري ثياباً له، فذهب الامام علي الى السوق واشترى ثياباً بنفس الثمن الذي أعطاه، وجاء بها الى رسول الله ـ وبمجرد ان رأى النبي الثياب قال، **لو كان هناك لباس أكثر بساطة وأرخص من هذه الثياب لكان أفضل، فاذا كان البائع مستعداً لارجاع الثياب فارجعها واسترد الثمن منه،** فأخذ الامام علي «ع» الثياب وارجعها على البائع واسترد الثمن منه وأتى به رسول الله.

فقام النبي واصطحب معه علياً وذهبا الى السوق، فشاهدا خادمة باكية على جانب الطريق فسألاها عن حالها قالت:

أعطيت أربعة دراهم لشراء سلع من السوق، الآ ان الدراهم ضاعت وانا الآن ها هنا أخشى ان أرجع الى المنزل.

فاعطاها النبي من الـ(١٢) درهماً أربعة دراهم، وانصرفا الى السوق فاشترى النبي قميصاً بأربعة دراهم ولبسه.

وعند الرجوع شاهدا عرياناً فنزع النبي القميص وأعطاه إيّاه ورجعا مرة أخرى الى السوق واشتريا قميصاً آخر، وعند الرجوع الى المنزل شاهدا تلك الخادمة، وهي تقول لما طال انقطاعي عن البيت فأنا الآن أخشى

الرجوع الى المنزل، فاصطحبها النبي معه وذهبا الى منزل سيدها فرحب بالنبي وعفا عن الخادمة وأطلق حريتها. فقال النبي، أي بركة في هذه الـ(١٢) درهماً، فقد اشترينا بها قميصين وحررنا بها انساناً. (١)

نعم فاذا قللنا من حجم مصروفنا فسوف نستطيع اغاثة الكثير من اخواننا.

كان أحد اليهود يطلب النبي دراهم من المال، فجاء يوماً لمطالبة النبي الاّ ان النبي لم يكن لديه تلك الدراهم. فقال اليهودي للنبي، ابق هنا حتى تفي ديني. فبقي النبي معه حتى الظهر، فصلى صلاة الظهر والعصر ومرّ المغرب والعشاء ولايزال الرسول معتقلاً في المسجد، فانفعل الناس الاّ ان النبي قال لهم: ليس لنا حق في الظلم. واستمر الحال الى اليوم الثاني فأسلم اليهودي، وتبرع بمقدار آخر من ماله في سبيل الله وقال: كان عملي مع رسول الله امتحان له، ولست قاصداً للاهانة...

السلوك الاجتماعي لنبي الاسلام

وفاؤه

يقول عمار كنت مع رسول الله قبل البعثة نرعى الأغنام، فاقترحت عليه يوماً ان نذهب معاً الى مكان كنت أقدّر انه أفضل لرعي الأغنام. فوافق النبي وذهبت في اليوم الثاني الى ذلك المكان فشاهدت رسول الله قد وصل قبلي الى المحل ولكن كان يمنع أغنامه من الرعي فقلت له لماذا لا تدع أغنامك تأكل؟! فأشار الى أن وعده معي ان نشرع في الرعي معاً،

(١) ــ راجع النص الكامل في البحار، ج(١٦)، ص(٣١٥).

فلا يريد ان ترعى أغنامه قبل أغنامي.

التعليم

في مجال التعليم، كان يكرر اجابته على مستمعيه ثلاث مرات حتى يستوعب السامع جيداً.

كان يعطي أعداءه الأمان

عبّأ رسول الله جيشاً في السنة الثامنة من الهجرة ليفتح من المدينة مكة ويحطم الأوثان فيها. وكان أحد زعماء الوثنيين رجلاً يدعى (أبوسفيان) من قبيله بني أمية، وقد هرب (أبوسفيان) الى مدينة (جدة) فجاء بعض الرجال الى النبي وطلبوا منه الأمان لأبي سفيان فأرسل النبي عمامته اليه ليطمئن و يأمن بهذه العلامة. و يرجع الى مكة. رجع أبوسفيان من جدة وجاء النبي «ص» فقال له: امهلني شهرين لأفكر وأرى ماذا أصنع: فأعطاه النبي أربعة أشهر مهلة.

وحيث كان أبوسفيان خلال تلك المدة يجيء و يذهب و يصاحب النبي فانجذب اليه والى رسالته واختار الاسلام.

وفي الآية (٦) من سورة التوبة طرحت مسألة الأمان واللجوء الى دولة الاسلام، كما جاء بحث هذه المسألة في كتاب الجهاد من أبحاث الفقه وحيث ان الدخول الى تفاصيل هذا البحث يخرجنا عن البساطة والايجاز، نتركه الآن ونحيل قراءنا الى مظانه من كتب التفسير والفقه.

معاملته مع العدو

حينما دخل مكة فاتحاً عفا عن أعدى أعدائه، كما عفى عن امرأة تآمرت على قتله عن طريق تهيئة طعام مسموم.

دخل يوماً أحد أعداء النبي «ص» عليه فقال له (السام عليك) بدل (السلام عليك) وكرر هذه الكلمة المهينة التي تعني الموت لك، فلم يجبه النبي مع ما كان لديه من قدرة الانتقام، سوى ان قال له (وَعَلَيْك)، فتألم بعض الحاضرين تألماً شديداً، وقالوا لرسول الله: لم لاتجيب على اهانة هذا الرجل، فقال «ص» لهم أجبته بهذه الكلمة (وعليك).

كان مع أصحابه كأحدهم

حينما كان الأصحاب يهيئون الطعام مع النبي كان كل واحد منهم يختار عملاً، وكان عمل النبي «ص» ان يهيء الحطب لطهي الطعام، وكلما حاول الأصحاب ان يتحملوا عبء تهيئة الحطب بدل النبي لم يوافق الرسول.

وفي واقعة أخرى، نزل النبي عن ناقته وأراد أن يربطها في زاوية فجاء الأصحاب ليتحملوا عن النبي زحمة ربط الناقة فلم يقبل وأوصاهم ان يؤدي كل واحد عمله بنفسه ولايكله الى الآخرين.

صفات أخرى للنبي

كان يستجيب لدعوة العبيد، كان يحترم من تحترم القبائل وتثق به الناس و يوكل أحياناً المسؤولية لهؤلاء الموثقين من قبل الناس.

لم يكن محايداً بالنسبة للأعمال الحسنة والقبيحة، بل كان مشجعاً ومنتقداً. كان على علاقة شديدة بهداية الناس حتى نزل القرآن يسليه:

(مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ)(١)

كان يحترم الناس بحرارة وكان احترامه لكل الأفراد على السواء. حتى ظنّ كل واحد انه أقرب الى النبي من غيره.

سأله بعض أصحابه ليدعو و يلعن أعداءه فلم يوافق وكان دعاؤه طلب الهداية للناس.

كلما كان راكباً لا يوافق على ان يصاحبه راجل. بل اما ان يُركِبَه معه، وامّا ان يطلب منه الانفصال عنه الى مكان موعود.

لايرد السائل حتى ان امرأة ارسلت ابنها الى النبي وقالت له اطلب من رسول الله قميصه فذهب الولد الى الرسول فطلب قميصه فأعطاه ونزلت الآية: (وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ)(٢)

كان يجلس حيث انتهى به المجلس.

وكان يقبل الهدية مهما قلت وتواضعت.

كان يسأل عن أصحابه و يزور كل غائب منهم، وكان يدعو للمسافرين من أصحابه، و يعود المريض.

كان يشكل جلسته على هيئة دائرة لكي لايكون هناك صدر للمجلس وذيل.

كان لايميز بين كل الأفراد في اجراء القانون، وحينما توسط أحد أصحابه لرفع الحد عن امرأة من احدى القبائل المعروفة اجابه «ص»:

(١) سورة طه آية (٢).

(٢) ـ سورة الأسراء، آية (٢٩).

واللهِ لوْانَّ ابْنتِي سَرقَتْ لَقَطعْتُ يَدَهُا، ولا فَرْقَ عندي بينَ الناسِ في اجراءِ حدودِ اللهِ.

كان كثير الوصية بالأسرى، وقد تزوج شخصياً امرأة أسيرة، مما أدّى لاحترام الناس للأسرى واعطائهم شخصية في المجتمع. ولذا أطلق المسلمون حرية الكثير من أسراهم، وكان يوصي «ص» باعطاء الأسراء طعاماً ولباساً من طعام الناس ولباسهم، كما كان يوصي بمناداتهم نداءً حسناً، لكي لايحسّوا بالألم والاهانة.

كان يتعامل مع الغني والفقير على حد سواء.

كان يتجنب في حديثه الجدال والفضول في الكلام.

لم يكن اطلاقاً متابعاً لعيوب الناس وسوء ذكر هذا وذاك.

وكان يتجنب القهقهة في الضحك.

الجماهير أول همه

هناك قادة بمجرد احساسهم بالخطر يسرعون لحفظ أنفسهم، وعن طريق الفرار أو الهجرة يتركون أنصارهم في وسط المحنة، وكان سلوك رسول الله خلافاً لسلوك هؤلاء، فقد بقي في مكة، وأصدر أمراً لأتباعه بالهجرة الى الحبشة، وحينما هاجر الى المدينة بدأ أولاً بتهجير المسلمين ثم عزم أخيراً على الهجرة.

يشاور الأمة

كان النبي «ص» يشاور الأمة في المسائل التي لم ينزل بها وحي ولم يأت بها أمر الهي والتي تُرك اتخاذ القرار فيها الى الأمة. وكان يُقدِم

بين الحين والآخر رأي الآخرين على رأيه. فمثلاً في غزوة أحد شاور رسول الله أصحابه في الأمر ودار الحديث حول أسلوب الحرب، فهل يبقى المسلمون في المدينة و يتحصنون بها او يخرجون منها ليقاتلوا المشركين حيث خرجوا.

كان رأي النبي ان يتحصن المسلمون في المدينة، لكن الرأي لدى أكثر شباب المسلمين كان يميل الى الخزوج من المدينة.

فهنا تلاحظ ان رسول الله «ص» يقدم رأي هؤلاء الشبان المؤمنين على رأيه نفسه، ويحمل سلاحه على عاتقه فوراً ويخرج معهم للقتال. والملفت للنظر ان الآية ﴿وَشَاوِرهُم فِي الأَمْرِ﴾ نزلت بعد الانكسار الذي حدث في غزوة أحد، والتي خطط لها من قبل الأصحاب أنفسهم وانتهت بانكسار في جيش المسلمين، الاّ ان الله تعالى يصدر الأمر ﴿وَشَاوِرْهُم فِي الأَمْرِ﴾ ليحذر النبي من فقدان الثقة برأي المسلمين. وفي نفس الآية يقول تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ﴾(١)

وتمنح هذه الآية حق القرار النهائي للقائد. فبعد ان يعزم القائد فعليه ان يتوكل على الله و يشرع في العمل.

سلوك النبي مع التكتلات المناهضة

القاعدة في سلوك النبي مع القوى المخالفة له هي الآية الكريمة ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾(٢).

الاّ اننا نقرأ في القرآن نفسه قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ

(١)ـ سورة آل عمران، آية (١٥٩).
(٢)ـ سورة الأنفال، آية (٦١).

إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَائِنِينَ)(١)

فرغم ان القاعدة هي الصلح مع الذين يميلون اليه، الاّ انه بمجرد شمّ ريح الخيانة من أولئك يصبح اعلان نقض المعاهدة أمراً مشروعاً. والقرآن هو الذي يقول: (قُلْ يَاأَهْلَ ٱلْكِتَابِ تَعَالَوا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ)(٢)

«كلمة سواء = هي كلمة التوحيد»

نعم الوحدة على أساس التوحيد ونفي الشرك لها قيمتها في رسالة الاسلام.

اشتراكه في مجالس المخالفين يقوم على أساس قوله تعالى (وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ)(٣)

كان يستمع الى حديثهم استماع المستجيب حتى قالوا عنه (وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ)(٤) أُذُن = يخضع و يستجيب، لكنه في مقام العمل لا يخضع تحت تأثير أقوال وعهود أولئك.

كان يستفيد من جميع الامكانات والتجهيزات العسكرية لأجل استمرار الجهاد، و يُلزم الفتيان بتعلم الرماية، و يعد الرهان فيها جائزاً. و يقول في حديث مضمونه: **ثلاثة يدخلون الجنة رامي السهم في نحور الأعداء، وصانعه، ومشتريه للمسلمين.**

لاحظنا موقفه ازاء المنافقين في هدمه لمسجد الضرار. وحينما وقعت غزوة تبوك كان المنافقون يتآمرون في بيت من البيوت. عندها رأى النبي ان التآمر يجري في لحظات حاسمة، فأمر بهدم بيت قادة المنافقين. (٥)

(١)ـ سورة الأنفال، آية (٥٨).

(٢)ـ سورة آل عمران، آية (٦٤).

(٣)ـ سورة الأنعام، آية (٦٨).

(٤)ـ سورة التوبة، آية (٦١).

(٥)ـ من الواضح ان تخريب تلك الدار كان بأمر الرسول «ص»، وذلك، لأن الحدود والاجراءات الاسلامية يجب أن تجرى تحت نظر الحاكم المسلم. ولا يجوز اجراء أي حد دون قرار الحاكم.

موقفه من المنافقين هو خشونة المواجهة ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيهِمْ﴾، وموقفه من أمواتهم هو﴿لَا تُصَلِّ علىٰ أحَدٍ مِنْهُمْ مات أبَداً﴾، الآنه «ص» كان يمهل أي كافر يطلب الأمان او يلتمس الفرصة للتحقيق والبحث.

لم يكن هناك طريق للعاطفة العائلية الى حزمه الرسالي، فهذا عمه أبولهب الذي نزل بحقه التوبيخ الشديد في سورة (تبّت). نعم لابدّ ان تقطع يد المخرب وان كان عمّ النبي... وفي هذا المجال جاء الأمر القرآني الصريح:

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبىٰ﴾(١)

وفي آيات متعددة من القرآن اهتمام ودعم للنبي لكي لا تؤثر مؤامرات الأعداء على ارادته وتصميمه:

﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلىٰ ٱللَّهِ﴾(٢)

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾(٣)

﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾(٤)

﴿فَٱصْبِرْ عَلىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾(٥).

عذراً يا رسول الله

أنا خَجِلٌ لأنني أكتب سيرة الرسول، فرسول الاسلام لابدّ ان يصفه شخص كعلي «ع»، فالنبي الذي مدحه الله ورفعه الى السماء و بارك

(١)ـ سورة التوبة، آية (١١٣).
(٢)ـ سورة الأحزاب، آية (٤٨).
(٣)ـ سورة النحل، آية (١٢٧).
(٤)ـ سورة يس، آية (٧٦).
(٥)ـ سورة ق، آية (٣٩).

بقدومه عالم الملائكة، كيف اكتب سيرته؟!

كيف أصف من حمله المركب السماوي من مكة الى القدس في ليلة واحدة (سُبْحانَ الَّذي أسْرىٰ بِعَبْدِهِ لَيلاً مِنَ المَسْجِدِ الحَرامِ إلىٰ المَسجِدِ الأقْصىٰ)(١)

فهذا مقامه المعنوي زاو ية من شخصيته، وفي زاو ية أخرى نشاهد عالماً من الرقة والعاطفة، رقة في أمور بسيطة يلتفت لها «ص»، و يبرز عاطفته وحنانه فيها. نقرأ في الحديث ان النبي «ص» كان يتوضأ فشاهد هرةً تحدق في الماء فيقطع وضوءه و يقدم الماء للهرة! وكان أصلب من الجبل مع عدوه، وأسهل من الماء مع صديقه، يتجاوز حقه الشخصي، و يتنازل عنه لأعدىٰ أعدائه، الاّ انه حازم في اجراء القانون، حتى أقسم بالله ان ابنته لوارتكبت جرماً أدَّبها باجراء حدود الله عليها.

كيف نتحدث عن النبي الذي كان يقول، كما في نهج البلاغة (طَلَبُ العِلْمِ فَريضَةٌ) كان يقول ذلك يوم لم يعرف أحد الكتابة والقراءة. وحتى الآن و بعد مرور أربعة عشر قرناً لم يأت شعار ـ بصدد أهمية العلم ـ أعمق من هذا الشعار.

أيام كانت القبيلة تنهض لطلب الثأر بدم المقتول منها فتقتل عدداً من الأبرياء من قبيلة القاتل. وأيام بلغت القسوة حدها الأعلىٰ، كان يصدر أمره بان الشخص الذي يتعب دابته ولوفي السفر لمكة يسقط اعتباره الاجتماعي، لأن من يتعب دابته قاسي القلب وتُرد شهادته. نعم فهذه الأوامر والوصايا التي تشع بنورها هي رمز حياة الأمة التي كانت ميتة (دَعٰاكُمْ لِمٰايُحْييكُمْ)(٢)

(١) سوره اسراء آيه (١).

(٢) ـ سورة الأنفال، آية (٢٤).

ولذا فليس اعتباطاً ان يقول الله تعالى ﴿مَنْ يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾(١)، اذ ان الرسول «ص» ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾(٢). بل وحي إلهي يوحى له ليسير على خط مستقيم ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(٣).

كيف يمكن كتابة سيرة شخص كان موضع التسديد الإلهي الخاص: ﴿وَيَنْصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً﴾(٤).

كيف يمكن تعريف نبي بكتابة أسطر قلائل وقد رفعه الله وأعز رسالته ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾(٥).

وهل يمكن ان نعكس على صفحة صغيرة أخلاق الرجل الذي قال الله في حقه ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(٦) فالقرآن الذي يصف الدنيا بأنها ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ يصف خلق الرسول بأنه: ﴿عَظِيمٍ﴾.

كيف يمكن ان يمدح نبي وقد أعطاه الله في الدنيا ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾(٧)، وأعطاه في الآخرة المقام الشامخ بالشفاعة.

ماذا أقول بحق شخص كان مولده مطفئاً لمشاعل نيران فارس وكانت بعثته مطفئة لمشاعل الفساد.

ولادته زلزلت أوتاد قصر كسرى، واعادت بعثته عقول وقلوب بني البشر.

ماذا أكتب عن الشخص الذي يقول القرآن عنه: ﴿رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾

ماذا أقول بحق شخص بلغ المقام العظيم، اذ عُرج به الى السماء

(١)ـ سورة النساء، آية (٨٠).
(٢)ـ سورة النجم، آية (٣).
(٣)ـ سورة الزخرف، آية (٤٣).
(٤)ـ سورة الفتح، آية (٣).
(٥)ـ سورة الانشراح، آية (٣).
(٦) ـ سورة القلم، آية (٤).
(٧)ـ سورة الكوثر، آية (١).

واستضافه رب العالمين- ولا زال يتواضع و يقول لودُعِيتُ الى طعام عبد بسيط على مسافة بعيدةٍ لأجبت.

في العظَمة، يحضّر لأجل سفره السماوي براق ومركب جوي، وفي تواضعه، كان يركب على حمار بلاسرج.

في العظمة، يحمل له جبرائيل تحيات السماء.

وفي تواضعه، يحيي أطفال مكة و يسلّم عليهم.

حينما كان يسجد لله يسلم نفسه وقلبه لله وعلى هذهِ الحال يراه أطفال البيت فيصعدون على ظهره... يطيل سجوده لئلا يفسد على الأطفال لعبتهم. الله أكبر في لحظة واحدة يعيش في دعائه ومناجاته مع الله وفي نفس الوقت يرعى الأطفال في لعبهم ولا يفقد عطفه وحنانه لهؤلاء.

فأبعاد هذه الشخصية لايمكن ان تكتب، ولايمكن ان تقال، ولايمكن ان تتصور لابدّ ان يلاحظ العالم هذه الرعاية والاحترام للأطفال، ولابدّ ان يخجلوا من شعاراتهم الفارغة بشأن حقوق الانسان والمرأة والعامل والطفل...

كان «ص» يمازح في معاشرته ولكنه لايخرج عن حريم الحق بذلك. بكى لموت ولده ابراهيم ولم يقل شيئاً يجانب الحق ويخالفه.

يناجي ربّه في السحر، و يتسابق مع أصحابه في النهار، وأحياناً يقيم المسابقة بين الأصحاب و يعيّن جائزة للفائز، ولكن أي مسابقة؟ انها سباق الخيل والرماية، التي ينتفع بها لغرض الدفاع عن الرسالة والنضال ضد الظلم، لاسباق اللهو الذي لاينفع أمة، ولاينقذ جماعة.

وأي جائزة يقدمها؟ يقدم نخلة ينتفع بظلها و بسعفها و بتمرها.

قرائي الأعزاء: أرجو ان تطالعوا هذه السطور التي كتبت بكمال

البساطة مطالعة دقيقة اذ ان كل سطر منها يمثل مضمون حديث جميل من أحاديث السنة المباركة.

زاوية من التهم

حقاً أيصحّ لنا ان نعترض على الاسلام الذي أمهل بواسطة نبيّه أعداءه أربعة أشهر بدل الشهرين وجعل مركزاً للأمن في مكة (أكبر عشّ لأعدائه)، وعفا عن جميع معارضيه، وتحمل أنواع التعذيب والحصار (١٥) عاماً.

أيصح ان نعترض على هذا الدين لأنه أمر المسلمين بالجهاد لتحرير ونجاة المظلومين من سلطة الجبارين وقلع الأشواك التي تقف في طريق حرية العقول والأفكار، أو أمرهم بالدفاع وحمل السلاح في مواجهة الحروب المفروضة عليهم؟!

أيجوز ان توجه أشكال التهم الواطئة لهذا الاسلام؟!

يقول الأعداء أحياناً ان الاسلام انتشر بالسيف في حين ان الاحصائيات المستلة من التاريخ المعتبر والأرقام الدقيقة للمقتولين في طول حروب النبي لم يتجاوز (١٧٠٠) فرداً. وأحياناً يُتخذ زواج رسول الله حجة لاظهار النبي أمام الناس الذين لااطلاع لهم بمظهر الرجل اللعوب في حين ان النبي «ص» عاش مع خديجة أيام شبابه حتى عمر الخمسن وعاش مع خديجة بمفردها مايقرب من (٢٥) عاماً وفي بداية زواجه من خديجة كان عمره (٢٥) سنة، وكان عمرها (٤٠) عاماً، وكان الزواج باقتراح من خديجة أيضاً، فكانت خديجة ترد المتعرضين لخطبتها لأنها كانت تعلم ان طلب زواجهم منها لأجل الثروة التي كانت

لديها فكان انتخابها لمحمد «ص» لجهتين، الأولى بسبب اطلاعها على أمانته وصدقه، والثانية لأنها سمعت من عمّها (ورقة بن نوفل) تنبؤاً بظهور نبي اسمه محمد وزوجة اسمها خديجة، فعاش النبي مع خديجة بمفردها حدود (٢٥) سنة، ولم ينتفع بمال خديجة الاّ في سبيل الاسلام ونجاة الناس من الظلم والجهل والتفرقة، ورغم ان العديد من النساء كنَّ مستعدات للزواج منه الاّ انه «ص» رفض ذلك.

امّا ازواج النبي الأخريات فقد تزوجهن جميعاً بعد وفاة خديجة و بعد ان تجاوز سنه مايقرب من خمسين عاماً. وكنَّ بشكل عام نساء تجاوزن في أعمارهنَّ سن الشباب أو كنَّ أرامل قد فقدن أزواجهن وتركوا لهن أطفالاً يتامى. فالعيش مع هذه النماذج معاناة ليس فيها لذة ولهو... وكنَّ على أمزجة مختلفة بحيث لم يبق مجال لرفاه النبي أبداً.

فبعض هذه النساء فقدت زوجها في الجهاد مع الكافرين و بقيت مع أطفالها اليتامى بلا معيل واذا رجعت الى قبيلتها فسوف يجبرونها على الرجوع الى الكفر، فتزوجها النبي ليدفع عنها خطر الكفر والارتداد، و يعيلها وأطفالها، نظير (سودة) التي فقدت زوجها بعد الهجرة الى الحبشة و بقيت بلا معيل. (أمّ سلمة) الزوجة الأخرى للنبي فكانت عجوزاً أرملة ذات يتامى. (زينب) بنت عمة رسول الله الزوجة الأخرى للنبي، كانت أولاً زوجة زيد الاّ ان زواجها بزيد لم يدم وانتهى الى الطلاق. وتزوج الرسول (زينب) بأمر الله لالغاء سنة باطلة وُرثت عن الجاهلية وهي تحريم الزواج بامرأة الولد بالتبني. وحيث ان زيد ابن النبي بالتبني فعلى أساس السنة الجاهلية يحرم زواج النبي من (زينب)، فأمر الله بزواجه منها لسحق هذه السنة الجاهلية بيد النبي نفسه.

(جويرية) امرأة أخرى من نساء النبي، كانت أسيرة حرب،

وتزوجها النبي لأجل ان يرحم المسلمون أسراهم وفعلوا ذلك وحرروا الكثيرين منهم.

ولأجل ايجاد علاقات مع القبائل العربية الكبيرة والحيلولة دون تخريبها وحفظ الأمن الداخلي تزوج النبي ب(عائشة)، (حفصه)، (أم حبيبة)، (صفية)، و(ميمونة).

خلاصة الكلام هي ان أكثر نساء النبي كن أرامل وقد تجاوز عمرهن حد الشباب وكنَّ صاحبات يتامى وكان زواجه بهن بعد سن الخمسين. وكان اسم النبي ومركزه الاجتماعي دافعاً لاستعداد أفضل البواكر من النساء اليافعات لزواجه. وهذا بنفسه أكبر دليل على ان زواج النبي المتعدد كان على أساس مصالح سياسية واجتماعية وله أهدافه المقدسة.

ولا تلتصق تهمة اللهو واللعب بالنبي أبداً.

أضف الى كل ذلك فقد كان النبي -رغم الازواج المتعددة- لاينام ويخلوا مع ربّه في أغلب الليل حتى جاء الأمر الإلهي بالنوم. (١) في هذا الضوء فنحن الذين ننسى الله بامتلاكنا لزوجة واحدة. وتعدد الزوجات اذا لم يمنع من الرشد المعنوي والعبادة والجهاد والاهتمام بأمور الأمة والمحرومين ولم يؤدِ الى ظلم النساء بل قد يوجب نجاتهن و يكون رعاية وظلاً لعزهن- في هذه الصورة لامانع من تعدد الزوجات.

واذا سعى البعض لاظهار تعدد الزوجات بمظهر سيء فذلك لأحد الأسباب:

أولاً ان الرجل لايعطي للنساء حقوقهن بعدالة.

(١)- سورة المزمل، آية (٢-٣)..

ثانياً ـ هدف الرجل من التعدد هو اللعب واللهو وليس لديه هدف مقدس آخر.

ثالثاً ـ تبذل كل استعدادات الرجل في اعالة نسائه فقط.

اما اذا كان هناك تعدد ولم يكن أي واحد من هذه الأسباب أعلاه فليس هناك أي مانع عقلي واجتماعي وقانوني.

القسم الرابع:

أسئلة واجابات

قدمنا حتى الآن مجموعة أفكار في مجال الحاجة الى الأنبياء، وطرق معرفتهم، وصفاتهم. وفي هذا القسم نجيب على جانب من الشبهات والاستفهامات:

السؤال الأول

هل أسس الأنبياء المدينة الفاضلة؟

الجواب:

مجيء الأنبياء والقانون السماوي للهداية ضرورة من الضرورات، وتلقي الناس وقبولهم وظيفة أخرى، وحساب كل من هاتين القضيّتين على حده.

لم يكن التخطيط الإلهي هادفاً لاجبار الناس على الهداية ولو كان كذلك لهدى الله كل الناس:

﴿وَلَوْشَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١)

كما ان اسلوب النبي أيضاً لم يكن قائماً على أساس الجبر وسلب الحرية من الناس والتحكم عليهم:

﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ (٢)

لابدَّ ان يوفر الله تعالى الوسيلة لهداية الناس ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ (٣) ولابدَّ للناس من القبول. واذا لم تقبل جماعة من الناس الهدى الإلهي فلا ينبغي قطع هدى الله من الآخرين. مثل فلاح البستان لايقطع سقي الأشجار النامية أبداً لوجود أعشاب غير نافعة، وهكذا نقرأ في القرآن:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً، قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَالاَتَعلَمُونَ﴾ (٤)

و بغض النظر عن كل ماتقدم فبناء النماذج واعداد الأفراد كافٍ لاثبات المدعى.

فاذا قدم معمار او نقاش مجموعة نماذج فنية من صنعه فهذه كافية لاثبات لياقته الفنية.

لاأنسى يوماً قبل سنين في ختام خطاب لي نهض أحد الشباب من مكانه وسأل:

اذا كان الاسلام مذهباً صالحاً فلِمَ لَمْ يُطبَّق حتى الآن؟

قلت له: اذا كان (محمد علي كلاي) ملاكماً جيداً فلماذا لم يوجه

(١) سورة النحل، آية (٩).
(٢) سورة الغاشية، آية (٢٢).
(٣) سورة الليل، آية (١٢).
(٤) سورة البقرة، آية (٣٠).

لصدورنا لكمة حتى الآن؟ فضحك الحاضرون جميعهم.

فلا يعني المعمار والنقاش والملاكم والخطيب الجيد انه يبني و ينقش ويخطب لكل فرد. فاذا لم يؤد معمار او نقاش عملاً لك فذلك بسبب عدم طلبك منه. واذا لم نسمع صوت خطيب ما فلاننا لم نحضر مجلس خطابته، واذا لم يلكمنا محمد علي كلاي حتى الآن على صدورنا فلاننا لم نواجهه بأنفسنا. واذا لم يبن الأنبياء المدينة الفاضلة ورسالة الاسلام لم تطبق حتى الآن فهذا ناشيء من تقصيرنا.

وكما يقول الشاعر: اذا كان السائل كسولاً فماذنب صاحب المنزل؟

فالأنبياء يقدّمون الطرح الإلهي لبناء المجتمع السليم وهم أنفسهم يمارسون العمل بهذا الطرح و يكتشفون الأفراد المهيئين لذلك و يربونهم و يعرضون للعالم مجتمعاً نموذجياً صغيراً، ثم يقومون بدعوة الجميع لبناء نظامهم الاجتماعي طبق هذا المثال والنموذج.

فهذا نبينا العزيز، ألفَّ أمّةً من الأسود والأبيض ومن مختلف القبائل، وأحكم بناءها على أساس محاربة الشرك والطاغوت، والايمان بالله. وسحق كل الامتيازات الوهمية، وحمل معه للعالم رسالة الأخلاق، والصحة، وعبودية الله، والاتحاد، والمساواة أمام القانون الإلهي، والأخوة الاسلامية، والعدل والقسط، والحرية والصدق والإخلاص والعزة. وربّى عناصر مثل علي «ع» وأبي ذر، وسلمان والمقداد وعمار، وجاء بقانون مطابق للعقل والفطرة، ولم يأل جهداً في تقديم دمه ودم أتباعه في سبيل استقرار النظام الإلهي حتى الشهادة. واليوم اذ نلاحظ ان العالم لم يطبع بطابع رسالة الأنبياء فلابدَّ من البحث عن علل ذلك في موقع آخر وليست العلة في ضعف الرسالة او عدم لياقة القائد.

فهذه الشمس تشرق على الجميع واذا رأيناها تشرق على الزجاج

ينعكس نورها ولكن اذا أشرقت على الجدار لاينعكس فلانشكك أبداً بالشمس و بنورها المشع.

فاذا ألقيت ملايين الكرات المغلقة بأحكام في البحر فلا ترد اليها قطرة من الماء بسبب اغلاقها والاّ فالماء لايمنع عن نفوذ نفسه.

فالبشر الذين أعموا أبصارهم وسدّوا آذانهم وأغلقوا قلوبهم وكما يقول القرآن: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لايَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لايُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذانٌ لايَسْمَعُونَ بِهَا أُولئِكَ كَالأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾(١) فهؤلاء لديهم روح وعقل وقلب ولكن لايفهمون، لهم عيون ولكن لايبصرون، لهم آذان ولكن لايسمعون، نعم فهؤلاء كالذي يمشي على أربع.

فالشخص الذي لديه استعداد معرفة الحق وسماعه ورؤ يته ولكن لايستفيد من هذا الاستعداد فهو أدنى بمراتب من ذوات الأربع اللاتي لااستعداد ولاامكانية فيها، للافادة من هذه الملكات.

الانسان الذي هدفه الأكل والنوم والشهوة الجنسية لايتعدى كونه حيواناً. والاتجاهات التي ترفع شعار الغذاء واللباس والمسكن وتلخص كل استعدادات الانسان في سيرة الحياة الحيوانية وجهت أكبر اهانة لمركز خليفة الله ولانسانية الانسان.

خلاصة الكلام هي ان الناس هم الذين لابدّ ان يبنوا المجتمع العقائدي، والأنبياء معلمون أعدوا أنفسهم للتدريس، والطالب هو الذي لابدّ له من استيعاب الدرس.

الأنبياء أطباء يقدمون العلاج، والمرضى هم الذين لابدّ لهم من معالجة أنفسهم وفقاً لتعليمات الطبيب.

(١) سورة الأعراف، آية (١٧٩).

السؤال الثاني

هل ان الوحي نوع من النبوغ ؟

الجواب:

الذين لايريدون الاعتراف بعالم يسعون جهدهم لتقديم توجيه اعتيادي لمسائل كالوحي وأمثاله. فمثلاً يقولون هنا: ان الاضطهاد والبطالة يسببان اضطراب الحياة الاجتماعية، ولكن حب المجتمع والارتباط به من المسائل التي تدفع الانسان لبذل الجهد والتفكير بنجاة مجتمعه وقهراً يتفتح في هذه الحالة النبوغ البشري. وقد كانت هذه العوامل متوفرة في محيط الأنبياء وعلى هذا الاساس فلامانع من تشخيص الأنبياء بأنهم من اولئك النابغين.

وهنا نستذكر كلاماً لقائد الثورة الاسلامية الامام الخميني يدور حول (كسروي) اذ يقول: ان كسروي لم يستطع ان يرتفع بنفسه فحاول الهبوط بالأنبياء ليصلوا الى مستواه.

واذا كنت قارئاً للقسم الثالث الذي كتبناه في صفات الأنبياء فأنت تعلم ان هناك عشرات الفروق بين الأنبياء والنوابغ.

فالأخلاص والعصمة عن الشك والسهو والخطأ وأي شكل من الذنب، والاطلاع على الغيب أحياناً والا تصال المباشر بالله تعالى عن طريق الدعاء والمناجاة، والعبادة النقية الخالصة، والرؤ ية الإلهية لكل عمل وأمر فتنسبونه الى الله، كل هذه مجموعة خصوصيات لاتجدها في أيّ نابغة، لأن النوابغ يقعون في الاشتباه وغير معصومين عن الذنب

أيضاً، كما انهم ليسوا مطلعين على الغيب و بعيدون عن الا تصال الواعي مع اللّه، كما لا ينسبون أعمالهم لله سبحانه، أوَلَم يكن لدينا نوابغ غير النبي «ص» فلِمَ لا يأتون بكتاب كالقرآن ؟...

فالمقارنة بين النوابغ والأنبياء مقارنة بين المحدود والمطلق لأن النوابغ مهما كانت دائرة معارفهم فهي لاتخرج عن حد محدود. الاّ ان الأنبياء في كل أعمالهم على ارتباط بقدرة وعلم الله الذي لانهاية له، ولذا لاينحصر عمل الأنبياء في اختراع او اختراعين.

السؤال الثالث

لماذا كان الأنبياء جميعهم في أرض المشرق ؟

الجواب:

ليس لدينا أي دليل على ان كل الأنبياء كانوا في أرض المشرق بل يمكن ان نستفيد من الآية ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾(١) ان كل امة كان لها نبي، غايته اننا لسنا على علم بتاريخ الغرب.

ولو أغمضنا النظر عن هذا الجواب فنقول انه كما ان الانسان يضع المصباح وسط الغرفة فما هو المانع من كون أنبياء الله ورسله العظام كانوا يعيشون في مناطق لا تُعد من المشرق ولا من المغرب ؟.

(١) سورة يونس، آية (٤٧).

السؤال الرابع

ماهو عدد الأنبياء وماهي ضرورة الايمان بهم جميعاً ؟

الجواب:

نُقِلَ في القرآن اسم (٢٥)نبياً ، وفي سورة المؤمنين نقرأ ﴿وَلَقَد أرسَلنَا رُسُلاً مِن قَبلِكَ مِنهُم مَن قَصَصنَا عَلَيكَ وَمِنهُم مَن لَم نَقصُص عَلَيك﴾(١)

ومن هذه الآية يُعلم اجمالاً ان عدد الأنبياء ليس منحصراً في أولئك الخمسة والعشرين نفراً الذين جاءت أسماؤهم في القرآن.

وحينما نرجع الى الأحاديث والروايات نجد أعداداً مختلفة قد ذكرت للأنبياء الاّ ان أشهر الروايات هي حديث عن رسول الله نُقِل عن أبي ذر الغفاري اذ يقول: سألت رسول الله كم كان عدد الأنبياء؟ فقال: (١٢٤,٠٠٠) شخصاً(٢)

اما ان الايمان بجميع هؤلاء هل هو ضروري ؟

فجواب هذا السؤال بالايجاب، لأنه طبقاً للآيات (١٣٦) من سورة البقرة، و(٨٦) من سورة آل عمران، والآية (١٥٠) من سورة النساء، قد جاء التأكيد على الايمان بجميع الأنبياء، ويمكن ان يكون هناك دليل آخر على ضرورة الايمان بجميع الأنبياء وهو: ان مسألة بعثة الأنبياء ليست حادثة اتفاقية بل هي أمر تربوي وخط إلهي مستمر، فالايمان بالأنبياء السابقين يعني الايمان بلطف الله الدائم على البشر في طول

(١) سورة المؤمن، آية (٧٨).

(٢) مجمع البيان، ج١٠، ص٤٧٦.

التاريخ، يعني الايمان بحكمة إلهية ثابتة.

يعني الايمان بضرورة مستمرة وهي ضرورة القائد المعصوم.

يعني الايمان المتفائل بالتاريخ والاطمئنان بانتصار الحق. والتجربة التأريخية لهذا الاعتقاد ـ على طول تاريخ البشرية ـ تحكي عن صراع ومواجهة بين رجال الحق، في جبهة والطواغيت وقوى الباطل في الجبهة الأخرى والنتيجة في جميع المراحل هي كسب الحق للانتصار وكان الاندحار والفشل المكسب الوحيد للباطل.

وهذا الايمان والعلم بسنة الله في التاريخ رمز المقاومة وعنوان رشد بني الانسان.

السؤال الخامس

لماذا لايُوحى إلينا ؟

نعم لايلتقط كل راديو جميع الموجات والاذاعات،وأيضاً لايُوحى لكل انسان. فالاخلاص والصفاء والطهارة والاستعداد المسبق والتقوى وعشرات الشروط الأخرى تلزم لاعداد الروح والنفس لاستقبال الوحي او الالهام.

نترك الوحي في محله ونأتي الى المعرفة الصحيحة، فحتى المعرفة السليمة بالواقع تليق فقط بالقلوب السليمة وتكون للأفراد الحقيقيين في ايمانهم وتقواهم ونقرأ في القرآن قوله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَكُم نُوراً تَمْشُونَ بِهِ)(١)

لاحظ فحتى الرؤية الواضحة والنور لايعطى لكل شخص فكيف

(١) سورة الحديد، آية (٢٨).

بالارتباط المباشر بالقدرة الإلهية الأزلية ؟!

في سورة الأنفال نقرأ أيضاً قوله ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجعَل لَكُم فُرقَانًا﴾(١) فالامساك عن مخالفة أوامر الله يؤدي الى إعطائه اياك (فرقاناً) تفرق به بين الحق والباطل.

الانسان في مسيرة حياته بحاجة ماسة الى معرفة يُميز فيها الحق من الباطل، الخير من الشر، الحَسن من الرديء، العدو من الصديق، عوامل السعادة من عوامل الشقاء. والعقل الانساني مستعد لمعرفة ذلك الاّ ان هناك باستمرار حجباً من الحرص والطمع والشهوة والغرور والحسد والحب المفرط للمال والزوجة والابن والجاه والمنصب تحول دون العقل كالغبار الغليظ والدخان الأسود فتسلبه القدرة على المعرفة الصحيحة.

وهنا اذا استطاع مطر التقوى ان يقشع هذا الغبار فيستطيع العقل حينئذ ادراك الواقع كما هو.

حقاً ان المجتمع الذي تتحرك فيه الصحف، والراديو والتلفزيون، والاعلام كله، والدعايات، على أساس هوى وميول هذا وذاك ، فمثل هذا المجتمع يصل الى وضع تتحير الناس فيه ولا تستطيع ان تُشخص الطرف الذي معه الحق.

اما اذا ألقي التعصب والعناد والهوى جانباً، ولم تكن وسائل الاعلام العامة أبواقاً للانانيين، أزيحت الأجواء المفتعلة، وتركنا الناس على حالها بلااثارة حينئذ يستطيع المجتمع نفسه ان يضع اليد على كثير من الحق والباطل.

في سورة البقرة نقرأ أيضاً قوله تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾(٢).

(١) سورة الأنفال، آية (٢٩).

(٢) سورة البقرة، آية (٢٨٢).

نعم قلب الانسان كالمرآة اذا أزلنا عنه الغبار يتجلى فيه نور الله، فلاحظ ان المعرفة تستدعي قلباً طاهراً وروحاً سليمة فكيف بالوحي الذي هو أرفع مقاماً.

وهذا القرآن يخاطب النبي و يقول: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ (١)

فلواختلق هذا النبي الذي أرسلناه بالرسالة شيئاً علينا فسوف ننهي دوره (لأخذنا منه اليمين) وسوف ننهي حياته بقطع شرايين قلبه (الوتين).

السؤال السادس

لماذا خُتمت بعثة الأنبياء بمحمد «ص» ؟

الجواب:

يُعوَّض ماء الحوض دائماً في وقت معين وهو حال تلوثه. والوقت الذي يُعمر فيه الشارع والمنزل والملابس والسيارة هو حينما تكون فيه مطبات وثغرات وتخريب.

ووقت الحاجة الى النبي الجديد هو وقت طرو التحريف والكتمان على رسالة النبي السابق. اما اذا لم يطرأ تغيير على حرف واحد في القرآن ولم تحجب مسألة من مسائله فلاحاجة لنبي جديد. وهذا بخلاف الكتب السماو ية الا خرى فلوألقيت نظرة على التوراة والانجيل فسوف تشاهد الكثير من الأفكار التافهة المخالفة للعقل بحيث سوف تخجل من قراءتها.

(١) سورة الحاقة، آية (٤٤-٤٦).

في هذا الضوء فأحد العوامل لبعثة النبي هو التحريف والكتمان الذي لاوجود له في الاسلام هذا من جهة.
ومن جهة أخرى، يتفق أحياناً ان يقصد شخص أمّي الذهاب الى محل بعيد فهنا سيضطر هذا الشخص الى السؤال عن كل شارع ليصل الى محله اما اذا أراد شخص متعلم ان يطوي نفس الطريق فسوف نرسم له خريطة كاملة للشوارع والأزقة على ورقة ونضعها في يده وسوف يختار طريقه و يصل الى المقصود. والانسان أيضاً اذا استطاع ان يأخذ المخطط الكلي من النبي فلاحاجة له بعد بنبي آخر.

مثال آخر

يتعامل الانسان أحياناً مع طفل وحينما يمرض يوجهه لترك استعمال بعض الأغذية المضرة فيضطر لذكر اسمائها واحداً واحداً فيقول له مثلاً، اجتنب ماء الليمون، لا تشرب الخلّ لا تأكل الطرشي، اما اذا أراد ان يوجه شخصاً كبيراً فيقول له كلمة واحدة فقط وهي لا تستعمل الحمضيات، ولاحاجة بعد لذكر أسماء تلك المواد واحدة واحدة.
نطبق هذين المثالين على الناس. فالناس قديماً حيث كانوا يمرون في مرحلة الطفولة والجهل فلابدّ من اعطائهم عنوان شارع شارع واسم واحد واحد من الأشياء. اما بعد ان بلغ المجتمع البشري حد الرشد واستطاع ان يدرك آلامه و يأخذ دواءه من خلال المخطط العام الذي أعطي له فحينئذ لاحاجة لبعثة الأنبياء بين حين وآخر وتبقى الحاجة قائمة فقط لأئمة وفقهاء لحفظ وصيانة التشريع.
مسألة أخرى هنا هي ان الأنبياء السابقين كانت أغلبيتهم تحمل

مهمة تبليغ المفاهيم الإلهية بلارسالة وكتاب عدا جمع يُعدّون بالأصابع، ولم يكونوا جميعهم أصحاب كتب سماوية وحملة أفكار جديدة. وعلى هذا الأساس فبعد ان يحمل مسؤولية التبليغ أئمة معصومون وعلماء متّقون فلا يبقى مجال لبعثة نبي.

وواضح ان الحاجة الى الدين والتعاليم الإلهية مستمرة لكن تغيير وتبديل الدين ليس ضرورياً باستمرار.

في الختام لاينبغي ان نغفل عن مسألة الاجتهاد التي تعني قيام الفقهاء العدول باستنباط الأحكام الإلهية على أساس القواعد والأصول العامة التي بين أيديهم.

كانت هذه بعض نماذج للأسئلة الشائعة التي تطرح بين الحين والآخر، ولسنا بصدد الاجابة على الجميع. وهنا نصل الى اختتام هذا القسم أيضاً.

القسم الخامس:

الأنبياء وسيرتهم العملية

بحثنا بشكل مختصر في الأقسام السابقة موضوع الحاجة الى الأنبياء، ومعرفة صفات ومزايا أولئك العظام.

في هذا القسم نتابع بشكل مختصر سيرتهم العملية وأهدافهم المقدسة، وأسلوبنا في جميع هذه الأقسام يعتمد الوحي وكلام القدوة من المعصومين «ع». بدءاً نذهب صوب القرآن لنرى كيف يرسم ويحدد وظيفة الأنبياء.

١ـ ﴿إِذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾(١) يخاطب الله تعالى موسى «ع» و يطلب منه ان يذهب لمواجهة فرعون، لأنه طغى.

نعم لابدَّ للأنبياء من الوقوف في وجه جميع البغاة والطواغيت، وحسب شعار اليوم الذي يُطلق بشكل وهمي (النضال ضد الاستعمار والامبريالية). وفي أكثر الأحيان لايتجاوز هذا القول مرحلة الشعار في هذه الأيام. النضال الواقعي والجدي ضد الطواغيت على رأس برامج الأنبياء. بل قلع هؤلاء الطواغيت الذين ينصبون أنفسهم أرباباً من دون

(١) سورة طه، آية (٢٤).

الله يُهيء الأرضية للتوحيد لأنه ما لم تُرفض كل الآلهة لانصل الى «الله» وفي كلمة التوحيد لا إله الاّ الله نواجه ابتداء جملة (لا إله) التي تعني نفي جميع الطواغيت ثم تتعرف على الله الأحد. حقاً انه ما لم نطهر القلب من غير الله فلا يكون قلباً إلهياً.

٢ـ (فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُم)(١)

يخاطب موسى فرعون و يقول له: ارفع يدك عن بني اسرائيل الذين تستعبدهم تحت مخالب ظلمك وأطلق حريتهم، وارفع يدك عن استغلالهم وتعذيبهم.

نعم انقاذ المستضعفين والمحرومين من السلطة الظالمة العمل الثاني في وظائف الأنبياء الإلهيين.

وتنبغي الاشارة الى ان قضية انقاذ المحرومين والجهاد ضد الطاغوت وادانة الظلم من قبل الأنبياء قضية تختلف تماماً عن المؤتمرات الدولية و بياناتها الختامية وشعاراتها الدبلوماسية وذلك لأننا نلاحظ ان موسى حرر بني اسرائيل ودمَّر فرعون على أرض الواقع، لكن حماة حقوق الانسان على طول حياتهم لم يضحوا بمرتب شهري في سبيل انقاذ البشر! وحتى الآن يمكن القول ان هؤلاء لم يخطوا خطوة في سبيل نجاة المستضعفين، وثبتوا لأنفسهم فقط حقوقاً باسم حقوق الانسان.

ألم يحن الوقت الذي يقطع مستضعفو العالم أملهم بهذه التشكيلات و يتَّحدون على طريق الأنبياء؟

٣ـ (وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم)(٢)، الخطوة الثالثة التي يجب على

(١) سورة طه، آية (٤٧).

(٢) سورة الأنبياء، آية (٥٧).

الأنبياء ان يخطوها هي محاربة الخرافة والشرك ابتداءً من عبادة الأشخاص وانتهاءً بعبادة الشمس والأوثان، وعبادة المقام والمال والشهادة والهوى وسائر أشكال الشرك وجذوره التي يجب ان تقلع بيد الأنبياء، وان لم تجتث فتسحق. وهذا هو نداء ابراهيم «ع». فمع انه ابتدأ بالقول الهادىء مع عمه عابد الأوثان، واستدل استدلالات جميلة لنمرود وابتكر اسلوباً جميلاً لتنبيه عبدة الشمس والقمر لكنه لم يجد في تكرار الكلام والاستدلال أثراً في نفوس أولئك، فصرخ بوجههم: بانني سوف أهشم أصنامكم في المستقبل القريب، وكذلك فعل.

اذ حيث لا تنفع النصيحة والوعظ والاستدلال فلابدَّ من ايقاظ هذه الضمائر الخامدة بعمل ثوري حاسم، ولذا نرى ابراهيم يوم خلا البلد من أهله يحمل فأسه و يذهب الى معبد الأوثان وكما يقول القرآن ﴿فَجَعَلَهُم جُذاذاً﴾(١) حوّل الأوثان الى أجزاء اجزاء ووضع الفأس في عنق أكبر صنم ثم انصرف. وبمجرد عودة أهل المدينة ودخولهم الى المعبد اخذوا يتساءلون بعضهم مع البعض الآخر أي ظالم حطم آلهتنا، ولم يمض وقت طويل حتى تذكروا جميعهم ابراهيم وهم يقولون ان هذا العمل عمله فحسب.. فابراهيم كان ينتقد بشدة عبادتنا للأوثان و يسفه آلهتنا، الآن لابدَّ من اعتقاله واحضاره أمام الناس ليعترف بظلمه، ولندين عمله أيضاً ونعاقبه على جريمته. احضروا ابراهيم واستفهموا منه: لماذا حطمت أوثاننا؟ قال لهم اسألوا كبير الأوثان عسى أن يجيبكم! هنا أخذ الناس ينظر بعضهم الى بعض وقالوا فيما بينهم ان هذا الوثن لاينطق، ابراهيم «ع» كان ينتظر هذا الاعتراف ورأى ان عبدة الأوثان أحرجوا وعادوا الى

(١) سورة الأنبياء، آية (٥٨).

أنفسهم وطأطأوا رؤوسهم الى الأرض، فصاح «ع» بهم أتعبدون أوثاناً لا تقدر على نفعكم ولاضركم؟ أفلا تعقلون؟

وقد جاءت قصة هذه الحادثة في سورة الأنبياء من الآية (٥٨) فما فوق. وتحكي هذه الحادثة عن أعمال الأنبياء العظام وكيف يقاومون الشرك والخرافة و يوقظون الضمائر الخامدة بشجاعة فريدة، و يذهبون لاستقبال الخطر، وكانوا على استعداد ليُقذفوا في نار الدنيا من أجل خلاص الناس من نار جهنم، اذ لاحظنا كيف اشعلوا ناراً وألقوا فيها بطل التوحيد غافلين عن ان مؤامرتهم تحبط وان ابراهيم يخرج سالماً من النار بارادة الله.

٤ـ ﴿يٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾(١) هذه الآية أيضاً تمثل جانباً من رسالة الأنبياء وسيرتهم العملية وتلقي مسؤولية العدل والحكم بالحق على عاتقهم. وفي آية أخرى أيضاً هكذا نقرأ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾(٢)

٥ـ ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾(٣) فالنبي يأمر الناس بعمل الخير والمعروف و ينقلهم من الغارة والتعدي الى الايثار، ومن الوثن الى الله، ومن التفرقة الى الوحدة ومن القتل الى الأخوة، ومن الاسراف الى الزهد، ومن الجهل الى العلم، ومن الظلم الى العدالة، ومن التميز الى المساواة، ومن الغرور الى التواضع ومن الشرك الى الإخلاص. فيوجد بهذه النقلة ثورة ثقافية بمعناها الواقعي الشامل.

٦ـ ﴿وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ نبي الاسلام شأنه شأن سائر الأنبياء يمنع

(١) سورة ص، آية (٢٦).
(٢) سورة يونس، آية (٤٧).
(٣) سورة الأعراف، آية (١٥٧).

الـنـاس و ينهاهـم عن جميع المنكرات. حقاً ان الحياة قبل البعثة كانت تـسير في أردىء الأوضـاع مـن الـنـاحـيـة الـفـكـريـة الثقافية والعقائدية والصحية والاقتصادية والأمنية والاجتماعية.

ونتقل هنا لكل واحدة من هذه النواحي شاهداً عن علي «ع».

من الناحية الفكرية، ينطفأ مصباح الهداية تماماً وتعم الجميع حيرة وتخبـطٌ وعمىً في القلوب. (فالهدى خامل والعمى شامل)(١)

مـن الـنـاحـيـة الـثـقـافية، لم يكن هناك فرد يستطيع ان يقرأ كتاباً. (وليس أحد من العرب يقرأ كتاباً)(٢)

مـن الـنـاحـيـة العقائدية، نُصبت بين أولئك الناس أوثان من الحجر والخـشـب وكـانـوا يـدورون حـول هـذه الجمادات كالفراشة و يعبدونها (والأصنام فيكم منصوبة).

مـن الـنـاحـيـة الصحية، كانوا يستفيدون من المياه الآسنة والأغذية المتعفّنة، (تشربون الكدر)(٣)(وطعامها الجيفة)(٤).

مـن الـنـاحية الاقتصادية، كان يحكمهم الفقر بالشكل الذي لم يتوفر لأكثر الناس سوى الخبز اليابس و بلا غموس.

وعلي «ع» يحدث عن هذه الخواطر بقوله (وتأكلون الجَشِبَ)(٥).

مـن الـنـاحـيـة الأمـنـيـة، كان الخوف يخيِّم على قلوب الناس وكان السيف يحكم على عقولهم، فما كان لاصقاً في القلوب هو الخوف وما كان

(١) نهج البلاغة، الخطبة (٢).
(٢) نهج البلاغة، الخطبة (٣٣).
(٣) نهج البلاغة، الخطبة (٢٦).
(٤) نهج البلاغة، الخطبة (٨٨).
(٥) نهج البلاغة، الخطبة (٢٦).

منفصلاً عنها هو السيف. (شعارها الخوف ودثارها السيف)(١) فمن جهة كانوا خائفين يطغي عليهم الخوف جميعاً ولكن في نفس الوقت كانوا يتظاهرون بالشجاعة والقهر ويحملون السيف ويهدد بعضهم بعضاً.

من الناحية الاجتماعية، كانت التفرقة والحرب الساخنة والباردة، والنزاع بين القبائل في القمة بحيث يسفك بعضهم دم الآخر على اثر مجموعة مسائل جزئية تافهة، وقد تقطعت أواصر القرابة، والذي كان ضعيفاً هو الحق والذي كان قوياً هو الشيطان، وكانت العيون تكتحل بالدموع.

وقد جسم بيان علي «ع» هذا المشهد بقوله (تسفكون دماءكم وتقطعون أرحامكم)(٢).

وزبدة المخض هي ان العرب قبل الاسلام كان يعيشون اردأ أشكال العيش يغرقون في الخرافات و يتحيرون في ظلمات الشرك والتفرقة والظلم والفقر. فجاء الاسلام وأزال حجب انظلم والمنكرات وأزاح هذه الغيوم السوداء.

نعم أحد أعمال الأنبياء هو النهي عن المنكر ومقاومة المفاسد. وأي منكر أكبر من قتل الانسان، قتل الابن،السجود لملوك ايران والأصنام في الجزيرة وشيوع الربا والخمر؟ وأي خدمة لنجاة الانسان أفضل من محاربة هذه المنكرات؟

ونحن اذا تعرفنا قليلاً على حياة وتضحيات هؤلاء القادة السماويين والمصلحين الواقعيين فلانعطي مركز القدوة المعصومة لقادة باسم العامل

(١) نهج البلاغة، الخطبة (٨٨).

(٢) نهج البلاغة، الخطبة (٢٦).

والمحروم يعيشون أفضل الحياة في القصور المرفهة ومتفلسفين باسم العلم والفلسفة يجرون ملايين البشر نحو الفناء، ولـبقينا نتابع حط الأنبياء المستقيم. الأنبياء كانوا صادقين وموفقين أيضاً، والآخرون لاصدق لديهم ولايحالفهم التوفيق، لأننا بعد مضي سنين قليلة نرى أنفسنا في مواجهة نواقص تلك الاتجاهات وآثارها السلبية، وإذااتفق ان قدمت تلك الاتجاهات كلمة حق للمجتمع او خطة صالحة له فاننا نجد الأفضل من ذلك في رسالة الأنبياء.

و بغض النظر عن كل ماتقدم فان رؤ ية أولئك المصلحين والقادة الأرضيين لا تتعدى حد الموت، لكن الطرح الذي يقدمه الأنبياء طرح خالد يمتد الى ما بعد الممات.

من زاو ية أخرى فالنظرية التي يقدمها الآخرون تتناول أحياناً بعداً واحداً من أبعاد الحياة ويمكن ان تغض النظر عن الأبعاد الأخرى. مثلاً بعنوان الاهتمام بالانسان وحريته يغفل أحياناً عن جميع القيم الأخلاقية والاجتماعية.

وأحياناً يلتفت الى الاقتصاد و يعتبر القاعدة الأساسية التي تفسر على أساسها كل الظواهر الاجتماعية والسياسية والعسكرية والعقائدية ولكن تنسى كل القيم الأخرى.

اما نظرية الأنبياء الإلهية فتعُرض أمام الانسان بلا غفلة عن أي أصل و بلا تنزيل لأي قيمة من القيم.

وهذه الظاهرة بنفسها إحدى خصوصيات طرح الأنبياء. فهذا هو الاسلام وحده الذي نجد في ميدان حربه العبادة والأخلاق والرعاية الصحية، وعبادته وصلاة جماعته ليست عبادة محضة بل لها بعد سياسي واجتماعي أيضاً.

أطلت البحث قليلاً فاستميحكم عذراً، ونذهب خلف الشاخص السابع في سيرة الأنبياء.

٧ـ (وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ)

أحد أهداف الأنبياء هو التزكية والتعليم، التزكية تعني التطهير والترشيد، فما لم يُنقذ الانسان نفسه من عالم التلوث وحب الذات والتعصب الجاهلي وغيره لايمكنه ان يرشد و يتطور.

ولابأس ان ننقل لكم قصةً:

كان هناك فارس يسير في الأرض على فرسه، و بينما هو كذلك وصل الى جدول من الماء قليل العمق. وبمجرد وصول الفرس الى حافة الجدول وقفت بدل ان تطأ بأرجلها الجدول وتعبره. هنا نزل الفارس عن الفرس ورفع ملابسه وأخذ بعنان الفرس ليعبر بها النهر، لكن الفرس لم تتحرك. ذهب من خلف الفرس وأخذ يضربها بالسياط فلم يجد لضربه أثراً. فتحيّر.

وكان هناك على مقربة منه رجل حكيم كان يراقب المشهد، فصاح الحكيم للفارس وقال له اذا خبطت الماء بالعصا فسوف يتحرك الفرس بسهولة، فأخذ بنصيحة الشيخ الحكيم، فتحرك الفرس، ومن الطرف الآخر للجدول تشكر من الحكيم وسأله عن فلسفة خبط الماء؟ قال الشيخ الحكيم: كان الماء زلالاً صافياً وكان الفرس يرى نفسه على الماء ولذا لم يتحرك.

نعم مادام الانسان يرى نفسه و يعتبرها محوراً لرؤيته وحبه وعبادته ولم يتجاوزها فلايمكنه أن يتطور أبداً، والشخص الذي لايتجاوز ذاته لايصل الى الله.

فمعنى التزكية هو ان لايُدفن الانسان في مقبرة ميوله وأهوائه

ولايصبح أسير مخالب رغباته، فيطهِّر نفسه من الشرك والحسد وحبّ الزعامة ومن الخوف والذلة والقساوة، كما يطهِّر فكره أيضاً من الخرافة والجهل والسذاجة والتحذير، و يسعى لخلاص أمّته من عبادة القوة والطاغوت ومن الاستثمار والاضطهاد والركود.

فالمشكلة الأساسية التي يعاني منها عالم اليوم رغم كل التقدم العلمي الذي أحرزه في فروع المعرفة المختلفة .هي انه رغم زيادة عدد العلماء والمخترعين يوماً بعد يوم، الاّ ان نسبة الجرائم لم تهبط.

فكلما ازداد عدد الحقوقيّين في العالم يزداد معه سحق حقوق الشعوب المستضعفة، لماذا؟

لأن الوعاء الذي تسكب فيه هذه العلوم وعاء غير طاهر وان التعليم يعطى دون تربية وتزكية.

من خلال تحليل احصائي مدروس تستطيع ادراك الفرق بين العناصر التي ترعرعت في أحضان رسالة الأنبياء و بين العناصر التي نشأت ورشدت في ظل الثقافات الأرضية.

و واضح ان العنصر الذي يحمل اسم (المسلم) او الشخص الذي يحمل شعار الاسلام فقط لايمكن ان نطلق عليه (نتاج الاسلام وتربيته)، نعم التربية والتعليم من أهم أهداف الأنبياء. وامتياز الانسان على سائر الحيوانات هو في التعليم والتربية في أفقها الواسع الذي بَرمجته وخططت له سواعد الأنبياء المسددة. فأنت تلاحظ الفعاليات التي تمارس لانتخابات الرئاسة في الدول المتطورة التي يقال لها (العالم المتحضر). فيمارس مثقفوهم الأكثر تنوراً كل أشكال التنافس غير الانساني في الدعايات والوعود الكاذبة والتملق المبتذل. في قمة التطور المدني المعاصر تجد الفقر المعنوي بشكل ملحوظ.

التزكية والتقوى والتحلي بالقيم الانسانية هي التي تحول الانسان الى جبل صامد أمام كل الأفراح والأحزان، وتضعه في الموقع الذي يقول (واللهِ لوأعطيت الأقاليم السبعة بما تحت افلاكها على ان أعصي الله في نملة أسلبها جُلْبَ شعيرةٍ ما فعلتُه)(١) جُلْبَ شعيرة = قشرة الشعير.

يتمتع عالم اليوم بشتى الامكانات المادية الا اننا شاهدنا بأم أعيننا كيف دافع العالم عن الحكم الشاهنشاهي في ايران، ووقف متفرجاً على دماء (١٦٠) ألف شهيد ومعلول، ولم يذكر هذا الشعب المظلوم حتى ببرقية تعزية واحدة من أي جهة في هذا العالم! ولاينبغي توقع أكثر من هذا من عالم دار ظهره لرسالة الأنبياء وأغفل تماماً أساس التهذيب والتزكية.

أما مسألة أهمية التربية والتعليم في الاسلام وصفات المربي وأسلوب التربية والتعليم التي حددها الاسلام فسوف نتناولها في بحث مستقل باذن الله، ولذا نكتفي بهذا الحد من الايضاح في هذا القسم تاركين تفصيل البحث في هذا الموضوع الى محله.

٨ـ (لِيَقُومَ النَّاسُ بِالقِسطِ)(٢)

جاء الأنبياء لبناء مجتمع تضع جماهيره نفسها أساس العدل والقسط في هذا المجتمع، جاؤوا لبناء مجتمع غير مستضعف ولامستكبر، وكما يقول القرآن: (لاتَظلِمُونَ ولاتُظلَمُونَ) هدف الأنبياء تشكيل أمة يصفها القرآن (أمّةً وَسَطاً) لا تترك العمل بأصل لأجل أصل آخر. فاذا أعطت للفرد قيمة وأولته اهتماماً فهي قد أعطت للمجتمع قيمة أيضاً. واذا قدمت منهجاً

(١) نهج البلاغة، الخطبة (٢٢٤)

(٢) سورة الحديد، آية (٢٥).

للحياة في هذا العالم فقد التفتت أيضاً للحياة في العالم الآخر. جاء الأنبياء ليبنوا أمة يقف المضمون والشعور الى جانب شعارها و يصحب أناتها انتفاضة ونهضة، والى جانب صلاتها زكاة. هدف الأنبياء بناء مجتمع ينطبع بالطابع الإلهي و كما يلونه القرآن بقوله (صِبغَةَ ٱللَّهِ) (١)

كل فرد ومجتمع يتلون بطابع رباني لايمكن ان تلونه ألوان الطاغوت وقوى الاستكبار والمحيط والقبيلة والأصول العرقية ولاالميول الشخصية لهذا أو ذاك . الانطباع بصبغة الله يعني ضماناً من كل صبغة شرقية او غربية.

واذا شاهدنا مجتمعنا لايزال يتعثر في سبيل استقرار العدالة او يخضع لسلطان الظلم او لايزال غير مجسد لمفهوم (الأمة الوسط). ولم يطبع بطابع إلهي يرجع كل ذلك الى ان الأمة لم تمض بشكل دقيق وعميق على خط نبيها العزيز وقدوتها من أهل بيت العصمة أو لم تمض على سبيل النائب بحق لهؤلاء العظام.

٩- (وَيَضَعُ عَنهُم إِصْرَهُم وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيهِم) (٢)

المسألة الأخرى التي تُلحظ في سيرة الأنبياء العملية هي، مسؤولية الأنبياء في قلع المقاييس وازالة الأحكام والتشريعات والتوقعات القاسية التي فُرضَت وَحُمِلَت على كاهل الانسانية.

ترى الآية أعلاه ان وضع وازالة التكاليف والتشريفات التي تقيد البشرية جزءٌ من برامج النبي. الرسول الأكرم «ص» رفع عن كاهل الانسان أثقالاً كانت تمنعه عن الفعاليات والنشاطات الأساسية. حتى

(١) سورة البقرة، آية (١٣٨).
(٢) سورة الأعراف، آية (١٥٧).

الآن و بعد مرور ١٤٠٠ عام على صيحة القرآن نشاهد أناساً في مجتمعنا الذي يحب القرآن ظاهراً قد منعت رشدهم وتكاملهم مجموعة آداب وتشريفات وهمية إلتزموا بها. مثلاً، لأجل عدم امتلاك البعض نوعاً معيناً من الملابس يمتنعون عن المشاركة في الجلسات والاجتماعات التعليمية. أو يمتنع البعض من المشاركة في المؤتمر الاسلامي (الحج) بسبب التشريفات والتكاليف التي تكون بعد الرجوع من الحج. أو يمتنع البعض عن تعقيب المجرم والمطالبة بحقه بسبب الروتين الاداري. أو يؤجل البعض زواجهم أعواماً بسبب مجموعة التشريفات الخاطئة والتكاليف المادية التي جاءت في الزواج. ولكن اذا جاء شخص كرسول الله «ص» وأزال هذه القيود الاضافية ورفع هذه الأعباء الثقيلة عن كاهل المجتمع يتحول الوضع كما كان على عهد رسول الله «ص»، اذ يؤسس مسجداً متواضعاً مبنياً من الطين و يتحول هذا المسجد البسيط الى مركز أكثر عطاء بمراتب من قاعات الاجتماعات والمؤتمرات والمحاكم ومن المعسكرات والمدارس.

نعم يمكنك ان تجري مقارنة عاجلة بين اللقاء بزعيم الثورة الاسلامية في حسينية جمران و بين اللقاء برئيس جمهورية اوربية او امريكية او بابا الفاتيكان. فتجد في أحدهما البساطة، والاقتصاد في المصرف، والعطاء المثمر المرافق للإخلاص والوحدة والصبغة الإلهية. وتجد في الآخر التشريفات والاسراف في المسائل الثانوية والعناء ومنع الآخرين دون اللقاء. ألا يحسن بنا ان نتجاوز هذه المسائل بعجالة، واذا أخذنا قليلاً من النور لتتسع رؤيتنا وشاهدنا كل العالم وتصورنا: اننا خفضنا من ميزانية دول العالم التي تصرف في وسائل التجميل واللهو والتشريفات الثانوية وصرفناها لسد حاجة الفقراء والمعدمين في العالم حينئذ يمكننا

ان نحلّ بسرعة كبيرة أكثر مشكلات مناطق العالم المحروم... هذا التصور يستطيع ان يكون شرحاً مختصراً لقوله ﴿وَيَضَعُ عَنهُم إِصْرَهُمْ﴾ والذي يوضح كيف رفع النبي بأحكامه وأساليبه ﴿إِصْرَهُم وَالأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيهِم﴾ لقد فك النبي الأغلال التي كانت تقيد فكر الناس ولسانها وفهمها وأقلامها وأطرافها واحداً بعد الآخر.

لوحظ كثيراً ان الناس لديها مطالب ورغبات لكنها لا تقدر على قولها او كتابتها. وأحياناً بسبب طمس الحقائق على الشعب يمنعه العملاء عن فهم الواقع الحقيقي. هنا يخرج قائد لائق ومضحٍّ و يبدأ بالتوعية وفضح المتآمر، فتنطلق دفعة واحدة الألسن والأقلام وتكتب البيانات والنشرات ويختفي الخوف وتنزل الجماهير الى الشارع، و يتحول المستحيل الى حقيقة اعتيادية.

نموذج ذلك شاهدناه في الثورة الاسلامية بقيادة الامام الخميني، ولاحظنا كيف استطاع القائد اللائق ان يرفع الحجر الذي كان على الأقلام والأفواه وتخرج جماهير الشعب بأكمله هاتفة بموت الشاه. ولاحظنا كيف استطاع شعب تركيع أمريكا التي كان بالأمس يخشى من كلبها، وكيف أسر جواسيسها وفضح الأسرار التي حجبوها عن الأنظار. هذا النموذج الصغير يمكن ان يكون حاكياً عن العمل الكبير الذي قام به رسول الله «ص».

١٠ـ ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾

مبشرين

العمل الآخر من أعمال الأنبياء هو حمل البشرى والأمل والتفاؤل للناس وتحديد و بيان المستقبل الواضح لهم بالدليل و البرهان. وحقاً ان الانسان يحيا بالأمل وهل تعلم الاتجاهات الأرضية انها حينما تذهب الى

ان مصير الانسان هو الفناء وان الانسان بموته يتحول الى جثة متعفنة، وترى ان الحياة تنحصر في أيام الدنيا القلائل التي تحيط بكل لذة من لذاتها مئات اللسعات والآلام فهي تهيء الأرضية لزيادة نسبة الأمراض النفسية في كل ساعة وفي كل لحظة وتنتهي بالانسان الى اللجوء الى المشروبات الكحولية والمواد المخدرة وترفع من نسبة الانتحار. وتضع الانسان على طريق الهيبية والعبث وسحق كل القيم الاجتماعية وقوانين العدل والفطرة، اذ يفقد الانسان ارتباطه بالمستقبل ويهدد المجتمع الانساني اليأس والتشاؤم. حقاً اذا لم يكن هناك أمل و بشرى بحياة أبدية نلتحم بها مع الكمال المطلق، وليس هناك بعد الموت سوى الفناء، اذن لماذا لا نُسرع في الانتحار؟

اذ لابدّ ان نفنى بعد سني العذاب، فلماذا لاننقذ اانفسنا ونذهب من هذا العذاب ؟

افرض اننا عشنا عدة سنين أخرى واستهلكنا (س) ألف كيلو غرام من الغذاء مع (س) ألف ليتر من الماء فماذا سيحدث بعد؟

هذه نافذة النظرة المادية للعالم وهذه عقيدة الشخص الذي لايرى نفسه في محضر الله وليس لرضا الله والقرب منه والحياة الأبدية والجنة الخالدة مفهوم لديه.

النظرة الإلهية للعالم ترى ـ مع أمتن البراهين والأدلة ـ ان الانسان موجود لايقبل الفناء، ومصيره واضح، ولصالح أعماله الصغيرة والكبيرة ثواب، وان حياته لا تنحصر في أيام الدنيا القلائل، وفي هذه الرؤ ية والنظرة للعالم تضحى كل المتاعب والآلام لطفاً إلهياً خفياً و وسائل لرشد الانسان أيضاً، وحيث ان الانسان يطل برؤ ية أخرى على الحياة ويجد فيها لذة أخرى له فهنا يأتي قانون التوبة والعفو الإلهي والثواب

المضاعف من جهة والحياة الأبدية مع القرب لله ومجاورة أوليائه في جنة الخلد تأتي من جهة أخرى وتعطي للانسان روح الأمل والتفاؤل بالنسبة لله وللوجود. فلاتبقى الحياة سراباً عنده ولايذهب جهده وسعيه ذهاب الغبار في عاصفات الرياح.

الآن و بعد ان عرفنا دور الأمل في حياة الانسان نلاحظ ان البشرى وفتح نافذة الأمل أحد أهداف أنبياء السماء وجزء من سيرتهم العملية.

منذرين

الانذار عمل آخر من أعمال الأنبياء.

الخوف والخشية مؤشر أساس لامتناع الانسان من الوقوع في كثير من المخاطر. ولكن لابدّ للانسان من معرفة ووعي الأخطار المقبلة لكي يحذرها، فالطفل الذي لايعرف لسع الحية يتصور الحية حبلاً، والوالدان هما اللذان يتحتم عليهما تعريف الطفل على الحية ليعي خطرها.

الأنبياء عن طريق نقل تاريخ الأمم السابقة وكيفية تورط تلك الأمم بالغضب الإلهي الذي انتهى الى هلاكها وتدميرها بسبب ظلمها وغرورها وتحللها وجبنها واستكبارها. وعن هذا الطريق يحذرون الناس و يعلنون لهم ان مسألة غضب الله وقهره كمسألة رحمته ولطفه قانون وسنة إلهية بحق كل أمة انتخبت لنفسها طريق الباطل كما ان اللطف والرحمة قانون بحق الأمة التي انتخبت طريق الحق. ولا فرق في جريان القانون بين أمة وأخرى. وهذا النوع من الانذار والتحذير الذي يأتي عن طريق نقل تاريخ السالفين يرتبط بالاخطار العامة ومصير الشعب والأمة.

وهناك نوع آخر من التخويف والانذار يرتبط بشخص الانسان، وهو انذار الأنبياء لنا. واعلامنا بنار جهنم. و ينقلون لنا مشاهد من ذلك المستقبل الواقع لامحالة، وكيف يقف المجرم بعد الموت أمام محكمة العدل

الإلهي وفي حضور كل الأنبياء والملائكة والناس تكشف كل أسراره وتُفتح صحيفة أعماله ليجد فيها جميع أعماله مثبتة الصغير منها والكبير ، ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ (١)

يخبر الأنبياء عن يوم لابدَّ ان يستعد فيه كل فرد للاجابة والحساب على أصغر مسائله وأبسطها.

في ذلك اليوم ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ (٢).

حقاً أليس الخوف من غضب الله وناره وعذابه وخزيه يوم الحساب أهم عامل للامتناع عن اشكال المفاسد والجنايات ؟!

واذا لاحظنا مجيء أكثر من ألف آية بصدد المعاد، ومئات الآيات بصدد هلاك وسقوط الأمم السالفة، كل ذلك لأجل ان يخرج الانسان من الغفلة، و يلتفت الى الأخطار التي تهدد الفرد والمجتمع، وان يخشى الله ويحفظ نفسه من غضبه وخزيه.

نعم أحد أعمال الأنبياء المرافقة لتبشيرهم بعفو الله ولطفه وثوابه هو تحذيرهم وتخويفهم من غضب الله يوم القيامة ومن السقوط والذلة والهلاك في الدنيا.

١١ـ ﴿لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (٣)

جاء النبي «ص» لانقاذ البشرية من الظلمات الى النور، من ظلمة

(١) سورة الكهف، آية (٤٩).
(٢) سورة المعارج، آية (١١، ١٢، ١٣، ١٤).
(٣) سورة الأحزاب، آية (٤٣).

الجهل الى نور العلم، من ظلمة النفاق الى نور الصفاء، من ظلمة الشرك الى نور التوحيد، من ظلمة التفرقة الى نور الوحدة، من ظلمة الخوف الى نور الأمن، من ظلمة التعصب الى نور التحقيق والتحليل، من ظلمة التقليد الأعمى الى نور التفكير المستنير، من ظلمة الهوى الى نور الهدى.

هذه هي الخطوط العامة لسيرة الأنبياء الاّ ان السيرة العملية للأنبياء لا تنحصر اطلاقاً بما قلناه. فقد كانت الدعوة الى التوحيد ومقارعة أشكال الشرك ونجاة المظلومين ومحاربة الخرافة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتبشير والانذار على رأس قائمة أعمال الأنبياء، الاّ أننا اذا أردنا ان نتعرف على السيرة العملية لهؤلاء بشكل أكبر فلا بدّ أن ندرس القرآن معاً ونحلل ونتابع ماينقله القرآن من خدمات قدمها الأنبياء الواحدة بَعد الأخرى.

﴿يٰاأَيُّهٰا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلّٰهِ وَلِلرَّسُولِ إِذٰا دَعٰاكُم لِمٰايُحيِيكُم﴾(١)

تطرح هذه الآية تعاليم الرسول «ص» بوصفها حياة الفرد والمجتمع. و يستنبط من هذا الوصف ان المجتمع قبل البعثة كان ميتة لاحياة له، فهو المجتمع الذي لايعرف سوى تقليد الآباء والأجداد ولا يحاول البحث عن طريق آخر.

والمجتمع الذي ليس لديه سوى التعصب القبلي وهو غير مستعد للتفكير وفق منهج آخر. والمجتمع الذي ليس لديه سوى الظلم والعدوان وليس مستعداً للتحرك وانقاذ نفسه أو الآخرين.

والمجتمع القاتل لأبنائه الذي يعد انجاب البنات عاراً والذي كان يغرق بالخرافات وتحيا جماهيره بلامدنية وفي وحل التخلف الصحي وتحيا

(١) سورة الأنفال، آية (٢٣).

في الجهل بلاحرية.

في مثل هذا المجتمع ـالذي يستحق ان نطلق عليه اسم المجتمع الميت ـ بُعِثَ نبيٌّ يدعو الى الله، و يعتبر العلم عبادة، و يُلزِم بطلب العلم على كل رجل وامرأة، يعتبر محاربة الظالم ونصرة المظلوم وظيفة كل انسان، قدم مئات التعاليم والوصايا الصحية للانسان لشعره و بدنه ولباسه وأسنانه...، وأدان المحسوبية والتملق والامتيازات الواهية وعبادة الفرد والاعتماد على الظالمين. وجاء بحسن الخلق والصفاء والاتحاد والتعاون وحسن الظن وعبادة الله مستبدلاً بها النفاق والبغض وسوء الظن وعبادة الأوثان، وأحدث بكل ذلكثورة فكرية وثقافية بكامل أبعادها. وكان هذا الحدث وفق تعاليم الله ووحيه وأوامره الخالية عن أي شكل من أشكال الانتفاع والاستغلال والبعيدة عن السهو والخطأ والشك.

وأي اسم نطلقه على هذا التحول غير وافٍ عدا (احياء الأمة الميتة).

ولذا نجد القرآن يطلق على عمل النبي ودعوته (دعاكم لما يحييكم).

وهذه المقولة تدرك جيداً حينما نتابع احصائيات الجرائم والخيانات والارعاب والفساد الذي يملأ الدنيا بلا وحي ونبوة رغم كل ماأحرزته من تقدم صناعي وعلمي فقد اكتشف جهاز التليفون في دنيا اليوم الاّ انه ترتكب من خلقه المفاسد. أخترعت الطائرة ولكن تقصف المدن بواسطتها وتدمر المنازل وتخلط بالتراب دماء آلاف الشباب والكهول من النساء والرجال. على هذا الضوء فمالم يصاحب الايمان والتقوى الاختراع فلاينبغي توقع شيء عدا هذا الدمار. ووفقاً للرؤية التاريخية التي نستمدها من القرآن فمصير هذا العالم الصناعي والعلمي الذي يفتقد الهداية النبوية سوف يُدمر بواسطة هذا العلم وهذه الصناعة نفسها. كما

تبدو آثار هذا المصير واضحة.

ومصير المستضعفين سوف يكون الى قطع الأمل بالمنظمات الدولية وقادة الدول والقوى الكبرى التي لا تعرف سوى حفظ منافعها وكسب حق الفيتو واستعمار واستغلال الآخرين.

وسوف يستعد العالم مرة أخرى لاستقبال رجل سماوي وقانون إلهي. وطبقاً لرؤ يتنا الاسلامية فحل هذه العقدة المستعصية سوف يكون بيد المهدي الموعود «عج»، ونحن في الوقت الذي ننتظر طلوع شمس وجوده فلابدَّ لنا من الاستمرار في العمل المثابر لاضاءة ليلنا المظلم.

اذا أردنا ان نتعرف بشكل أكبر على عمل فلاح حقل فلابدَّ لنا من ملاحظة نتاج وفاكهة هذا الحقل لنرى مقدار العمل الذي بذل في هذه الأرض الخصبة، كذلك الحال بالنسبة الى ناشئة رسالة الأنبياء فملاحظة هؤلاء تمكننا من تقدير قيمة جهد الأنبياء، وهذا بنفسه بحث مفصل يحتاج الى رحلة في حياة تلاميذ الأنبياء الواقعيين.

يكثر الحديث في هذه الأيام عن مفهوم تصدير الثورة و يزداد توجه العالم للاسلام. واذا استطعنا ان ننقل جانباً من حياة اتباع الأنبياء الحقيقيين لدنيا الشرق والغرب أو نتمكن من اعداد أفلام سليمة في هذا المجال نعرضها للعالم عن طريق سفاراتنا مع دراسات توضح طريق وأسلوب رسالتنا، فسوف نخطوا خطوة الى الأمام على طريق تصدير ثورتنا ورسالتنا.

لابدَّ لنا من اعداد كراسات مختصرة تدور حول برنامج الأنبياء ونضعها في متناول الجميع. فالامام الرضا «ع» يقول: (إنَّ الناسَ لَوْعرفوُا محاسِنَ كلامِنا لا تّبعونا) (١)

(١) البحار ج ١

ونقرأ في حديث آخر قول الامام لشخصين حضرا عنده: (شرّقا أو غرّبا فواللهِ لَن تَجِدا علماً صحيحاً الاّ من عندِنا) (١).

* * *

لأجل النموذج ننقل بعضاً من كلام الله لنتعرف على مقدار غربة القرآن بيننا وانعطافنا على شعارات براقة مزيفة:

١ــ نظام التوزيع الاقتصادي لابدَّ أن يقوم على أساس منظم بحيث لا تتكدس الثروة بيد جماعة الأغنياء، وان يؤمن نظام التوزيع الرفاه العام لكل أبناء الأمة.

(كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ)(٢).

٢ــ لابدّ ان لا يخضع المجتمع لوطأة الظلم ولايتجاوز ظالماً للآخرين، بل ان يتحرك على أساس العدالة الاجتماعية ومقاومة الامبريالية والقوى المستكبرة.

(لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ)(٣)

٣ــ حلّ المشكلات على أساس المشاورة وانتخاب الأفضل

(وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ) (٤)

٤ــ تحركوا في انتخاب الطريق والاسلوب في المجالات المختلفة بالشكل الذي لا تسمحون فيه للآخرين ان يسيطروا ويمنوا عليكم فتضطروا الى الذلة وتعالي هذا وذاك.

(لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ) (٥)

(١) البحار ج١

(٢) سورة الحشر، آية (٧).

(٣) سورة البقرة، آية (٢٧٩).

(٤) سورة الشورى، آية (٣٨).

(٥) سورة البقرة، آية (١٥٠).

٥ـ كما انَّ العفو والتسامح في التعامل الاجتماعي مسألة منظورة كذلك القصاص والانتقام مسألة منظورة في موقعها:
(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيٰوةٌ يَآأُولِي الْأَلْبَابِ)(١).

٦ـ على مستوى السياسة الخارجية تُمنع كل سلطة وولاية وتدخلٍ للآخرين. (وَلَنْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)(٢).

٧ـ لايتاح للسفهاء وناقصي الأهلية اختيار التصرّف في ميزانية الدولة والأموال الشخصية وحسب وصية الامام(ع) لا تُترك الأموال بيد العابثين المقامرين ومتعاطي الخمور اذ انَّ هؤلاء في رؤ ية الأئمة المعصومين سفهاء أيضاً:
(وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ)(٣).

٨ـ الاكتفاء الذاتي والاعتماد على النفس علامة المجتمع العقائدي الاسلامي. والقرآن يشبه المجتمع الاسلامي بالنبات الذي يقف على ساقه (فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ)(٤).

فيعلن الاسلام للأمة ان تعتمد على نفسها اقتصادياً وتبذل جهدها لتعمير وسائلها الصناعية مستغنية عن الآخرين إذ انَّ الامام الصادق(ع) يقول (استصلاح المال استغناء عن اللئيم)[١].

٩ـ يجب منح المراكز المسؤولة للعناصر اللائقة الرسالية المؤهّلة لأن هذه المراكز امانة والله يقول:

(١) سورة البقرة، آية (١٧٩).
(٢) سورة النساء، آية (١٤١).
(٣) سورة النساء، آية (٥).
(٤) سورة النساء، آية (٢٩).

(إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُم أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا) (١)

والامام علي «ع» يقول:

(أيُّها الناسُ إنَّ أحقَّ الناسِ بهذا الأمرِ أقواهُمْ عليه وأعلَمُهُمْ بأمرِ اللَّهِ فيهِ) (٢)

١٠ــ الاستعداد العسكري والتوفر على فنونه والاستفادة من كل لون من ألوان الإعداد القتالي لارهاب الأعداء:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُمْ... تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)(٣)

١١ــ لا تفتحوا طريقاً في أنفسكم للخوف من اعلام القوى المستكبرة وعملائها، اذاعاتها ـ صحفها ـ مجلاتها، ولا تخافوا التُهَم والافتراءات واستمروا في مسيرتكم الرسالية الحازمة.

(وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ) (٤)

١٢ــ اطلعوا على أماني الأعداء اذ لهؤلاء عدة أمانٍ:

أــ أُمنية المجاملة والمداهنة (وَدُّوا لَوْتُدهِنُ فَيُدهِنُونَ) (٥)

بــ يرغبون وقوعكم في العناء والمتاعب (وَدُّوا مَا عَنِتُّم)(٦)

جــ (وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْتَغفُلُونَ عَنْ أَسلِحَتِكُم وَأَمتِعَتِكُم)(٤)

١٣ــ لابدَّ ان يتيقظ المجتمع الاسلامي من نفوذ عناصر وجماعات الشغب من الداخل او الخارج والوقوف بوجه مؤامراتهم واحباطها. يقول القرآن في هذا المجال: (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوا إِذَا مَسَّهُم طَائِفٌ مِّنَ الشَّيطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا

(١) سورة النساء، آية (٥٨).

(٢) نهج البلاغة، خطبة (١٧٢).

(٣) سورة الأنفال، آية (٦٠).

(٤) سوره المائده. آيه ٥٤.

(٥) سوره القلم آيه ٩.

(٦) سوره آل عمران، آيه (١١٨).

(٧) سوره النساء آيه. ١٠٢.

هُم مُّبصِرُونَ)(٥)

واضح ان الشيطان يشمل أحياناً كل أشكال الشياطين سواء كانوا من جنس البشر أو من جنس غيرهم.

١٤ ـ لاينبغي للأمة الاسلامية أن تجيز الآخرين باسم المستشار والخبير لكشف أسرارنا الصغيرة والكبيرة. وكم جميل ان يقول القرآن:

(يٰأيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُم)(١)

١٥ ـ الامتناع عن نقل الوقائع التي تثير حساسية العدو، ابتداءً من المعادن الباطنة والآثار التحفية والفنية والكتب الخطية حتى الأدمغة ذات النبوغ والأسرار العسكرية.

فبعد أن أخبر يوسف «ع» أباه برؤياه أوصاه أبوه:

(قَالَ: يٰابُنَيَّ لَا تَقصُص رُؤيَاكَ عَلَىٰ إِخوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيداً)(٢)

وإذا كان نقل رؤية منام ممنوعاً بسبب اثارته لحسّاسية العدو. فمن المحتم ان يمنع كشف أسرار جميع الثروة العلمية والماليةو...

طال الحديث لكن كل آية نقرؤها سرّ ودرس أيضاً. كان رئيس وزراء انگلتره يعرف القرآن أحسن منّا حيث قال: ما دام هذا القرآن بين المسلمين فلا نستطيع ان نوثق سلطاننا.

اخوتي وأخواتي ألم يحن وقت الالتفات للطريق والرسالة والكتاب السماوي؟

ألا نستطيع قراءة صفحة واحدة من القرآن حتى الآن؟

هل اتخذنا آية واحدة طول سنين عمرنا كأساس في عملنا؟

(١) سورة الأعراف، آية (٢٠١).

(٢) سورة آل عمران، آية (١١٨).

(٣) سورة يوسف، آية (٥).

نكتفي بهذا المقدار من البحث في السيرة العملية للأنبياء خوفاً من مللكم، كما ان دراسة جانب من حياة هؤلاء العظام كافية في هذه الحلقات لأنها بُنيت على الاختصار والتبسيط.

القسم السادس:

معارضوا الأنبياء والمقتدون بهم

أي فرد كان له هدف وخط يكون له مخالف وموافق لامحالة. امتلاك الصديق والعدو ليس مسألة أساسية، بل الأساس ان نتعرف على طبيعة البواعث التي تدفع الأصدقاء وتحركهم ؟

أوضحت بعض الآيات القرآنية تاريخ أنصار الأنبياء ومخالفيهم. وحيث ان التعرف على تاريخ أولئك له أثر تربوي على جيل اليوم نجمع هنا ماوقع تحت الشعاع في أبحاث النبوة السابقة.

بدءاًنذهب صوب المخالفين. يصنف القرآن مخالفي الأنبياء الى أصناف:

١ـ الطواغيت: جاءت كلمة (طاغوت) ثماني مرات في القرآن، وأُطلقت على (مدعي الألوهية ، المتجاوزين، والظالم)، فاستخدمت للفرد وللجماعة أيضاً.

مقارعة الطاغوت أهم برامج الأنبياء، فيقول الله تعالى لموسى:

(إِذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ)(١)

(١) سورة طه، آية (٤٣).

شعار النضال ضد الامبريالية -الذي هو أشهر شعارات الأحرار هذا اليوم- هو ترجمة ناقصة للآية أعلاه.

فنبي بوضعه الاعتيادي و ببساطة ملبسه يزلزل بلاط فرعون، و يصرخ في وجهه، لابدّ ان تطلق حرية بني اسرائيل وترفع يدك عن تعذيبهم:

(فَأَرسِلْ مَعَنَا بَنِي إسرائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبهُم) (١)

وأهم صيحات موسى في وجه فرعون قوله له: انك ليس لديك أي امتياز على الآخرين ولابدّ ان نلتقي جميعاً على صعيد واحد.

ولايخفى ان شخصية فرعون رهن ابّهة بلاطه وادعائه الربوبية واستغلاله للشعب المحروم، و يواجه موسى هذه الأبّهة بزيّه الشعبي ولباسه الاعتيادي ويحرر أسرى فرعون بصرخته، و يزيّف بدعوته ألوهية فرعون. ولم يقعد فرعون وأتباعه مكتوفي الأيدي، بل سعوا كل جهدهم لضرب رجال الله، ولذا نرى فرعون يدعو لاجتماع و يصدر أوامره لجميع السحرة ليحضروا الى مركز الاجتماع و يعيّن جائزة للساحر الذي يفضح موسى، ويحدد يوماً موعوداً ليراقب الناس فيه مشهد تحدي السحرة لموسى. يبتدئ السحرة بسحرهم و يعرضون فنّهم وامكاناتهم، ثم يلقي موسى عصاه فتتحول الى ثعبان تلقف ما عرض السحرة.

هنا يجد السحرة ان عمل موسى غير قابل للمقارنة مع عملهم فينتهون الى الايمان باعجاز عمل موسى. و يتحولون دفعة واحدة في هذا المشهد فيؤمنون بالله عندئذ يجد فرعون فشل مخططه و يرى ايمان السحرة امام مشهد خيرة أتباعه الذين جمعهم بأمواله وأتعابه فتنكسر شوكته وغروره دفعة واحدة. فيلجأ الى الاتهام والتهديد ويخاطب السحرة مهدداً: أيها

(١) سورة طه (٤٧).

السحرة ان موسى هو معلمكم وانني سوف أقطع أيديكم وأرجلكم جميعاً، وكان فرعون غافلاً عن الثورة الثقافية والفكرية التي نفذت في أعماق هؤلاء السحرة.

فهؤلاء السحرة كانوا يقولون لفرعون قبل لحظات:

(قالوا لِفِرْعَونَ إنَّ لنا لأجراً إنْ كُنَّا نحنُ الغالِبِينَ) (١)

لكنهم الآن و بعد الايمان واجهوا تهديدات فرعون بشهامة ورفعوا شعار (فَاقْضِ ما أنتَ قاضٍ إنَّما تقضِي هٰذِهِ الحَياةَ الدُّنيا) (٢)

فنحن اليوم لسنا بانتظار أموالك بل عيوننا تترقب ألطاف الله اللامتناهية. نحن قد تجاوزنا المادة ووصلنا وادي المعنى، تجاوزنا المخلوق الضعيف ووصلنا للخالق القادر، نحن لانسجد لك بعد اليوم، لأننا اكتشفنا أنفسنا وعرفنا خالقنا وخطّنا وقائدنا... نعم هذه هي طلعة الثورة الفكرية والمعنوية.

خلاصة الكلام هي ان الطواغيت كانوا باستمرار في الصف المتقدم لمعارضي الأنبياء، ولم يمتنعوا عن ارتكاب أي جريمة في هذا الطريق وان كانت احراق ابراهيم «ع».

٢ــ المترفون: وهم أولئك الأثرياء اللاهون. وحيث انهم وجدوا طريق الأنبياء وأسلوبهم ورسالتهم تتعارض مع ما هم عليه من اللهو والتحلل واللامسؤولية، فيعكفون على التخريب والمعارضة.

مثلاً كانوا يقولون لشعيب «ع»:

(أَصَلوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا أو أنْ نَفْعَلَ في أموالِنا ما نَشاؤُا) (٣)

نفعل في أموالنا ما نشاء = ترك التصرف في الأموال حسب الهوى

(١) سورة الاعراف آية (١١٣).

(٢) سورة طه آية (٧٢).

(٣) سورة هود، آية (٧٨).

والميل.

وفي سورة سبأ نقرأ:

(وَمَا أرسَلنَا في قَريَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إلاّ قَالَ مُترَفوهَا إنَّا بِمَا أرسِلتُم بِهِ كَافِرُونَ)(١)

حينما نقرأ تاريخ الأنبياء نجد كيف التفت الطبقة المحرومة حول هؤلاء، وكيف كانت العناصر اللاهية والثرية تعارض بالفعل. وحينما نلقي بعد ذلك نظرة عابرة على أقوال الماركسيين الذين يقولون ان الاسلام يحمي الطبقة المترفة يأخذنا الاندهاش والتعجب.

٣ ــ علماء ومثقفون

كان علماء اليهود والنصارى يعرفون نبي الاسلام كما يعرفون أبناءهم. (يَعرِفُونَهُ كَمَا يَعرِفُونَ أبنَاءهُم)(٢)

إلاّ انهم فكروا مع أنفسهم ووجدوا ان ايضاح الحقيقة وأخبار الناس بأن محمداً هو النبي الموعود المذكور اسمه وهويته في التوراة يؤدي الى فقدان مركزهم الاجتماعي، ولذا ارتكبوا أكبر ذنب لا يغتفر وهو كتمان الحق.

وتقرأ في حقهم (أولَئِكَ يَلعَنُهُمُ اللهُ وَيَلعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ) (٣)

حقاً اذا لم يكتم علماء اليهود والنصارى زمن البعثة حقانية رسول الاسلام، فهل يقف اليوم كل هؤلاء اليهود والنصارى صفاً في مواجهة الاسلام؟

(١) سورة سبأ، آية (٣٤).

(٢) سورة البقرة، آية (١٤٦).

(٣) سورة البقرة، آية (١٥٩).

لماذا عارضوا الأنبياء؟

ينقل القرآن الكريم أسساً تمثل الدوافع والأسباب التي تؤدي الى معارضة الأنبياء. ونحن نعيد جانباً من هذه الأسس ونقدمها للقراء الأعزاء:

١ــ حجاب المعاصره

لايقبل الانسان أحياناً أفكاراً حقة من شخص ما، وليس لديه دليل على هذا الرفض سوى انه يرى صاحب الأفكار أحد زملائه. إلاّ ان هذه الأفكار نفسها لوكان قد ألقاها هذا الشخص نفسه قبل قرنين وقد مضى وارتحل عن هذا العالم فسوف تقبل وتصدق كوحي منزل. وهذه الحالة تسمى بـ(حجاب المعاصرة).

قيمة أكثر العلماء تبقى مجهولة في حياتهم. فلوكان أحد أبناء شعبنا الاعتياديين يقدم أفضل نظرية اصلاحية فلاتقبل نظريته، أما اذا قدم هذه النظرية نفسها فرد أجنبي فسوف نتلقى طرحه ونظريته باجلال، وهذه الحالة أيضاً من حالات (حجاب المعاصرة).

ولذا نلاحظ بعض كتّابنا وأساتذتنا ينقل أحياناً كلاماً خلال حديثه أو كتابته. واذا كان صاحبه شخصاً اعتيادياً وحيّاً فلايذكر اسمه اما اذا كان قائل هذا الكلام شخصاً بعيداً عنا أو ممن عاش قبل قرن او قرنين أو كان شخصاً مشهوراً يذكر اسمه ببساطة و بلا تردد!

نعود الى التاريخ فنشاهد أحد أنبياء الله وهو يعهد لطالوت قيادة الجيش، فيتمرد الناس على قيادة طالوت و يقولون: ان طالوت لايتعدى كونه رجلاً فقيراً معدماً، فأي شغل له بالقيادة؟

وكلما ناداهم نبي الله وقال لهم ان طالوت منتخب من قبل الله وانه لائق للقيادة لم يوافقوا لأنهم كانوا يرون طالوت انساناً اعتيادياً بينهم.

ونشاهد أيضاً رسول الله محمداً «ص» حال الوفاة وهو يعبِّىء جيشاً بقيادة شاب لايتجاوز عمره (١٨) سنة، اسمه (أُسامة). وهو يقول «ص»: لعن الله من تخلف عن جيش أُسامة. ولكن مع كل هذا التأكيد من قبل رسول الله لم يتحمل شيوخ العرب ورجالها المشهورون قيادة شاب ابن الثامنة عشرةَ. وهذا هو التكبر وحبّ الذات وحجاب المعاصرة.

* * *

حديث مع القارىء

قارئي الكريم. هنا لابأس ان تطرح الكتاب جانباً وترجع تفكر مع نفسك، اذا جاء شخص فقير أو أصغر منك سنّاً أو شخص مغمور أو مخالف لسليقتك ومزاجك وقال مقولة حقة، فهل تقبل منه بارتياح او تقبل مقولته على كره وانزعاج، او لا تقبلها أصلاً؟!!

تتجلى قيمة الانسان أساساً في أتباعه للحق لا في أتباعه للأشخاص، يقيّم الانسان حينما يتجاوز ميوله ورغباته الشخصية طلباً لرضا الله واتباع الحق. وكم عدد الأفراد الذين نعرفهم أُناساً طيِّبين و يرون أنفسهم أُناساً طيِّبين أيضاً الآ انه بمجرد ظهور منافس لأحد هؤلاء يكسب ثقة الناس له و يؤدي الى سحب البساط عن ذلك الشخص فيضعف مركزه الاجتماعي يباشر هذا الانسان الطيِّب التخريب أو الفرح بعراقيل وتخريب الآخرين ضد منافسه. هذا الامتحان يكشف عن مرض نطلق

عليه (حجاب المعاصرة).

نعود الى القرآن لنرى كيف يمنع حجاب المعاصرة عن قبول دعوة الأنبياء حسب الرؤية القرآنية:

(أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوحَينَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنهُم)(١)

ونقرأ في الآية (٤١) من سورة الفرقان قوله تعالى: (أَهٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً)...

ومن خلال هاتين الآيتين يتضح بجلاء ان علة مخالفة المخالفين هي كون الرسول انساناً اعتيادياً منهم.

٢ ـ التكبُّر والمعاذير

هناك في القرآن آيات كثيرة تبين معاذير مخالفي الأنبياء ننقل منها بعض النماذج:

أ ـ (ائتِ بِقُرآنٍ غَيرِ هٰذَا) (٢)

ب ـ (لَولَا نُزِّلَ عَلَيهِ القُرآنُ جُملَةً وَّاحِدَةً) (٣)

فلماذا ينزل القرآن تدريجاً؟ وهذا الاحتجاج يغفل عن ان أفضل أسلوب تعليمي وتربوي سليم هو أسلوب التدرج في التعليم والتربية اذ في غير هذه الصورة لا تُستقر الأفكار والحقائق في القلوب ولا تفتح لنفسها طريقاً الى أعماق الروح الانسانية.

ج ـ (أَوْ يُلقَىٰ إِلَيهِ كَنزٌ أَو تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ) (٤)

(١) سورة يونس، آية (٢).

(٢) سورة يونس، آية (١٤).

(٣) سورة الفرقان، آية (٣١).

(٤) سورة الفرقان، آية (٨).

يـغـفـل هـؤلاء المحتجون عن حقيقة عدم وجود الارتباط والتلازم بين امتلاك المال والثروة و بين الصلة بالله.

ويحـاكـم الـقـرآن في سـورة الـطور ضمن آيات كثيرة مخالفي الأنبياء محـاكـمـة وجـدانـيـة و يـسد عليهم جميع نوافذ المعاذير و يقول: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا﴾(١)، فهل قال الأنبياء مقولة مخالفة للحكمـــة فتعصـــوهـم وتعترضوا عليهم بحكم العقل أم هي أحلام وخيالات؟

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾(٢)

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ؟﴾(٣)

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾(٤)

من مغرم مثقلون = يتثاقلون من الغرامة المالية...

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾(٥)

﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾(٦)

والخلاصة هـي ان الـقـرآن في هذه السورة يجر مخالفي الأنبياء الى قاعة محكمة الوجدان و يسد عليهم كل الطرق التي يمكن ان يستخدموها معاذير وحججاً في مخالفتهم للأنبياء.

٣ـ الانكار لأجل توقعات واهنة

نـقـرأ في بعض آيات القرآن. توقعات لامحل لها كانت تطلبها الناس

(١) سورة الطور، آية (٣١).

(٢) سورة الطور، آية (٣٣).

(٣) سورة الطور، آية (٣٥).

(٤) سورة الطور، آية (٤٠).

(٥) سورة الطور، آية (٤٣).

(٦) سورة الطور، آية (٣٦).

من الأنبياء فأحياناً يقولون:

(وَمٰا نَحنُ بِمُنشَرِينَ فَأتُوا بِآبائِنا إنْ كُنتُم صٰادِقِينَ)(١)

منشرين = مبعوثين يوم القيامة.

ومن المحتمل ان يطلب آباؤهم الموتى بعد احيائهم من النبي ان يعيد آباءهم أيضاً، وهكذا لابدَّ أن يعيد النبي حركة الوجود الى الوراء. في حين ان المنطق السليم و نموذجاًأونموذجين من معجزات الأنبياء كافٍ بالنسبة للانسان المستقيم بلالجاجة وتعنت، و يرفع يده عن التوقعات التافهة التي لاموقع لها.

نقرأ في بعض الآيات الأخرى قوله تعالى:

(يَسْئَلُكَ أهلُ الكِتٰابِ أنْ تُنَزِّلَ عَلَيهِم كِتٰاباً مِنَ السَّمٰاءِ)(٢)

وهذا الطلب يشبه حالة المريض الذي يمتنع عن الذهاب الى الطبيب و يقول لابدَّ ان أصبح طبيباً وأنا غير مستعد للذهاب الى طبيب آخر وان انتهى الأمر الى ان أدفع حياتي ثمناً.

واهل الكتاب يغفلون كما يغفل هذا المريض عن ان الوحي لاينزل على كل قلب كما ان الطب والتخصص به لايتاح لكل فرد. وفوق كل ذلك طلبوا من موسى «ع»:

(فَقٰالُوا أرِنٰا آللّهَ جَهرَةً)(٣)

والقرآن يقول بصدد هذه التوقعات الواهنة:

(وَلَونَزَّلْنٰا عَلَيكَ كِتٰاباً فِي قِرطٰاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأيدِيهِم لَقٰالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إنْ هٰذٰا إلاّ

(١) سورة الدخان، آية (٣٥ ـ ٣٦).
(٢) سورة النساء، آية (١٥٣).
(٣) سورة النساء، آية (١٥٣).

سِحرٌ مُبينٌ)(١)

نعم فهناك من الناس من لا يؤمن وان رأى كل آية ودلالة ومعجزة:

(وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا)(٢)

٤ـ الانكار بسبب عبادة الهوى

يفقد المخالفون أحياناً المعاذير والتوقعات التي لا محل لها، لكنهم يمتنعون عن قبول دعوة الأنبياء بسبب عدم انسجام بعض تعاليم الأنبياء مع مزاجهم وميولهم، يقول القرآن في هذا المجال:

(كُلَّمَا جَاءَهُم رَسُولٌ بِمَا لا تَهوىٰ أنفُسُهُم فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقتُلُونَ)(٣)

سلوك المخالفين

كنا نتناول بالحديث جانباً من البواعث التي تدفع نحو مخالفة الأنبياء، ومن الواضح ان مسألة تقليد الآباء والأجداد ـ وفي حدود ـ لها أثرها أيضاً.

الآن وبعد ان تعرفنا على هوية المخالفين وأسباب مخالفتهم للأنبياء نعكف على بيان جانب من ممارسات هؤلاء السلوكية.

انقذ موسى بني اسرائيل من عذاب فرعون وتحمل في هذا الطريق كل ألوان المتاعب التي تصاحبه. الاّ انه بمجرد ان عهد قيادة الأمة مُدة قصيرة لأخيه وذهب الى جبل الطور ارتد الناس على أعقابهم واتخذوا

(١) سورة الأنعام، آية (٧).
(٢) سورة الأنعام، آية (٢٥).
(٣) سورة المائدة، آية (٧٠).

العِجل إلٰهاً، وكلما ناداهم خليفة موسى، والنبي العزيز، هارون لم يصغوا لندائه، وحينما عاد موسى ووجد أمّته مرتدة لعبادة العجل تألم تألماً شديداً وعاتب أخاه عتاباً قاسياً، وكان جواب هارون على اعتراض موسى ان قال:

﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾(١)

نعم هناك في كل زمان أفراد يحصلون على حريتهم وخلاصهم على يد القادة الإلٰهيين ولا يمرّ زمن طويل على تحررهم حتى يعودوا يتلمسون الحجج والمعاذير لتضعيف موقع المنقذ و يشكلون صفًّا في مواجهته، وخطّاً مقابل خطه. حقاً ان الالتفات لهذه الآيات تنبيه جيد وتربوي للأمة وللقادة الاجتماعيين أيضاً.

نشاهد نموذج استضعاف الأنبياء واهمال نداء الأنبياء عند الرسول الأكرم «ص» أيضاً. هناك وعلى فراش المرض نادى رسول الله ان أئتوني بدواة وقلم لأكتب لكم كتاباً، فواجهه البعض بشيء من الوقاحة ولم يعتنوا بوصيته بالقائد عند بيعة الغدير وذهبوا صوب آخر. وكانت هذه الوقاحة زمن عزّ الاسلام وقوة المسلمين. واذا أردنا ان ننقل آلام الأنبياء التي واجهوها أوائل عملهم وفي زمن غربة رسالتهم ففهرست هذه الآلام بحاجة الى كتاب مفصل، فقد عاش الأنبياء في وسط أعمال وأفكار وأقوال المخالفين المزيفة والتي ينقل القرآن نماذج منها.

التعرف على متاعب الأنبياء الكبيرة له فائدتان:

١ــ نمو روح التقدير في الانسان وادراكه لحقيقة ان الرسالات السماوية لم تصل إلينا بيسر و بساطة، واستيعابه لدور الأنبياء المضني

(١) سورة الأعراف، آية (١٥٠).

من أجل ايصال هذه الرسالات.

٢ــ يعلم اتباع طريق الأنبياء ان هداية الأمة واصلاح المجتمع بحاجة الى جهد وصبر وتحمل لكل أشكال المتاعب والآلام. وها نحن نذهب صوب القرآن لنعيد للقراء ما جاء به في هذا المجال:

مخالفو نوح «ع» قالوا له:

﴿وَمٰا نَرٰاكَ اتَّبَعَكَ إِلاّ الَّذِينَ هُم أَرٰاذِلُنٰا﴾ (١)

وحينما أخذ نوح «ع» بصنع السفينة بأمر الله كان موقف قومه منه:

﴿وَ يَصنَعُ الفُلْكَ وَكُلَّمٰا مَرَّ عَلَيهِ مَلأٌ مِن قَومِهِ سَخِرُوا مِنهُ﴾ (٢)

وقالوا لشعيب «ع»:

﴿يٰا شُعَيبُ مٰا نَفقَهُ كَثِيراً مِمّٰا تَقُولُ وَإِنّٰا لَنَرٰاكَ فِينٰا ضَعِيفاً﴾ (٣)

وهذا ابراهيم عليه السلام الذي تآمروا عليه لاحراقه، والآخر هود «ع» الذي وجه له مخالفوه أكبر اهانة وقالوا:

﴿إِنّٰا لَنَرٰاكَ فِي سَفٰاهَةٍ﴾ (٤)

ولم ينفعل هذا الرجل العظيم ولم يندم بل استمر في عمله، وأجاب كلام قومه بكلمة مختصرة وهي: ﴿لَيسَ بِي سَفٰاهَةٌ﴾

وقالوا لنبي آخر:

﴿إِنّٰا لَنَرٰاكَ فِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ﴾ (٥)

وكان موقفه كموقف هود «ع» استمر في عمله وأجابهم بكلمة مختصرة:

(١) سورة هود، آية (٢٧).

(٢) سورة هود، آية (٣٨).

(٣) سورة هود، آية (٩١).

(٤) سورة الأعراف، آية (٦٦).

(٥) سورة الأعراف، آية (٦٠).

(يا قوم لَيسَ بِي ضَلالَةٌ) (١)

و يتحدث القرآن أيضاً عن المؤمرات الشريرة التي دبرها أعداء رسول الاسلام «ص» و يقول:

(وَإذْ يَمكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثبِتُوك) يعتقلوك ، (أوْ يَقتُلُوك) (أوْ يُخرِجُوك) (٢)

نعم هكذا كان وضع الأعداء مع رسول الاسلام. فقد كان نبيّنا «ص» يتألم من بعض أقرب أقربائه أيضاً. فهذا أبو لهب عمّه الذي كان يعرقل كل خطوة اصلاحية يخطوها النبي، فقد كان يشترك في الاجتماعات الأولى التي كان يبلغ فيها رسول الله و يقوم بتشويش جو الاجتماع ويهبط بمستوى الاستعداد للتبليغ والهداية.

وقد كانت تهمة الساحر والمجنون والكاهن تهمة رسمية تلصق بالأنبياء العظام.

يقول القرآن: (وَما يَأتِيهِم مِن رَسُولٍ إلاّ كَانُوا بِهِ يَستَهزِؤونَ) (٣)

تلاحظون فرعون لايمتنع عن الصاق أية تهمة بموسى «ع» لا ثارة الناس ضدّه، فأحياناً يقول:

(يُرِيدانِ أنْ يُخرِجاكُم مِن أرضِكُم) (٤)

وأحياناً يخلق جواً كاذباً من الغرور ليثير الناس و يقول:

(وَيَذهَبا بِطَرِيقَتِكُم المُثلىٰ) (٥)

تصل معارضة الأنبياء أحياناً الى الحد الذي يواجه النبي كلما شرع بالحديث بهذا الموقف: (جَعَلُوا أصابِعَهُم في آذانِهِم وَاسْتَغشَوْا ثِيابَهُم) (٦)

(١) سورة الأعراف، آية (٦١).
(٢) سورة الأنفال، آية (٣٠).
(٣) سورة الحجر، آية (١١).
(٤)، (٥) سورة طه، آية (٦٣).
(٦) سورة نوح، آية (٧).

كانت هذه المخالفة بصورها المختلفة تنبع من الخارج.

والمؤسف جداً هو حينما تنبع المعارضة والخيانة من داخل بيت النبي. فهذا نوح ولوط كان لكل منهما امرأة مخربة ومخالفة. وبخصوص امرأة لوط فقد كانت تسرب معلومات من داخل البيت الى الأعداء في الخارج.

عرف القرآن هاتين الزوجتين وقال: (ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحتَ عَبدَينِ مِن عِبَادِنَا صَالِحَينِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَم يُغنِيَا عَنهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيئاً)(١)

هاتان الامرأتان عاشتا على موائد نبي واستفادتا من امكانات منزله، وكانتا تحت نفوذ نبي، مرتبطتين بأسرته الاّ انهما حيث لا تريدان قبول الحق لم تقبلاه.

هذه الواقعة تزلزل رؤية بعض الاتجاهات التي تقول: ان طراز التفكير واختيار الطريق بالنسبة لكل انسان مرتبط ارتباطاً كاملاً بالوضع الاقتصادي، اذ اننا شاهدنا في هذه الواقعة هاتين الزوجتين تُؤمن حاجاتهما الاقتصادية من منزل نبي الاّ انهما تناديان لمصلحة الشرك. ونشاهد عكس ذلك في امرأة فرعون التي كانت تعيش في القصر الاّ انها تفكر بهموم سكان الأكواخ ونشأت في ظل نظام طاغوتي الاّ انها كانت مخالفاً عنيداً لذلك النظام، وكانت تتغذى على موائد فرعون الاّ انها جاءت لحماية موسى «ع».

نماذج هذه الوقائع تشير الى ان طراز تفكير الانسان وأسلوبه ومنهجه واختياره لايرتبط ١٠٠٪ بنظامه الاقتصادي رغم الأهمية البالغة للنظام الاقتصادي في الحياة.

(١) سورة التحريم، آية (١٠).

التجربة والتاريخ توضح بجلاء وهن مجموعة الشعارات التي تقول: اذا أردت أن تعرف طريقة تفكير الانسان فلاحظ من أين يحصل على الطعام؟

أو تقول: ان الانسان المرفه في القصور لايستطيع ان يفكر بهموم سكان الأكواخ!!

ونستطيع القول ان الاتجاه الذي أُسس على أسس هذه الشعارات يطوي أيام عمره الأخيرة. رفعوا شعار (ان الطريق العلمي للنضال ضد الامپريالية لايمكن الاّ عن الطريق والخط الذي قدمته الماركسية وهو تصعيد التناقضات الداخلية.) رفعوا هذا الشعار سنيناً من الزمن وفجأة شاهدنا في ايران الاسلام وأمام أعين شعب تعداده (٣٥) مليون نسمة أضخم نضال ضد الامپريالية دون ان نستعين بأبسط طرح أو نأخذ شيئاً من أصول مايُسمّى بالماركسية العلمية وفهم العالم ان هناك خطاً ثالثاً غير النظام الرأسمالي أو الماركسي وهو (الاسلام).

نعم فالشخص الذي يفكر في الاطار المادي وليس في حسابه عالم ماوراء المادة يحصر طريق الثورة أيضاً في تلقي مجموعة أصول مادية.

كانت هذه زاوية من عراقيل مخالفي الأنبياء الاّ ان الأشد ألماً هو ان يقوم جماعة باسم الموافقة بأعمال لايقوم بها حتى المخالفون أنفسهم. وهذا الصنف من الجماعات يعرفه الاسلام باسم (المنافق) الذي لم يمتنع عن توجيه أي ضربة للاسلام.

تعذيب وجرح مشاعر أنصار الأنبياء

لاينبغي ان نغفل عن موضوع تعذيب اتباع الأنبياء، يقول القرآن:

﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الوَقُودِ إِذْ هُم عَلَيهَا قُعُودٌ وَهُم عَلَىٰ مَا يَفعَلُونَ بِالمُؤمِنِينَ شُهُودٌ وَمَا نَقَمُوا مِنهُم إِلَّا أَن يُؤمِنُوا بِاللَّهِ العَزِيزِ الحَمِيدِ﴾ (١)

ونقرأ في سورة المطففين أيضاً قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضحَكُونَ﴾ (٢)

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِم يَتَغَامَزُونَ﴾ (٣).

﴿وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهلِهِم انقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ (٤)

﴿وَإِذَا رَأَوهُم قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ (٥)

هـذه الآيـات المتوالية في سورة المطففين تكشف عن فكر وسيرة رديئة مـارسـها المجرمون على طول التاريخ، لإنهاك القوى النفسية للعناصر التي تـسير على خـط الله. لـكـن العناصر التي عرفت ربَّها بحق وآمنت بحقانية تـعـاليمه وعـصـمة قيادتها ليست مستعدة أبداً لترك طريقها الذي اختارته بسبب اساليب السخرية والاستهزاء هذه. لأن القرآن يعدهوءلاء بقوله تعالى: ﴿فَاليَومَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الكُفَّارِ يَضحَكُونَ عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾ (٦).

فـاذا كـان المجرمون اليوم يتآمرون ويحاربون المؤمنين فسوف يأتي اليوم الـذي يـسخـر فيـه المـؤمـنون من المجرمين، وهم جوار رحمة ربِّهم في جنة الخلد.

(١) سورة البروج، آية (٤)، ومابعدها.
(٢) سورة المطففين، آية (٢٩).
(٣) سورة المطففين، آية (٣٠).
(٤) سورة المطففين، آية (٣١).
(٥) سورة المطففين، آية (٣٢).
(٦) سورة المطففين، آية (٣٤-٣٥)

عراقيل المنافقين

أشرنا في ما مضى الى ان الأنبياء لم ينحصر أذاهم من قبل الجاحدين. بل كانوا يتجرعون أضعاف تلك الآلام من قبل المنافقين. فتلك العناصر التي بنت مسجداً في مواجهة مسجد النبي «ص» لتفرق جماعته وتجعل المسجد الجديد مركزاً للمنافقين. ويمكن انك قد سمعت بأن هؤلاء المنافقين دعوا النبي لأجل افتتاح مسجدهم الاّ ان النبي أحرق المسجد وخرّبه، ونهى الله تعالى نبيَّه عن اقامة الصلاة في هذا المسجد الذي أُسس لأجل ايجاد التفرقة والنزاع في صفوف المسلمين ولغرض جعله مركزاً للتجسس (لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً)(١). ولا يتلخص تخريب المنافقين في عمل واحد أو عملين، فقد كانوا يظهرون ما لم يبطنوا (وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ)(٢)، وكانوا في انتظار الفتنة يريدونها ان تقع بين المسلمين (لَقَدِ ٱبْتَغَوُا ٱلْفِتْنَةَ)(٣)

وهؤلاء المنافقون اذا اشتركوا في معارككم فهم يشتركون لأجل ضرب الاسلام والتجسس للأعداء وايجاد الفرقة في صفوف المسلمين. ولا يكون نصيبكم من اشتراك هؤلاء في حربكم مع الأعداء سوى الاضطراب والتردد وايجاد الهلع:

(لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً)(٤)

واذا قاموا ليؤدوا الصلاة:

(لاَ يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَىٰ)(٥)

(١) سوره التوبة، آية (١٠٨).
(٢)(٣) سورة التوبة، آية (٤٨).
(٤) سورة التوبة، آية (٤٧).
(٥) سورة التوبة آية (٥٤).

واذا انفقوا:

﴿لاَ يُنفِقُونَ إلاَّ وَهُم كَارِهُونَ﴾ (١)

انتقادات مرضية

كان لدى أولئك المنافقين انتقادات حادة على تصرفات النبي المالية. مثلاً في مجال صرف الزكاة والضرائب الأخرى، كانوا يعيبون على النبي عطاءه لهذا أو ذاك ﴿وَمِنهُم مَن يَلمُزُك في الصَّدَقَاتِ﴾ (٢)

القرآن الكريم يكشف عن دوافع انتقادات أولئك و يرى انها ليست ناشئة عن عقيدة وانما تنشأ عن عقدة وحبّ للذات والمال. والدليل على ذلك ﴿فَإنْ أُعطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإنْ لَمْ يُعطَوْا مِنْهَا إذَا هُمْ يَسخَطُونَ﴾ (٣)

الى هنا ننهي الحديث في هذا المقطع من القسم السادس الذي تناولنا فيه مخالفي الأنبياء ومتاعبهم على أمل أن نقدم للقراء حلقة مستقلة حول المنافقين.

* * *

الآن نتحدث بشكل موجز حول أتباع الأنبياء وموافقيهم ونتناول تضحياتهم للتعرف عليها لما لها من دور ترب وي بناء.

باعث ايمان الموافقين

نختلف مع البعض الذي يتخيل ان علة اعتقاد المؤمنين بالأنبياء

(١)ـ سورة توبه آيه (٥٤).

(٢)ـ سورة التوبة، آية (٥٨).

(٣)ـ سورة التوبة، آية (٥٨).

تنحصر بالحرمان الاقتصادي، وحيث ان الأنبياء قارعوا الظلم والفقر التفت جماهير المحرومين حولهم. فهذا التصور لاينسجم مع الواقع لأن هذا النوع من الاستنتاج والتفسير يأتي جراء اغفال وجود فطرة قبول الحق لدى الانسان. مضافاً الى اننا نجد أفراداً في التاريخ كانت أوضاعهم المالية جيدة ولم يصاحب حياتهم أي لون من الظلم والاضطهاد والفقر الاّ انهم قبلوا رسالة الأنبياء وارتبطوا بها أيّ ارتباط. وضحّى هؤلاء بمالهم ورفاههم وأرواحهم على طريق الأنبياء. نظير امرأة فرعون وخديجة و... على هذا الأساس فالذي يقول ان الايمان بالأنبياء كان لأجل الحصول على الخير والمال والحرية مثله مثل الذي يقول ان أنف الانسان خلق لكي تنصب نظارة فوقه فقط... وهذا خيال باطل.

كان للأنبياء صنفان من الأتباع:

١ــ الاتباع غير الصامدين.

٢ــ الأتباع الصامدون.

الأتباع غير الصامدين

تنقل سورة البقرة قصةً تدور حول أتباع لاوفاء لهم لنبي من أنبياء بني اسرائيل. وهنا نحاول اعادة هذه القصة بشكل مختصر:

بعد ان وقعت جماعة من بني اسرائيل تحت ظلم الطواغيت وأهانتهم، اتخذت هذه الجماعة قراراً بالنهضة في وجه الظلم، فذهبوا الى نبيِّهم وكان اسمه (شموئيل)، وطلبوا منه العون لتعيين قائد عسكري لائق. قال لهم النبي أول الأمر: يحتمل ان تعصوه حينما يصدر لكم أمراً بالقتال والجهاد، فأجابوا بأنهم سوف يرابطون وقالوا: هل يمكن ان لاننهض بعد

كل الظلم الذي وقع علينا من احتلال مدننا من قبل الأعداء وتشريد أبنائنا ونسائنا، فنحن سوف نقاتل حتماً، وطلبنا الوحيد منك هو ان تعيِّن لنا قائداً لائقاً.

فدعى النبيّ ربَّه وطلب من الله ان يُهيِّء لهذه الأمة الناهضة قائداً لائقاً، أُستجيب دعاؤه وعُرِّف شخص من قبل الله لائق من الناحية البدنية والعلمية وكان اسمه طالوت، فعرَّفه النبي للناس أيضاً ونصبه قائداً لهم.

الاّ ان الناس بحكم محدودية أُفقهم قالوا: ان هذا القائد غير معروف ولا مشهور وليس له ثروة ومكانة اجتماعية، ونحن لا نخضع أبداً لأوامره، اذ لو أردنا ان يكون زعيمنا فلدينا من هو أكثر لياقة منه فإننا لدينا من هو أغنى وأثرى منه !!!

وكلما خاطبهم النبي وقال لهم ان طالوت عُيّن من قبل الله لأنه يتمتع بكمالات علمية و بدنية لم تقبل جماعة منهم، و بتلك الحجج انفصلوا عن المقاتلين، وقلّ عدد الثوار... وهذا هو الاختبار الأول الذي انتج ارتداد جماعة من أمّة (شموئيل).

الاختبار الثاني هو ان القائد العسكري خاطب الثوار الذين وافقوا على قيادته وقال لهم اننا في ثورتنا هذه سوف يواجهنا امتحان إلهي ونقع في محاصرة اقتصادية، وأقول لكم بوضوح انكم سوف تصلون الى نهر لا يجوز ان تشربوا منه وكل من شرب منه فهو ليس منّا.

وافق الثوار جميعهم على هذا الشرط الاّ انهم حينما وصلوا الى النهر وحلّ زمن الاختبار لم يستطيعوا صرف النظر عن الماء وشربوا منه الاّ نفر قليل...

وهنا نلاحظ أيضاً كيف ترك هذا الاختبار خلفه جماعة مرتدة

وخلال محاصرة اقتصادية بسيطة سقط عبدة البطون من مدعي الثورة.

الاختبار الثالث، وقع هذا الاختبار حينما واجه الثوار جيش الخصوم الجرار، هنا اضطربت جماعة منهم وتعثرت في خطاها وجبنت وصاحت اننا لسنا خصوم هذا الجيش وانسحبوا عن الميدان مرتدين عن دينهم. الاّ ان حفنة قليلة من المؤمنين الحقيقيين بالهدف ومن السائرين على خط الله وخط الأنبياء خرجت من الاختبار الأول والثاني دون ان تعترض على قيادة طالوت ولم تشرب من الماء الممنوع وكانت في هذا الاختبار شجاعة صلبة وواجهوا عدوهم تحت شعار (كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَت فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذنِ اللَّهِ)(١)، وقتل فتىً اسمه داود قائد جيش الكفر.

كانت هذه الخلاصة اطلالة على قصة تقدم عِبَراً تربوية كثيرة. وقد نقلها القرآن في سورة البقرة من الآية (٢٤٧) الى الآية (٢٥٣). في ضوء هذه الواقعة يتضح بجلاء الفرق بين الأتباع الحقيقيين والمزيفين وبين الأنصار على مستوى الشعار والأنصار على مستوى العقيدة والشعور.

وتقدم لنا هذه الواقعة تحذيراً مفاده انه ليس مهماً ان تكون ثورياً لكن المهم ان تكون مستمراً في طريق الثورة. فأبطال القصة كانوا يرفعون جميعهم شعار الثورة حتى النصر غير انهم لا تمر مرحلة عليهم الاّ وقلّ عدد الثوار فيهم.

وهذه القصة لا تنحصر بتاريخ معيّن بل هي حالة دائمة فالادعاءات كثيرة والعمل قليل والشعارات وافرة والشعور والعقيدة ضعيفة ابتداء العمل حماسة لكنه ينتهي الى الركود والبرود.

بارك لعلي بالقيادة والخلافة في غدير خمّ مايقارب (١٠٠) ألف

(١) سورة البقرة، آية (٢٤٩).

شخص، و بعد مضي شهرين نسوا تبريكهم تماماً. و بعد مقتل عثمان التفت طبقات الأمة جميعها حول علي «ع» و بايعته بالخلافة، ولم يدم الأمر طويلاً حتى أعلنت جماعات حربها ضد حكم علي، وحمّلوه حروباً في النهروان وصفين والجمل.

دعوا الامام الحسين «ع» الى الكوفة ليسقطوا بمعونته النظام الأموي الاّ انهم قتلوه في كربلاء قبل ان يصل الى الكوفة.

جرّوا الامام الحسن «ع» الى الحرب، ولكن بعد ان حانت ساعة القتال التحقوا بمعاوية وأخلوا معسكر الحسن «ع».

وحينما كان النبي «ص» يخطب في صلاة الجمعة سمعوا طبول تجار البضائع الواردة فتركوا صفوف الصلاة وذهبوا صوب الطبول.

ونقرأ في الروايات أيضاً انه حينما يظهر المهدي «عج» تتحرك جماعات من المساجد لتقاتله «ع».

ولذا لم يكن يوسف «ع» بعد نجاته من شر أخوته الحاسدين وانقاذه من ظلمات البئر و وصوله الى مركز العزة عابثاً في دعائه ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمٰوَاتِ وَالارْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسلِماً وَأَلْحِقنِي بِالصَّالِحِينَ﴾(١)، اذ ان قيمة العمل الحقيقية هي بالعاقبة الحسنة.

وليس عبثاً ان يترك علي «ع» سؤال النبي حينما أخبره بشهادته ولم يسأله: أي شخص يقتلني؟ ولماذا يقتلني؟ بل سأله: أفي سلامة من ديني؟

وخلاصة الكلام هي ان هناك فاصلة كبيرة بين القول والوعد

(١) سورة يوسف، آية (١٠١).

والادعاء و بين العمل والوفاء والدليل. فاذا تحدث القرآن في حدود (٢٠) مرة عن الاختبار وامتحان الناس فلأنه ما لم يواجه الانسان اختبارات مختلفة فلا ترشد صفاته ولا تنموا طاقاته وخصوصياته الواقعية.

وفي تاريخ صدر الاسلام نماذج كأبي ذر و بلال وميثم صمدت أمام التعذيب الجسدي ولم تنحرف عن رسالتها وكانت هناك نماذج أيضاً في مقابل هذه النماذج انحرفت عن الاسلام خوفاً من التعذيب.

الأتباع الأوفياء

بعد ان تحدثنا حول الأتباع غير الصامدين، نتحدث الآن أيضاً عن أتباع الأنبياء الأوفياء.

يقدم القرآن في هذا المجال آيات كثيرة نذكر هنا بعض هذه الآيات:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا)(١)

يرتابوا = يشكُّوا و يترددوا.

وصل جمع من سكان البادية (الأعراب) الى النبي «ص» وقالوا اننا آمنا فنزل القرآن فوراً وهو يقول: (قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ)(٢)

كان أتباع الأنبياء الواقعيون افراداً كلمَّا دعاهم النبي «ص» لأمر من الأمور قالوا بقلوبهم ألسنتهم (سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا)(٣)

(١) سورة الحجرات، آية (١٥).

(٢) سورة الحجرات، آية (١٤).

(٣) سورة النور، آية (٥١).

كان النبي «ص» والمسلمون مشغولين بحفر الخندق في غزوة الأحزاب، فانصرف بعض المسلمين دون اجازة النبي وتركوا مكانهم في حفر الخندق خالياً، الاّ ان مقابل هؤلاء كان هناك أفراد أيضاً كلمّا أرادوا ترك محل عملهم استجازوا النبي «ص». فنزل فيهم قرآن يطريهم ويمدحهم و يقول: ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ (١)

ونقرأ في سورة آل عمران قوله تعالى:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ (٢)

ونقرأ أيضاً في السورة نفسها آية (٦٨) قوله تعالى:

﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾

العلامة الأخرى للايمان الواقعي بالله ورسوله هي اتخاذه حكماً في النزاع.

﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (٣)

وفي آية أخرى يقول القرآن:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ (٤)

حصل نزاع أيام الرسول «ص» بين شخصين حول ماء السقي. فجاء ا رسول الله لرفع النزاع فاصدر حكماً بمصلحة أحدهما و بضرر الآخر، فاعترض الآخر على الرسول، لماذا تصدر حكماً بنفع فلان، فنزلت الآية:

(١) سورة النور، آية (٦٢).
(٢) سورة آل عمران، آية (٣١).
(٣) سورة النساء، آية (٥٩).
(٤) سورة النساء، آية (٦٠).

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً)(١)

وفي سورة الأحزاب نقرأ أيضاً قوله تعالى:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)(٢)

العلامة الأخرى للايمان الواقعي بالانبياء هي ان يأخذوا مواقفهم وأفكارهم السياسية والاقتصادية والعسكرية من الأنبياء كما يأخذوا عباداتهم من الوحي والأنبياء. فقد انتقد القرآن بشدة العناصر التي تَثِب وتتحرك وفق الشائعات وقال: (وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ)(٣)

هذه الآية قانون عام لكل المسلمين في سائر العصور والأزمنة وهو يتحتم على المسلمين أن يرتبطوا في مسائلهم السياسية والعسكرية والاعلامية بشكل مباشر مع الرسول وأهل بيت الوحي ونواب هؤلاء العظام والاّ فسوف يجر المتلاعبون السياسيون الأمة حيث هواهم وميولهم.

يقول القرآن بصدد الاتباع الواقعيين للأنبياء:

(الَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِمَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوا أَجْرٌ عَظِيمٌ)(١)

لاحظ لفتة جميلة في هذه الآية التي تتحدث عن جرحى الحرب الذين يستجيبون لنداء الجهاد رغم جروحهم... ولفتة الآية هي ان القرآن يقدر

(١) سورة النساء، آية (٦٥).
(٢) سورة الأحزاب، آية (٣٦).
(٣) سورة النساء، آية (٨٣).
(٤) سورة آل عمران، آية (١٧٢).

جهود هؤلاء الفدائيين بشرط التقوى والإحسان:
﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

نعم في مفهوم رسالة الاسلام لاقيمة للسجن والتعذيب والجرح والسيف ما لم يصحب بعاقبة حسنة. فلاحظ القرآن يشترط تقدير أولئك المجاهدين الذين أعانوا النبي في أحرج الظروف بالاحسان والتقوى.

وفي سورة آل عمران آية ملفتة للنظر تتحدث عن تضحيات أتباع الأنبياء نذكرها هنا لنختتم هذا القسم من البحث تقول الآية:
﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (٢)
ربِّيون = رجال ربانيون الهيون...

يمكن ان يكون لنقل تضحيات الأمم السالفة أثر تربوي على الأمم الآتية كما كان لاعادة الحديث عن متاعب الأنبياء السابقين أثر كبير في بثّ روح الأمل في نفس الرسول «ص». سائلين الله ان يجعلنا من أتباع الأنبياء الأوفياء انه سميع مجيب.

(٢) سورة آل عمران، آية (١٤٦).